عماد: دينا
رزق: رواية/ دينا عماد. - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع/ القاهرة: ٢٠١٦.
٢٨٨ص؛ ٢٤×٢٠
تدمك: ٢-٤٨-٢-٦٥٠٢-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٩٠٣١

دار النشر: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: رزق
الكاتب: دينا عماد
تاريخ الطبع: ٢٠١٦
تصميم الغلاف: كريم آدم
إشراف عام: محمد المصري




elrasm.blkalemaat

elrsmblklemat@yahoo.com

01061419555

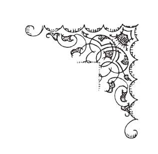


رزق

(رواية)

دينا عماد

2016



إهداء

إلى كل سيّدة ألهمتني كتابة روايتي..

بكفاحها..

وصبرها..

وتفانيها..

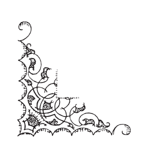
وتضحياتها..

إليكُنّ عامةً..

و إلى أمي خاصةً..

حبي وتقديري واحترامي..

وسطور روايتي



مقدمة

في رحلتِنا.. طالت أم قصرت.. يدخل البعض حياتنا ويبقون، وآخرون راحلون..

قد نرغب في بقاء مَن سيرحل.. وقد نتمنى رحيل من سيبقى..

وفي النهاية..

نعلم أنَّ بقاءهم رزق..

وفي رحيل بعضهم رحمة.

«دفء الأسرة سعادة لا تُقدَّر بمال.. ليتها تدوم»

شتاء ٢٠٠٤..

انتفضت «فاطمة» من قشعريرة بَرْد سرت في جسدها في الصباح المبكر من أحد أيام ديسمبر لتجد اللحاف القطن قد انزلق من على جسدها ووقع على الأرض.. التفتت إلى جوارها فوجدت «نورا» نائمة دون غطاء.. اعتدلت فاطمة جالسة، سحبت اللحاف من الأرض ودثرت ابنتها جيدًا.. لم تتغير نورا؛ فمنذ ولادتها منذ سبعة عشر عامًا وهي تلقي دائمًا بغطائها مهما كان الجو باردًا.. نهضت فاطمة وأحكمت الغطاء على عليّ، ابنها الأكبر، النائم على الكنبة المقابلة للسرير الذي تتقاسمه مع ابنتها.

قامت تتمتم بكلمات الحمد والشكر لله على نعمة الستر.. فكل ليلة تبيت فيها مع أولادها في غرفتهم هي ستر ونعمه من الله..

مَن يدري لو لم تجد تلك الغرفة ماذا كان مصيرها هي وأولادها الآن.. بعد وفاة زوجها وتراكم الإيجار عليها وطردها من شقتها السابقة، ساعدها أهل المنطقة وأصحاب زوجها المتوفى في البحث عن مسكن بديل..

غرفة كبيرة في سطح منزل الحاج عوض حمودة، صاحب أحد المطاعم القديمة بوسط البلد.. الغرفة مساحتها لا تتجاوز ثلاثين مترًا مربعًا.. بها مكان صغير من المفترض أنه حمّام.. لا يسع لشخص أن يفرد فيه أحد ذراعيه.. بل يكفي للاستحمام مواربة.. أمّا ما دون ذلك فهي غرفة مربعة بنافذتين إحداهما على السطح والأخرى على الشارع.

لم يكن هناك اختيار.. وافقت فاطمة على الفور على العيش فيها بإيجارها القليل.. استطاعت أن تجعل منها بيتًا جميلاً يضمها مع أولادها و يشعرهم بالأمان.

قسمت الغرفة بستارتين من قماشة ثقيلة؛ حتى تخفي غرفة النوم عن الصالة، كما سمّتهما.

الغرفة بها سرير وكنبة للنوم، ودولاب صغير يسع ملابسهم جميعًا.. والصالة تحت شبّاكها المطل على السطح وضعت البوتاجاز.. وبجواره نملية صغيرة تحوي احتياجاتها من تموين وحلل وأطباق.. وتحت النملية طاولة صغيرة لها عدة استخدامات؛ فهي لتحضير الطعام، وتناوله عليها أحيانًا.

وفي ركن آخر، توجد كنبة اسطمبولي يجاورها مقعدان من البلاستيك، تقبع خلفهما طاولة تُفتَح أثناء استخدامها وتُطوى مرة أخرى بعد الانتهاء من استعمالها.

وعلى جانب آخر طاولة أخرى يوضع عليها تليفزيون وراديو كاسيت، والكتب الدراسية لـ«نورا» وعليّ.. أمّا الجدار المتبقي، فتوجد في إحدى زواياه ثلاجة صغيرة وغسالة كهربائية.

شمّرت فاطمة كُميها وفتحت الراديو على إذاعة القرآن الكريم.. اتجهت للحمام.. ثم أدت صلاتها.. بعدما أنهت صلاتها نظرت في الساعة فوجدتها الخامسة والنصف صباحًا.. ذهبت للثلاجة وأخرجت طبقًا به ثلاث قطع صغيرة من اللحم، ومصفاة بها بسلّة مفصصة وبعض قطع من الجزر.. وذهبت لتطهو طعام الغداء قبل نزولها للعمل.. وضعت الطعام على النار ثم بدأت تنظيف الصالة من كنس ومسح، سمعت أثناءه صوت المنبّه في الغرفة لينبئها أنها السادسة والنصف.

دخلت توقظ ابنَيها.. تنادي على كل منهما..

رد عليّ: «خلاص يا ماما.. صحيت».

تبعته نورا: «خمسة وأقوم».

تركتهما وخرجت تكمل التنظيف.. فتحت باب الشقة -كما تعتبرها- وكنست ومسحت أمامها.. التفتت عائدة، وجدت نورا ممددة على الكنبة.. فقالت وهي تتجه لغسل يديها:

«إنتي هتكمّلي نوم هنا.. هتتأخري».

أجابت نورا بصوت ضعيف:

«جسمي مكسر أوي.. مش قادرة أرفع دماغي».

اقتربت فاطمة منها بعدما سمعت صوتها.. مدت يديها تتحسس جبينها:

«انتي دافية.. طول الليل مش متغطية والجو برد.. آديكي بردتي أهو».

خرج «علي» من الغرفة وسألهما:

«مالها.. تعبانة ولا إيه؟».

فاطمة: «شكلها خدت برد.. قومي ريَّحي في السرير لحد ما أغلي لك لمون».

نامت نورا مكانها.. فدخل علي وأحضر بطانيته ودثّرها بها.

بينما انتهت فاطمة من إعداد ساندويتشات علي للمدرسة.

قال علي وهو يتناول الساندوتشات من والدته:

«مفيش حد فاتح دلوقتي أجيب لها حاجة للبرد؟».

- «هعمل لها لمون مغلي وأدفيها قبل ما أنزل.. وانتَ جاي عدّي على أيّ صيدلية هات لها دوا للبرد».

ناولته عشرة جنيهات.. وأكدت عليه:

«متتأخرش عليها بعد المدرسة يا علي ربنا يبارك لك».

سألها علي بصوت متوسل: «مينفعش تخليكي معاها النهارده؟».

ردت باستسلام: «على عيني يا ابني.. أكل العيش».

التفت للباب مغادرًا: «أنا نازل».

ودّعته فاطمة وهي تغمره بدعواتها بالنجاح والسلامة.

تتمنى أن تمضي الشهور المتبقية ويتخرج من دبلوم السياحة والفنادق حتى تطمئن.. لا

تنتظر مساعدته لها بل تتمنى أن يستطيع أن يبدأ في تكوين نفسه.. فالمشوار طويل ولا بد له أن يبدأه مبكرًا كي يصل قبل فوات الأوان.

أكملت التنظيف وطهو الطعام.. أعطت نورا كوبًا من الليمون الدافئ وسألتها: «تقومي تروحي أيّ مستشفى؟».

ردت نورا بصوت مختنق من آلام احتقان زورها:

«لأ.. هنام شوية».

- «طيب لو تعبتي قبل أخوكي ما يرجع انزلي اتصلي بيّا من عند الحاجة».

- «حاضر.. متتأخريش بس».

مالت فاطمة على ابنتها تقبّلها.. وقالت بصوت حنون:

«عايزة حاجة أجيبها لك وأنا جايّة؟».

- «عايزة سلامتك».

ارتدت فاطمة عباءتها وطرحتها.. وأغلقت غرفة السطح وقلبها ينفطر ألمًا على ابنتها.. لم تكن المرة الأولى التي تذهب للعمل وأحد ابنَيها مريض.. ولكن في كل مرة تشعر بنفس المرارة والقلق والألم.

هبطت درجات السلم.. عبرت من جوار شقة الحاج عوض وأكملت طريقها في الشارع حتى تصل لموقف الميكروباص الذي سيقلها لوسط البلد.. حيث تعمل..

في التاسعة صباحًا وصلت للمطعم.. دخلت وهي تحيي زملاءها الذين يقومون بتنظيف المكان ثم دخلت للمطبخ لتبدأ يوم عمل جديد.

أكوام من البصل والبطاطس والطماطم والخضراوات تحضرها ليستخدمها الطباخون في إعداد قوائم الطعام.. هي الأكبر سنًّا بين زملائها والأحب إليهم جميعًا.. يعتبرها الجميع والدة لهم حتى مَن يصغرها بأربع أو خمس سنوات.. حتى الحاج عوض صاحب المطعم والبيت.. يكن لها كل احترام لجديتها في العمل والتي لا تتعارض مع جو الألفة الذي تُشيعه في العمل حتى في أصعب أوقات العمل مشقة.. يحترم فيها تربيتها الجيدة لولدَيها وخوفها عليهما وحبها لهما.

نفسها عزيزة رغم احتياجها.. يساعدها دون أن يجرح كرامتها.. تشقى وتكد حتى يتعلم أولادها وترفض كل محاولات علي أن يعمل أثناء الدراسة.. فهي توافق على عمله أثناء الإجازة الصيفية.. أمّا أيّام الدراسة فللدراسة فقط.

عادةً، ينتهي عملها في الخامسة مساءً.. تعود منهكة لكنها تحافظ على ابتسامتها كي يستمد منها ولداها طاقة إيجابية تحفزهما على استكمال يومهما بين الدروس والمذاكرة.

لم تتلقَّ أيّ قدر من التعليم، لكن توجهها فطرة ذكية تربي بها أولادها تربية جيدة معنويًّا.

اليوم.. كانت قلقة إلى حد كبير.. تريد أن تطمئن على نورا، فلذة كبدها التي تجلس وحيدة مريضة.

عند الثالثة.. خرجت من المطبخ وذهبت للحاج على استحياء:

«يا حاج.. عايزة أطلب منك طلب إلهي يكرمك».

- «خير يا أم علي؟».

- «تتصل لي على الحاجة بس تنادي علي أكلمه.. أصل نورا عيّانة من الصبح وعايزة اتطمن عليها».

اتصل الحاج عوض بزوجته، وطلب منها أن تنادي علي.. غابت الحاجة دقائق ثم أتاه صوت علي..

أعطى الحاج عوض سماعة الهاتف لـ«فاطمة».. أخذتها بلهفة وهي تسأل: «أيوه يا علي.. رجعت إمتى؟ أختك عاملة إيه؟».

سمعت رده في هدوء.. وأنهت مكالمتها وأعطت السماعة للحاج عوض..

سألها: «أخبارها إيه؟».

- «بيقول رجع لقاها كويسة الحمد لله وقاعدة تذاكر».

قال مطمئنًا لها: «متقلقيش كده.. الشتا دخل ونزلات البرد مبتسيبش حد في حاله».

ابتسمت وهي تنكس رأسها قبل أن تعود للمطبخ:

«مقلقش إزّاي هو أنا عندي غيرهم.. عن إذنك يا حاج».

- «اتفضلى».

عادت فاطمة مطمئنة قليلاً.. وهي تفكر في ابنتها وتدعو الله أن يحفظ أولادها من أيّ سوء.

❑❑❑

عادت فاطمة تحمل أكياسًا من البرتقال واليوسفي.. أثناء صعودها درجات السلم، قابلت «كريمة»، ابنة الحاج عوض، تنزل مع والدتها.. توقفوا جميعًا.. تبادلوا أحاديث سريعة وأكملت كل منهن طريقها.

كريمة.. ابنة الحاج الصغرى الوحيدة على ذكور، ذات الثماني وعشرين عامًا، منذ أن أنهت تعليمها الجامعي وهي تجلس في منزلها في انتظار ابن الحلال، كما تدعو والدتها دائمًا.. لكنه لم يأتِ.. تتمتع بقدر لا بأس به من الجمال والتدين وذات حسب ونسب ومع ذلك لم يطرق بابها أيّ خاطب من قبل.

صممت والدتها على الذهاب بها لأكثر من معالج روحاني لفك السحر الذي أصابها.. صرفت الكثير من المال ولا جدوى.

حتى قررت كريمة ألا تنساق هي الأخرى وراء تفكير والدتها وأخبرتها أنها راضية بقضاء الله أيًّا كان.

منذ أيام جاء الحاج عوض يخبرهم وهو غير مصدق أنه أخيرًا تقدم خاطب لـ«كريمة».. جاء على سيرتها الطيبة بعدما رشحها له بعض المعارف.. أيام وسيأتي في زيارة رسمية مع أهله لطلب يدها.

يسود القلق والتوتر أجواء المنزل؛ فقدوم خاطب أمر عظيم.

نذر الحاج عوض توزيع «فتة ولحمة» على الفقراء إن تمت الخطبة على خير.. وقررت زوجته الذهاب بـ«كريمة» للصلاة في مسجد السيدة نفسية والدعاء أن يتمم الله الخطبة بخير.

ذهبتا لصلاة العشاء.. دعتا الله كثيرًا.. سواء كريمة أو والدتها.. بعد الانتهاء من الصلاة تصدقتا وغادرتا المسجد عائدتين للمنزل.

❑❑❑

يجري العمل في بيت الحاج عوض على قدم وساق؛ فاليوم خطبة كريمة.. الأبناء وزوجاتهم وأولادهم موجودون في المنزل من بعد صلاة الجمعة.. بعد تناول الغداء أرسلوا الأحفاد للعب في السطح حتى يحتفظ البيت بنظامه ونظافته.

كريمة غير مصدقة أنها أخيرًا ستُخطَب وقريبًا ستتزوج ويكون لها زوج وبيت منفصل عن والديها.. ستزورهم كما يزورهم إخوتها وفي المساء ستغادر مثلهم لمنزلها.. لن تشعر بعد الآن بأنها أقل من زوجات أشقائها اللاتي كانت تخشى دائمًا أن تتسبب في أيّ مشكلة مع أيّ منهن.. وتتجاوز إن وقعت أيّ مشكلة حتى لا يتهمنها بالغيرة.

ستنتهي نظرات الشفقة والتساؤل التي تراها في عيون الجميع حين يعلمون أنها لم تُخطَب بعد.

أخيرًا.. ابتسمت وهي تتنهد وتنظر لنفسها في المرآة وزوجات أشقائها حولها.. كل واحدة تشرف على الكوافيرة وتعطي لها توجيهات كي تبدو كريمة في أبهى منظر.

تشعر بحبهم لها.. ولِمَ لا وهي التي تحبهم وتحنو على أولادهم جميعًا.

قالت إحداهن: «عريسك شكله إيه يا كريمة.. وسِنُّه؟».

ردت أخرى: «مش مهم شكله ولا سنه.. المهم يكون عاجبها».

وترد أخرى، أجرأهن، فتقول مازحة:

«المهم يكون راجل.. ويدلّعها».

تضحك بمجون فتضحك الأخريات، وتبتسم كريمة في خجل؛ فقد تخيلت بالفعل نفسها معه بعد الزواج ولكنها كانت تخجل من أفكارها فتحاول طردها تمامًا.

تسألها زوجة أخيها:

«إيييه.. سرحتي في إيه؟».

فتجيب بسرعة مدافعة عن نفسها:

«ولا حاجة، قلقانة بس.. شكلي حلو كده؟».

يؤكدن لها جميعًا أنها أحلى عروس.

في الشارع، يُشرف الحاج عوض وأبناؤه على الزينة التي تُعلّق، والصوان الذي نُصب، والمقاعد والطاولات التي تراصت.. ثم يتصل بالمطعم ليؤكد عليهم الاهتمام بالعشاء الذي يُعدّ هناك؛ ليُقدم بعد الشبْكة.

في الأعلى.. تقف نورا وعلي يشاهدان من السطح مراسم الاستعداد للخطبة.. ترتسم على وجهيهما ابتسامة كأصحاب الفرح..

يحبان كريمة العطوفة الحنونة حلوة اللسان.. فرحين لها من قلبيهما..

ينظر علي لشقيقته:

«عقبال فرحك.. ده أنا هعمل لك حتة ليلة يتحاكوا بيها الناس».

تضحك نورا على أحلامه.. فيكمل:

«عارفة.. يومها هزفك بنفسي وأجيب كل أصحابي اللي عند أهاليهم عربيات يمشوا معانا في الزفة.. واللي معندوش أقول له يتأجر مكنة.. ونعمل لك زفة نلف بيها مصر كلها».

تتخيل نورا زفتها مع العريس المجهول.. ثم يفيقان على شجار أحفاد الحاج عوض، فتذهب هي وعلي لفض الشجار والصلح بينهم، فيعود الأطفال للعب من جديد.. ويعود علي ونورا للمشاهدة ومتابعة الشارع مرة أخرى.

بعد قليل.. أشارت نورا للشارع وهي تصيح بسعادة:

«ماما جت».

❐❐❐

أتى العريس مع أهله.. والده ووالدته وإخوته وخاله وزوجته وأبناؤه.. خاله هو من رشح له كريمة وأخبره بظروفها.. تحمس وطلب لقاءها.. بعد أول لقاء طلب إتمام الخطبة.

صعد فاروق مع أسرته والكل في استقباله.. الحاج عوض وأبناؤه..

دخل المنزل.. فاستقبلته النسوة بالزغاريد والتعجب الشديد؛ فاروق شديد الوسامة، تخطف وسامته وأناقته العيون، يبدو أصغر من كريمة رغم أنَّه يكبرها بثلاث سنوات.

جلس فاروق جلسة تقليدية مع الرجال.. ثم دخل الحاج عوض ليأتي بكريمته «كريمة».

أخذ فاروق بيد عروسه.. ومصور الفيديو يصورهما نزولاً حتى الكوشة التي تتوسط الصوان الكبير في الشارع..

تجلس فاطمة وابناها في الصف الثاني بعد الأهل على يسار الكوشة.. بدأت الأغاني واندمج علي ونورا في التصفيق بفرحة..

تلقّى العروسان التهاني.. ثم جلسا أثناء الحفل..

كريمة تملأ السعادة وجهها.. تكاد ملامحها تنطق بأنها ملكت العالم اليوم.

وفاروق أيضًا.. غير مصدق أن الحاج عوض وافق على الخطبة وتكفل بكل شيء بعدما علم أن فاروق مجرد موظف حكومي لا يملك سوى راتبه الذي يضيع على مواصلاته وسجائره وملابسه.

فاروق ينظر حوله، مبتسمًا بسعادة، عيناه تدور في المكان، حتى وقعت عيناه على نورا وهي تصفق ببراءة.. أطال النظر إليها.. التفتت نورا.. التقت عيناهما.. نظراته المثبتة عليها أربكتها.. توقفت يداها عن التصفيق وهي تتعجب من نظراته.

أتى أحد المدعوين يسلم على العروسين.. في الوقت نفسه نهضت نورا لتجلس في جانب آخر مع إحدى جاراتها التي تماثلها في العمر.. عيناها تراقب فاروق الذي عاد ينظر لمكانها السابق.. لاحظت أنه يبحث عنها بعينيه.. حتى وجدها فابتسم لها..

ارتبكت وهي تعي أن من يتحدث إليها بعينيه هو العريس الذي تحضر خطبته اليوم.



«كونكِ أُماًّ..
أصبحتِ الكون كله لصغيرِك.. ووهبكِ الله قوة لم تتوقعيها يوماً»..

تجلس «عزة» في المقعد الأخير من السيارة البيجو «الـ٧ راكب» التي تتجه للقاهرة بعد أن غادرت الإسكندرية.. تحتضن رضيعها النائم وتمسح بطرف إصبعها الدموع التي تتساقط من تحت النظارة السوداء التي تتشابه مع ملابسها السوداء.

يتردد صوت أخيها في أُذنها:

«ارجعي بلد جوزك، خلي ابنك يتربى وسط أهله.. أنا بصرف على ولادي بالعافية ومش حِمل مصاريفك انتي وابنك.. مش ده جوزك اللي صممتي تتجوزيه.. روحي استحملي أهله».

تتألم من قسوة شقيقها.. مَن كانت تظن أنه السند بعد وفاة والديها خاب ظنها فيه.. يطردها وهو لا يعلم أنها طُردت من قبل من إخوة زوجها الراحل.. يتحرك ابنها بين يديها فتضمه وتهزه قليلاً قبل أن يستيقظ ويملأ الدنيا صراخًا.

تنظر حولها لتحسب كم تبقى لها وتصل.. تجد الوقت هان والرحلة شارفت على الانتهاء.

تحاول أن تتماسك حتى تستطيع استكمال حياتها ودورها في الحياة بعد أن كُتِبَ عليها أن تستكمل المشوار وحدها.. لا زوجَ ولا أخ يساندها.. لم يتبقّ لها سوى ابنها فقط.

تميل عليه تقبّل يده التي يسندها على صدرها.. شهور عمره القليلة رأت فيها ما لم يخطر ببالها قط.

كانت تعلم من قبل أن إخوة زوجها لا يحبونه أبدًا.. فهو الأخ الأصغر غير الشقيق، الذي تعلم في الجامعة والذي كان يصرف عليه والده ببذخ.. بعد تعليمه الجامعي، طلب من والده أن يتزوج مَن يحبها فوافق الوالد على الفور وأعد له طابقًا آخر في البيت الكبير.. بيت في أحد مراكز الصعيد مجهز كشقة فاخرة في المدينة.

كان بيته أحلى من بيوت إخوته، ومركزه في تجارة والده أعلى من إخوته لأنه الأعلى تعليمًا وثقافةً فلم تكن تخفى عليه شاردة أو واردة.. كان الذراع اليمنى لوالده بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

اعترض شقيقها ووالدها عندما تقدم لها «محمد».. فالفتاة الإسكندرانية كيف ستتمكن من الحياة في الصعيد؟

صممت أنها لا تحب ولن تحب غيره.. انصاع والدها عندما اشتد مرضه وشعر باقتراب أجله.. فطلب من ولده الكبير أن يتمم الزواج إن انقضى أجله وأن يترك أخته تعيش مع من تحب واختاره قلبها.

توفي والدها.. فنفذ الأخ الوصية.

تم الزواج وانتقلت عزة من الإسكندرية للصعيد وكلها سعادة وأمل في الحياة.. عاشت سعادة حلمت بها بالقرب من الزوج والحبيب.. ازدادت سعادتها عندما حملت.. شهور قضتها سعيدة تملك الدنيا.

ولكن.. بعد ولادة ابنها بشهرين، رحل الزوج الحبيب فجأة ودون سابق إنذار.. كادت أن تموت حزنًا ولكن الله وحده هو من ربط على قلبها وأنزل عليها صبره فتماسكت من أجل ابنها.

أمّا الجد فقد ازداد تعلقه بالحفيد ووعدها ألا تخشى الأيام ولن يتغير أيّ شيء.. ستظل في بيتها ترعى ولدها.

ولكن.. لم يمهله العمر وقتًا ليحقق وعده.. رحل ليلحق بابنه الأصغر بعد شهرين من وفاته.

بعدها تبدلت الأحوال.. تم تقسيم الميراث على الأبناء دونها.. شقتها أصبحت ملكًا لهم.. يدخلونها وقتما شاءوا ويقيمون بها إن أرادوا.. طُردت دون تصريح بالطرد.. فأخذت ابنها وملابسها وذهبت لشقيقها.

توقفت السيارة في الموقف.. مسحت الدموع التي ما زالت تتساقط.. ضمت ابنها ونزلت من السيارة.. ثم تناولت حقيبة ملابسهما من المقعد المجاور.

❏❏❏

في منزل العائلة بالصعيد.. تجمع الإخوة بناءً على طلب الأخ الأكبر.. رغم غرابة الموعد الذي استدعاهم فيه في الظهيرة، إلا أنهم جميعًا أتوا ملبين النداء.

سأل أحدهم: «خير يا حاج؟».

رد الأخ الأكبر بتفكير:

«مراة أخوكم جايّة تاني هي وابنها.. أخوها اتصل بيّا وبيقول لي إنها في الطريق».

رد آخر: «وإيه اللي هيجيبها تاني؟.. أول ما تيجي إحنا نطردها وخلاص».

فعلق الكبير: «وهتفضل تيجي كل شوية.. إحنا لازم نكسر رجلها خالص من هنا».

قال آخر: «هي مالهاش حاجة عندنا.. نهددها إننا هناخد الواد لو جت تاني».

قال الكبير: «وافرضوا جايّة تسيب الواد.. مين فيكم هياخده ولا مراة مين فيكم هتربيه؟».

صمت الجميع وهم ينكسون رؤوسهم ويتجاهلون السؤال.

نظر لهم يتفحصهم ليرى التجاهل.. فصمت قليلاً ثم نطق كفرًا:

«إحنا نخلص منها خالص».

فانتبه الجميع.. واستنكر أحدهم:

«نموتها؟!!».

فنهره الكبير بصوت حازم:

«حد قال لك عليّا قتّال قُتلَة؟».

سكت الجميع وهم يحدّقون به يحثونه على المتابعة والتفسير.

فأكمل:

«الساعة دي قبل كمان شوية.. مراة حد فيكم تعمل بلاغ في المركز إنها سرقت دهبها قبل ما تطفش و إننا منعرفلهاش مكان.. لما تيجي هنمشيها بالذوق.. مشيت خير وبركة.. ممشيتش ولّا قالت خدوا الواد؛ نبلغ عنها ونبقى خلصنا منها».

صمتوا موافقة.. وكانت لهم في إخوة يوسف أسوة سيئة وسوّلت لهم أنفسهم ما فعلوا بعدما تحالفوا مع الشيطان.

❑❑❑

خرجت عزة من الموقف.. تبحث عن تاكسي.. استوقفته وطلبت منه الذهاب لعنوان محدد أخبرته به.

طوال الطريق وهي تنظر حولها.. تتأمل القاهرة بصخبها.. لم تكن زيارتها الأولى للقاهرة.. كل مرة كانت زيارة وتعلم أنها ستعود لبيتها.. أمّا الآن فهناك اختلاف.. هذه المرة قررت الإقامة فيها ولن تعود للأماكن التي طُردت منها من قبل.

بكى الصغير بين يديها.. احتضنته وهي تهزه ليهدأ.. لكن صراخه لم يهدأ أبدًا.. حتى وصلت للمكان المقصود.

مشيت بخطوات خائفة وهي تقرأ أرقام المنازل.. حتى رأت منزل رقم ٨٨ الذي تبحث عنه.. ونظرت على يمين الباب وجدت محل البقالة الذي سمعت عنه من قبل.. حاولت أن تبدو هادئة وهي تسأل:

«سلامو عليكو.. الحاج نبيل موجود؟».

جاءها البائع.. وسألها:

«مين عايزُه؟».

فسألت: «هو حضرتك؟».

- «أيوه.. أيّ خدمة؟».

قالت بارتباك:

«تفتكر واحد من ٣ سنين كان ساكن هنا؟».

واختنق صوتها بالدموع وهي تكمل:

«اسمه محمد رزق».

فتذكر الرجل على الفور.. وأجابها:

«طبعًا.. بس هو مش موجود ومش بييجي من زمان».

أجابت وما زالت دموعها تتساقط وابنها يبكي بين يديها:

«ما أنا عارفة.. ومش هييجي تاني.. الله يرحمه».

فوجئ الرجل: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

سألها وهو يرى الدموع التي ظهرت على خديها:

«إنتي مين يا بنتي؟».

- «أنا مراته».

صمتت قليلاً تجمع شتات نفسها.. وتابعت:

«أنا جاية أسكن في الشقة اللي كان عايش فيها أيام الدراسة بعد ما ضاقت بيّا الدنيا وملقيتش غير بيته يسترني أنا وابني.. بس مش معايا أيّ ورق ولا عقد ولا حاجة تثبت إنها شقته».

شعر الرجل بخوفها وارتباكها.. ورقَّ لحالها بعدما شعر بصدق دموعها.. طمأنها:

«متخافيش.. الجيران والشارع عارفين إنه كان شاريها وعايش فيها.. ومحدش هيقول لك حاجة.. بس متآخذنيش يا بنتي.. نعرف منين إنك مراته؟».

سألها كي يطمئن قلبه.. لاحظ أنها تحاول فتح الحقيبة الكبيرة التي بجوارها.. فأخرج لها كرسيًّا:

«اقعدي ارتاحي الأول».

شكرته وهي تجلس.. أخرجت مظروفًا كبيرًا من حقيبة ملابسها.. وأخرجت أوراقًا وأعطتها له:

«دى قسيمة جوازنا.. وشهادة ميلاد (علي) ابني».

نظر فيهما الرجل.. وسألها بحنان:

«محمد الله يرحمه كان ابن ناس مرتاحين في الصعيد.. ليه سايبينك لوحدك؟».

ردت باقتضاب:

«ظروف».

سألها: «وأهلك فين؟».

ردت بألم: «الله يرحمهم».

ردد الرجل بإشفاق:

«لا إله إلا الله.. اطلعي يا بنتي شقتك علشان ابنك اللي بيعيط ده».

سألته بخجل:

«معلش.. خدمة أخيرة يا حاج...».

- «اؤمري».

- «معاييش مفتاح».

صمت قليلاً.. ثم طمأنها:

«بسيطة.. هتصل لك بالأسطى فرج النجار ييجي يعمل لك اللازم».

لم يمضِ وقت طويل حتى خلت عزة بابنها في شقتها الجديدة.. مكان جديد حلّت به تتمنى أن يكون محطتها الأخيرة بعد الشقاء الذي لاقته بعد رحيل الحبيب.

المنزل به أثاث بسيط.. غير نظيف لطول المدة التي أغلقت فيها الشقة.. الرضيع يبكي بشدة ولا يوجد مكان واحد نظيف.

أخرجت قطعة من ملابسها ووضعتها على الأريكة.. جلست عليها وضمت رضيعها.. صرخاته تزداد.. فكت أزرار ثوبها فلقم ثديها بلهفة.. وهدأ.

ظلت تنظر له وهو يرضع.. وتفكر...

كيف ستدبر أمرها؟ لا بد من البحث عن عمل.

لكن.. هل ستجد عملاً يتواءم مع ظروفها كأم لطفل رضيع؟

ربما.. فلتبحث.

❑❑❑

«صياد ماهر يُلقي شباكه.. وقلوب عذراء تقع فريسة»

تبدلت حياة كريمة.. فالسعادة ملأت قلبها ووجدت ما حُرمت منه وطال انتظاره.

يمطرها فاروق بحلو الكلام ليلاً ونهارًا.. لم يأتِ لزيارتها بعد الخطبة مبررًا خجله رغم ترحيب والديها بزيارته.

كل يوم بعد يوم الخطبة، تزيد سعادتها أضعافًا..

حتى أخبرها بعد ٣ أسابيع بتسلُّم فيديو وصور الخطوبة.. دعته لزيارتها ولبى الدعوة..

بكل لهفة التفت الأسرة الصغيرة حول الفيديو لمشاهدة الحفل واستعادة اللحظات السعيدة مرة أخرى.. عندما جاءت الصورة على نورا، التفت فاروق لـ«كريمة» وسألها:

«مين البنت دي؟ قريبتكم؟».

أجابت كريمة بسرعة؛ كي لا تفوتها لحظة مشاهدة:

- «جارتنا».

هز فاروق رأسه وصمت.. ظل يتابع المشاهدة حتى انتهى الحفل.

قال الحاج عوض باهتمام:

«جهزي العشا يا حاجة.. جوّعنا الجدع».

نهضت الحاجة مسرعة لتحضير العشاء لعريس ابنتها.. رن هاتف الحاج عوض.. فنهض للرد بعيدًا.

توجه فاروق لـ«كريمة» بالسؤال:

«من تاني يوم الخطوبة وواحد زميلي كل شوية يقول لي شفت بنت عجبتني عايز أخطبها وأنا مش عارف يقصد مين.. يقول لي كانت لابسة كذا وقاعدة في الحتة الفلانية وأنا مش عارف.. بس لمّا شُفت الفيديو عرفتها.. البنت اللي سألتك عليها وطلعت جارتكم».

تحمست كريمة وأجابت بفرحة:

«نورا.. دي بنت كويسة ومؤدبة جدًا وأمورة.. بس صغيرة؛ دي لسّه في المدرسة.. هو صاحبك عنده كام سنة؟».

تلعثم قليلاً وأجاب:

«قدي تقريبًا».

صمتت قليلاً:

«مش مهم.. هسألها وأشوف رأيها».

بادرها قائلاً: «لأ، لأ، لأ.. استني متقوليش حاجة.. احكي لي عنها الأول كل حاجة وأنا أقول له وبعدين نشوف هيقول لي تكلميها ولا لأ».

زاد حماسها وحكت كثيرًا عن نورا ووالدتها وظروفها.. وامتد الحديث للعشاء فشاركها والداها الحديث عن نورا.. وفاروق يستمع بإنصات ويسجل في ذاكرته كل معلومة تخص نورا.

❑❑❑

خرجت نورا من المدرسة مع زميلاتها كعادتها يوميًّا.. يمشين جميعًا ويتفرقن عند موقف الميكروباصات فتستقل كل واحدة منهن الميكروباص المتجه لبيتها.

اليوم.. بمجرد خروجها من باب المدرسة، فوجئت بـ«فاروق» يقف عند كشك الحلوى المقابل لباب المدرسة.. يمسك بزجاجة مياه غازية رغم البرد.. وينظر في اتجاه بوابة المدرسة.

ارتبكت نورا.. ولكنها لم تُبْدِ ارتباكها أمام زميلاتها فتجاهلته ومرت في طريقها المعتاد.

صمتت عن الحديث معهن؛ فالحديث الدائر بداخلها أكثر صخبًا بكثير من حديثهن.. تتساءل في نفسها عن سبب وجوده.. أتكون صدفة؟ لا بد أنها صدفة.

التفتت تبحث عنه مكان وقوفه.. لم تجده.

لا تعلم هل حزنت أم فرحت.. شعور متضارب داخلها لازمها طول الطريق حتى موقف الميكروباص.

ودّعت زميلاتها وركبت في الميكروباص.. وجدته يصعد بعدها و يركب بجوارها.

صعد الدم لرأسها وازدادت خفقات قلبها.. فلم تعلم كيف تتصرف.. هل تنزل أم تتجاهل أم ماذا؟

- «إزّيّك يا نورا؟».

كادت عيناها تخرج من محجريهما عندما نطق اسمها.. اختنق صوتها وتصلب لسانها فلم ترد.

همس عندما شعر بارتباكها:

«مش فاكراني؟ أنا...».

فعاجلته قائلة بصوتها المضطرب: «خطيب كريمة بنت الحاج عوض».

أكد قائلاً: «أيوه خطيب كريمة.. بس من لحظة ما شُفتك وأنا حسيت بحاجة غريبة شدتني ليكي».

صمتت.. وقعت كلماته كقطرات الندى على قلبها البكر.. أيقظ في قلبها مشاعر كانت نائمة.. ولكنها في الوقت نفسه تعلم تمامًا الخطأ في مجاراته.

لحظات قليلة من الصمت.. تبعتها قائلة:

«وبعدين؟».

قال متسائلاً: «وبعدين إيه؟».

وضحت: «وبعدين.. إنتَ خاطب.. وخاطب كريمة يعني بتحبها...».

قاطعها: «لأ.. مش بَحبها.. خطبتها وخلاص زي أيّ حد ممكن يخطب واحدة تقليدي.. إنّما بعد ما شُفتك الوضع اختلف».

- «مش فاهمة.. يعني هتعمل إيه؟».

- « كل الكلام ده سابق لأوانه.. المهم أعرف ردك عليّا.. ولّا مش محتاج أعرف رد.. عينيكي قالت لي إنها حست بيّا وبكل اللي في قلبي من غير ما أقوله».

احمرت وجنتاها.. ونظرت من الشباك وقالت:

«أنا قرّبت أنزل».

- «هشوفك تاني إمتى؟».

- «مش عارفة».

- «طيب هاتي رقم موبايلك».

- «معنديش».

- «طيب رقم البيت».

- «معندناش تليفون».

أخرج ورقة مطوية من جيبه.. من الواضح أنه أعدها مُسبقًا.. دسَّها في جيب حقيبتها المدرسية وهو يقول:

«خلي رقمي معاكي.. واعملي حسابك بكره بعد المدرسة هنخرج شوية.. أنا عايز أقعد معاكي».

- «مش هينفع».

قالت للسائق:

«على جنب يا أسطى».

توقف السائق.. نهضت.. تنحّى فاروق قليلاً لتعبر من جواره.. همس في أذنها وهي مارة: «هجيلك زي النهارده ونخرج».

❏❏❏

لأول مرة يخفق قلب نورا.. لأول مرة تسمع حلو الكلام الذي سمعته مرارًا في الأفلام الرومانسية.. لأول مرة يهتم بها رجل غير شقيقها.

ابتسمت وهي تتذكر كلماته..

فسألتها فاطمة: «شكلك مبسوطة النهارده».

فردت بنبرة فرحة:

«الحمد لله.. جبت درجة حلوة في العربي النهارده».

- «يا رب دايمًا.. قولي لي، أعمل لك حاجة تشربيها وانتي بتذاكري؟».

نهضت نورا.. أخذت الراديو كاسيت في يدها:

«لا مش قادرة.. أنا هسمع التسجيل شوية.. هي فين شرايط أم كلثوم اللي كانت هنا؟».

أجابتها وهي تنظر لها:

«مجمّعاها في الكرتونة اللي تحت السرير».

دخلت نورا الغرفة.. سمعتها فاطمة تبحث عن الشرائط.. فرحت فاطمة لفرحة ابنتها.. معتقدة أن فرحتها سببها درجة متقدمة، لم يخطر ببالها أن قلب صغيرتها يُحب.

❏❏❏

وقف فاروق يصفف شعره أمام المرآة ويرش بعض قطرات من عطره وينظر لنفسه أكثر من مرة حتى يتأكد أنه على خير صورة.

يبتسم لنفسه في المرآة بإعجاب وفخر.

خرج من غرفته وقبل أن يفتح باب المنزل سألته والدته:

«خارج؟».

- «أيوه.. رايح لكريمة».

- «هتتأخر؟».

- «مش عارف.. لو اتأخرت نامي انتي متقلقيش».

أغلق الباب خلفه.. تمتمت والدته ببعض الدعوات له بالسعادة.

❑❑❑

أخبر فاروق كريمة أن تستأذن والدها في الخروج معه.. وافق الحاج عوض وأخبرها أن زيارة فاروق مرحب بها في أيّ وقت.

فتحت الحاجة أمينة لـ«فاروق» الباب وهي ترحب به:

«أهلا وسهلاً.. اتفضل يا ابني».

سلم عليها فاروق وقبَّل يدها.. فسحبتها بسرعة وهي تردد:

«أستغفر الله.. اتفضل».

قال لها وهو يتبعها للداخل ووجهه للأرض:

«إزّيّك يا أمّي.. عاملة إيه وإزي صحتك؟».

رددت: «الحمد لله.. سألت عليك العافية».

سألها بصوت خفيض عندما لم يرَ الحاج عوض في استقباله:

«هو الحاج مش هنا؟.. أنا قلت لكريمة تعرفه إني جاي».

- «قالت لنا يا ابني.. موجود بيصلي وجاي».

- «براحته وعلى أقل من مهله.. أنا بس باطمن إنه موجود ولو مكانش موجود كنت هنزل أستنى كريمة تحت».

جلست الحاجة قبالته:

«يا خبر.. تستنى تحت.. ليه هو أنت غريب؟!».

«تسلمي يا أمي.. ربنا عالم إني من ساعة ما دخلت بيتكم وأنا حسيتكم أهلي اللي أعرفهم من يوم ما اتولدت».

- «ربنا يبارك لك.. القلوب عند بعضها».

قاطعهم دخول الحاج عوض.. دخل مرحبًا:

«أهلا يا فاروق».

نهض فاروق وهو يصافح الحاج عوض بكل احترام:

«إزي حضرتك يا حاج و إزي صحتك؟».

- «بخير الحمد لله.. وازي الحاج والحاجة؟».

- «بيسلموا على حضرتك».

ثم نظر في ساعته وسأل:

«هي كريمة لسه مش جاهزة؟».

نهضت الأم: «هستعجلها لك حالاً».

فاروق: «أنا لو عليّا مفيش مشكلة استناها براحتها بس أنا بتكلم علشان منتأخرش ونيجي قبل ١٠ إن شاء الله».

ابتسم الحاج عوض وهو يحمد الله على أخلاق زوج ابنته، باعتبار ما سيكون.

أتت كريمة وهي مستعدة للخروج.. بسيطة هي غير مبالغة في زينتها ولا ملابسها.. عكس فاروق الذي يفخر دائمًا بذوقه وماركات ملابسه وعطوره وأحذيته التي يصرف عليها كل دخله من راتب أو حوافز أو بدلات تأتيه من عمله.

مبهر هو عن قصد كالضوء الساطع حتى يتمكن من اصطياد الفراشات اللاتي يقتربن منه.

❐❐❐

تلك الليلة.. وكريمة في فراشها قبل أن تنام، ظلت تستعيد كلمات فاروق لها.. مشاعره التي حاول عبثًا أن يصوغها في كلمات فجاءت أقل كثيرًا مما يشعر به، كما أكد لها.. سعادة لم تخطر لها على بال.

حب؟.. لا؛ فالحب أقل من المشاعر التي تجمعها بـ«فاروق» والتي بُنيت في مرات قليلة.

رن هاتفها بجوار رأسها.. قرأت اسم فاروق يضيء..

ردت بلهفة فجاءها صوته هامسًا:

«نمتي؟».

- «لأ لسه.. أنت منمتش؟».

- «مقدرتش أنام إلا لمّا أسمع صوتك ويكون آخر حاجة أسمعها قبل ما أنام.. وأصحى كمان على صوتك.. وخلي بالك كل يوم كده عايزك تصحيني الصبح وتمسي عليّا قبل ما أنام.. ماهو أنا بقيت مسئول منك ومش عايز اهتمام من حد غيرك».

- «حاضر.. بتصحى الساعة كام؟».

أجابها، وأكملا حديثهما على التليفون الأرضي بعدما انقطعت المكالمة لنفاد رصيده.

❑❑❑

في اليوم التالي.. طوال اليوم الدراسي ونورا شاردة وتسأل بين الحين والآخر زميلتها عن الساعة.. تتعجل انتهاء اليوم.

مرت الحصص بطيئة.. وأخيرًا دق جرس انتهاء اليوم الدراسي.

تباطأت حتى خرجت زميلاتها.. ثم وقفت أمام إحدى ضلفتي الشباك تعدل من هندامها وتقرص في خديها؛ ليتوردا.

خرجت من باب المدرسة وهي تبحث عن فاروق بعينيها.. لم تبحث كثيرًا فقد وجدته يقف عند كشك الحلوى الذي يقابل المدرسة.

تقدم إليها فاروق وذهبت إليه بخطوات مترددة لا تخلو من سعادة.

استقبلها بابتسامة وهو يصافحها.. فمدت كفها الذي ارتعش وهو ينام في كفه.. أطبق كفه على يدها فسحبتها سريعًا.

تحدثت وهي تتلفت حولها:

«مش هقدر أقف كتير.. البنات ممكن يتكلموا عليّا».

- «خلاص يللا نبعد.. إحنا متفقين هنخرج شوية».

- «مقدرش.. علي أخويا بيرجع بعدي بشوية وعارف معادي.. لو رجع وملقانيش هيقلق».

- «طب وبعدين.. مش هينفع آجي كل يوم علشان أشوفك دقايق وأمشي!!».

صمتت نورا.. وصمت فاروق قليلاً ثم سألها:

«أشوفك أيّ يوم بالليل».

- «مبخرجش غير مع علي».

- «مبتروحيش دروس خالص؟».

- «بروح يومين في الأسبوع فيهم ٣ دروس ورا بعض».

- «يوم إيه؟».

- «السبت والتلات».

- «خلاص السبت الجاي بدل ما تروحي الدروس نقضي الوقت ده مع بعض».

قالت مترددة: «أخاف».

قال محتدًّا: «يعني كل ده علشان شايفاني بتحايل عليكي.. وأنا اللي فاكر إنك حاسّة بيّا.. عمومًا خلاص براحتك.. مش هتقِل عليكي أكتر من كده.. مع السلامة».

عقد حاجبيه وابتعد خطوات قليلة.

سمعها تستوقفه: «أنا مقلتش حاجة غير إني بخاف».

حقق ما انتظره.. تراجعت فورًا عن رفضها.. ابتسم وهو يقترب منها:

«معاكي رقمي ولا رميتيه؟».

قالت بخجل: «معايا».

- «خلاص.. يومها كلميني من أيّ مكان وقولي لي على مكان نتقابل فيه قريب منك».

- «حاضر».

افترقا على وعد بلقاء آخر.. قريب جدًا.

❒❒❒

«إن تخلّى المقربون عنك وخذلوك.. ثِق أن الله أحنّ»

رتبت عزة أفكارها كما رتبت شقتها في أيامها الأولى بها.. لم يكن لديها الكثير من الوقت لتضيعه قبل أن ينفد ما تبقى من مالها.

بحثت عن عمل.. في ظروفها وبرضيعها الذي تحمله بين يديها كادت أن تكون فرص العمل بالنسبة لها منعدمة.

لم تيأس.. كانت تقضي الساعات الطوال في البحث عن عمل في المحال التجارية وعيادات الأطباء ومكاتب المحاماة.. وفي آخر اليوم بعد العودة من رحلتها الشاقة تقرأ إعلانات الوظائف في الجرائد اليومية.

أخيرًا وجدت عملاً بمحل تجاري كان بحاجة لبائعة.. لم تكمل أسبوعًا وطلب منها صاحب العمل أن تترك طفلها في أيّ مكان أو تترك العمل.. لم يكن لديها خيار.. فتركت العمل.

عادت لرحلتها اليومية من جديد.. أثناء رحلتها ورغمًا عنها غلبها الحنين لشقيقها.. أرهقتها وحدتها وأرادت أن تلقي عناءها بين يديه.. تحتاج لتستند عليه ليُعينها على الحياة وصعوبتها ولو بحنانه فقط.

ظلت يداها مترددتين وهي تمسك بهاتفها قبل أن تتصل به.. تهدهد طفلها بيد واليد الأخرى تتلمس زر الهاتف ولا تضغط.

أخذت نفسًا عميقًا وضغطت زر الاتصال.. وانتظرت.

رن الهاتف حتى انقطع الاتصال.. بررت؛ ربما لم يسمع.. كررت اتصالها فجاءها صوت زوجة أخيها:

«أيوه يا عزة.. خير؟».

فوجئت عزة بردها.. وبأسلوبها الحاد.. فتلعثمت وقالت:

«أخويا وحشني وبسأل عليه.. وبطمن عليكم».

- «آدينا عايشين».

- «طيب هو فين؟ عايزة أكلمه».

- «مش موجود».

رددت عزة بصوت مختنق قبل أن تنفجر دموعها:

«وهو من إمتى بيسيب تليفونه؟».

- «اللي حصل بقى».

رددت سريعًا ودموعها تنساب على خديها:

«طيب شكرًا.. مع الس...».

قبل أن تكمل جملتها.. أغلقت زوجة أخيها الخط.

بكت عزة كثيرًا وهي تحتضن ابنها.. كيف أصبح أخوها بتلك القسوة.. أنّى له بها؟ لهذا الحد نسيها تمامًا ولا يريد مجرد الاطمئنان على حالها؟!!

ظلت تبكي هي وابنها.. مسحت دموعها وحاولت التماسك..

ستبحث من جديد عن عمل.. لن تلتفت مرة أخرى للسؤال عن شقيقها الذي تخلّى عنها في عز احتياجها له.

❑❑❑

طال بحثها من جديد.. شهر مضى حتى بدأت خيوط الأمل المتبقية لديها في الاختفاء.

ذات يوم وعند سؤالها في أحد المكاتب عن العمل.. وبعد أن قوبل طلبها بالرفض.. تبعها العامل وناداها:

«استني».

التفتت له ودموع اليأس تلمع في عينيها:

«نعم».

- «فيه مشغل هنا في العمارة عايزين بنات.. تشوفي؟».

تعلقت بالأمل وردت بسرعة:

«ياريت».

- «تعالي معايا».

تبعته صعودًا على السلم.. ساورها بعض القلق ولكن لا بد من طرق كل الأبواب وسلك كل الطرق لعلها تؤدي لنتيجة تعينها على الأيام.

صعد عدة طوابق.. ثم اتجه لممر ضيق، وعزة تتبعه.

في آخر الممر شقة مفتوحة ويصعد منها أصوات مختلطة من كلام وصوت ماكينات فاطمأنت وتبعته.

توقف عند باب المشغل وسعل ثم رن جرس الباب المفتوح ودخل.

حثت عزة الخطى خلفه.. فسمعت صوته:

«السلام عليكم.. إزّيك يا حاجة سامية؟».

توقف أمام سيدة في الخمسينيّات تجلس خلف مكتب صغير.. بيضاء البشرة ممتلئة القوام.. ترتدي عباءة سوداء وطرحة من نفس قماش العباءة.

لاحظت عزة العديد من العباءات المعلقة على شماعات.. وبنات يجلسن أمام ماكينات خياطة وبنات أخريات يقمن بأعمال التطريز.

استقبلته السيدة وهي ترحب به وتنظر لـ«عزة»:

«أهلا يا عم مصطفى.. اتفضل».

أشار إلى عزة وهو يجيب السيدة:

«شكرًا.. الست كانت بتدوّر على شغل وقلت أجيبها لك».

نظرت لها ربة العمل متفحصة.. وتوقفت عند الرضيع الذي بين يديها قليلاً ثم سألتها:

«اشتغلتي فين قبل كده؟».

«في محل ملابس».

- «ومشيتي ليه؟».

استأذن الرجل في الانصراف:

«طيب أنا هستأذن يا حاجة».

والتفت إلى عزة قائلاً:

«ربنا معاكي يا بنتي.. سلامو عليكو».

من كثرة كلمات الشكر التي أرادت أن تنطق بها، تبخرت جميعها فصمتت ولكن ابتسامتها التي كادت أن تنساها كانت كافية لتعبر عن شكرها للرجل.

سمعت السيدة تشير لها:

«اقعدي».

انتبهت.. لم تنتهِ مشكلتها بعد.. ما زالت بلا عمل.. لم تُقبَل حتى الآن.

جلست ونظرت للسيدة التي أعادت سؤالها:

«قولي لي.. مشيتي ليه من شغلك؟».

- «علشان ابني.. صاحب المحل مش عايزني آخده معايا».

- «ومسيبتيهوش لحد ليه؟».

- «مليش حد».

- «خالص؟».

هزت رأسها وهي تردد: «خالص».

نظرت لها سامية بنظرات متشككة.. وخفضت صوتها وهي تسألها:

«إيه حكايتك؟».

كانت هيئتها مثيرة للشك مما جعل سامية ترسم في مخيلتها حكاية لـ«عزة» التي هربت من أهلها بعد حملها سفاحًا وتخلّي شريكها عنها.

فأردفت بحسم:

«ومن غير لف ولا دوران.. صارحيني لو عايزاني أساعدك».

حكت لها عزة قصتها.. باختصار منذ رحيل الزوج.

نظرت لها سامية بعدم تصديق ثم قالت:

«متزعليش مني، بس حكايتك مش معقولة.. معقول كل الناس هتتخلى عنك كده؟ أهلك وأهل جوزك؟».

- «اللي حصل».

- «و إيه اللي يثبت؟».

فتحت عزة حقيبتها فورًا.. وأخرجت مظروفًا ووضعته أمام سامية:

«قسيمة جوازي وشهادة ميلاد ابني وشهادة وفاة جوزي في الظرف.. وبطاقتي كمان معايا لو عايزة تكشفي عليها.. ولو عايزاني أعمل فيش وتشبيه أعمل.. قولي لي إيه تاني يخليكي تصدقي.. المهم ألاقي شغل.. أنا تعبت وماصدقت لقيت مكان زي ده.. حسيت فيه بالأمان معرفش ليه.. يا رب ما ترديني خايبة».

ترددت سامية وهي تقرأ الأوراق.. وعندما تأكدت من صحتها، سألتها:

«بتعرفي تخيطي؟».

- «لأ.. بس أتعلم».

- «بتعرفي تطرزي؟».

- «لأ.. بس أتعلم».

- «أنا عايزة بنات بتعرف الشغل مش لسّه هتتعلم».

- «طيب جربيني.. والله ما هكسفك.. شغليني أيّ حاجة لحد ما أتعلم.. أيّ حاجة.. بس خليني في وسطكم».

صوتها المختنق بدموعها، وكرامتها التي نسيتها تمامًا تحت وطأة الحاجة، جعلتها تتوسل وتتذلل حتى تستقر في عمل:

«أرجوكي.. ولو شُفتي مني حاجة وحشة مشيني».

هزت سامية رأسها وهي تناولها المظروف:

«طيب خلاص.. خليكي معانا».

نادت سامية على إحدى الفتيات:

«يا هند.. خدي عزة قعّديها جنبك النهارده.. وعلّميها سرفلة الطُّرَح».

رددت عزة الكثير من عبارات الشكر والدعوات وتبعت زميلتها واتبعت كل تعليماتها.

تأقلمت عزة وتعلمت بسرعة.. وأهدتها الحاجة سامية سريرًا صغيرًا يستخدم كعربة للأطفال لتضع فيه ابنها كي لا يعطلها عن عملها.

أظهرت عزة اجتهادًا في العمل.. فكانت تأتي مبكرة وتغادر بعد إغلاق المشغل.. لم تهتم بالمواعيد أبدًا.. ولِمَ تهتم؟!

في المشغل، كان الرضيع محط اهتمام وحب ورعاية من كل العاملات.. إذا بكى تحمله من تتمكن من ذلك جوار عملها.. إذا ضحك تشع البهجة في المكان.. ابتسامته كانت قادرة على اختراق القلوب.. حتى الحاجة سامية أحبته وفرحت بوجوده ولم تتضايق أبدًا.

تعودت عزة على حياتها الجديدة.. اكتفت بعملها وابنها واستطاعت تدبير نفقاتها براتبها.. فاطمأنت.

❑❑❑

بعد ٤ شهور..

وبعد تسليم طلبية كبيرة وتسلّم حقها بالكامل، أخبرتهم سامية أن اليوم التالي سيجتمعون فيه للاحتفال فقط دون عمل.. سيأتون في الثانية عشرة ظهرًا.. يجلسن جميعًا للسمر فقط.. يتناولن الغداء معًا وتقضية بقية اليوم في الاحتفال.

في الثالثة ظهرًا.. نادت سامية على العاملات:

«يا بنات.. مين هتروح تجيب الأكل من المطعم؟».

انتبهت الفتيات اللاتي كن يجلسن في حلقة يستمعن لحكاية شيقة تحكيها إحدى الزميلات.. ثم زفرن وكل منهن تتجاهل نداء سامية..

كررت نداءها:

«واحدة تقوم تتحرك تجيب لنا الأكل».

تقدمت عزة:

«هروح أنا يا حاجة».

- «وهما كلهم عاملين مطنشين.. هتشيلي الأكل ولا ابنك.. خليكي انتي أو حد يروح معاكي.. المطعم قريب يا بنات واحدة تقوم معاها».

تقدمت إحدى الفتيات:

«هروح معاها يا حاجة.. يللا يا عزة».

فتحت سامية درج مكتبها وأخرجت ١٠٠٠ جنيه وأعطته لـ«مريم»:

«خدي ابقي حاسبي ولو مش عارفين تشيلوا الأكل ابقوا حطوه في تاكسي يجيبكم لحد تحت».

- «حاضر».

أخذت عزة ابنها.. وأخذت مريم النقود وذهبتا للمطعم.

في الشارع، سألتها عزة:

«المطعم ده قريب ولا بعيد؟».

- «قريب.. شارعين ونلاقيه».

ترددت مريم قليلاً.. ثم قالت:

«عزة.. ممكن أطلب منك خدمة؟».

- «آه طبعًا.. اتفضلي».

قالت وهي تحاول تجميع الكلمات بصورة مناسبة.. وقد احمرت وجنتاها:

«كنت عايزة أروح أشوف خطيبي».

سألتها عزة بابتسامة:

«إنتي مخطوبة؟».

ردت وهي تنظر للأرض:

«على وش خطوبة».

سألتها عزة بعيون تلمع تختلط بالحنين لحبيبها:

«بتحبوا بعض؟».

هزت مريم رأسها إيجابًا.. فقالت عزة:

«طيب هتروحي تشوفيه فين؟».

- «بيشتغل في محل قريب هنا.. بصي إنتي خدي الفلوس وجيبي الأكل وتعالي في تاكسي ولما توصلي هنا هنطلع مع بعض.. ماشي؟».

وافقتها عزة.. وهي تسألها:

«اوصفي لي بس العنوان بالظبط واسم المطعم».

عندما وصفته مريم.. أجابتها عزة مُطمئنة:

«خلاص عرفته.. جبت منه أكل قبل كده كذا مرة».

❐❐❐

دخلت مريم المشغل بخطوات مرتجفة مترددة تكاد تتقدم خطوة وتعود خطوات.. تعلقت نظرات الفتيات بها وبيديها الفارغتين..

سألتها سامية:

«اتأخرتم كده ليه؟».

تقدمت ناحيتها مريم.. وقالت وهي ترتجف وتتلفت حولها:

«هي عزة مجاتش؟».

ردت سامية بحدة:

«تيجي فين يا بت.. انتوا مش نازلين مع بعض؟».

بكت مريم وهي تعتذر:

«أنا غلطانة وأستاهل اللي تعمليه فيّا».

- «يا بت فهميني إيه اللي حصل؟».

تجمعت الفتيات لتعرف سبب بكاء مريم وعودتها وحدها..

فحكت: «أنا نزلت معاها ورُحت أشتري حاجة من الشارع اللي ورانا.. اديتها الفلوس ووصفت لها المطعم وقلت لها تيجي في تاكسي.. اتأخرت أوي ولما قلقت رُحت أشوفها في المطعم.. لقيتها مراحتش تستلم الأكل».

اختلطت أصوات الفتيات.. منهن من تلوم مريم على ترك عزة للذهاب وحدها.. ومنهن من تلتمس عذرًا للغياب.

احتدت سامية وأنهت الأصوات جميعها:

«ششششش.. خلاص.. اسكتوا لمّا أشوف».

اتصلت بالمطعم مرة أخرى للتأكد من رواية مريم.. بالفعل تأكدت أن الطعام لم يتسلمه أحد حتى الآن.

أغلقت سامية وهي تردد بصوت خافت بعد أن وقر في قلبها ما استنتجته بعد رواية مريم.. وأصابع الاتهام تؤكد أن عزة تعمدت الاختفاء بعد الاستيلاء على مبلغ الألف جنيه ثمن الطعام:

«آه يا حرامية.. أنا تسرقيني كده بعد ما آمنت لك».



تردد الأمهات دوماً: «الأصيلة تتحمّل زوجها في كل الظروف...

دون إتمام الجملة: .. إن كان يستحق»

تثاءبت نورا وهي تفرد ذراعيها وتعود بظهرها للخلف بعيدًا عن الأوراق والكتب المرصوصة أمامها.. اقتربت الامتحانات وملّت من المذاكرة.. تصبّر نفسها أنها أيام معدودات وتنهي دراستها المتوسطة.

نظر لها علي الجالس على المقعد الذي يجاورها أمام أوراقه وكتبه هو الآخر:

«إيه.. عايزة تنامي؟».

- «لأ.. بس زهقت».

- «هانت.. نشد حيلنا اليومين الجايين علشان نخلص خالص».

- «أنا كفاية كده عليّا النهارده.. بذاكر من بدري».

- «هتنامي؟».

صمتت مترددة قليلاً.. ثم قالت:

«لو كنت خلصت وهتقوم تنام كنت هفتح التليفزيون أتفرج شوية.. بس خلاص مش مهم.. مش عايزة أعطلك».

نظر لها مبتسمًا.. ممتنًا لخوفها عليه.. لن تكون أفضل منه..

نهض من مكانه وهو يغلق كتبه:

«اعملي لي كوباية شاي وهطلع أذاكر بره».

ساعدته في نقل جلسته للسطح.. فحمل الطاولة الصغيرة وتبعته بالكتب.. وضعتها على الطاولة بينما عاد حاملاً المقعد البلاستيك:

«حالاً هعمل لك الشاي.. أجيب لك الكشاف؟».

نظر حوله وهو يجلس:

«لأ.. عمود النور عاكس ضوء كويس».

عادت نورا لغرفتهم -شقتهم كما يسمونها- أعدت كوبين من الشاي.. أخرجت أحدهما لـ«علي» وعادت فتحت التليفزيون بصوت منخفض كي لا تزعج والدتها النائمة.

جلست على الكنبة وأخذت تقلب في قنوات وصلة الدش التي توصل لهم ما يقرب من خمس عشرة قناة ما بين قنوات مفتوحة ومشفرة.. توقفت عند مشهد من فيلم رومانسي.. فاستقرت على القناة لمتابعة الفيلم.. تابعت الفيلم وعندما جاء مشهد لتبادل القبلات بين البطل والبطلة خفق قلبها بشدة وتهدجت أنفاسها حينما تذكرت أول قبلة في حياتها اختلسها منها فاروق.. فأصبحا يختلسانها معًا كلما سنحت الفرصة.

لن تنسى أبدًا أول قبلة في حياتها.. في إحدى مقابلاتها مع فاروق التي تتكرر أسبوعيًا حينما انعطفا في أحد الشوارع المظلمة.

لم يخطر ببالها قط أنه سيقاطع حديثها باقترابه منها وتقبيلها.

المفاجأة أربكتها فأبعدته عنها فورًا.. خوفًا وفزعًا.

لكن ابتسامته التي تأسرها وهمسه لها «بحبك»، أوقفا الكلام على شفتيها ليظل مذاق قبلته هو آخر ما لامس شفتَيها.. فلم تتكلم إلا قليلاً ولم تأكل يومها حتى نامت تحلم به وبقبلته.

عندما عاتبته.. برر لها أن مشاعره وحبه لها هي التي جعلته يتصرف هكذا دون تفكير.

استطاع إقناعها بتقبل قبلته وعناقه كل مرة يتقابلان فيها.

بل أصبحت تنتظرهما وتشتاق إليهما أكثر.

ساعات ويحين لقاؤها به في اليوم التالي.. تنهدت وهي تتمنى الوقت يمضي سريعًا كي تلقاه.

❑❑❑

شهور من السعادة قضتها كريمة مع فاروق.. حب كبير من إنسان مرهف المشاعر يحبها ويفعل ما يسعدها..

تتمنى أن يمضي الوقت سريعًا حتى يجمعهما بيت واحد.. وهي نفس أمنيته أيضًا كما يخبرها دائمًا.

في الأيام الماضية.. تغير.

هناك تغييرٌ ما طرأ عليه لا تعلمه...

فالأسبوعان الماضيان بأكملهما لم يزُرها ولم تقابله.

مكالماته لم تنقطع لكنها قصرت ولم تعد تمتد لساعات الليل، وقلّ عددها خلال اليوم عن ذي قبل..

ينهش قلبها ألف سؤال وسؤال:

ترى.. ماذا حدث؟

لا بد أن تعلم ما به.. نظرت في ساعتها وجدتها الثانية عشرة ظهرًا.. قررت.. ثم ذهبت لوالدتها في المطبخ..

وقفت على باب المطبخ:

«ماما.. بعد إذنك أنا هلبس وأنزل أروح أقابل فاروق ومش هتأخر».

التفتت لها أمينة وسألتها:

«هو فيه حاجة بينكم؟».

صمتت كريمة قليلاً.. ثم قالت:

«مش عارفة؟».

قلقت أمينة أكثر.. وسألتها:

«مش عارفة إزّاي.. أُمّال مين اللي يعرف؟!».

- «محصلش حاجة يعني.. بس أنا حاسة إن فيه حاجة».

- «أنا ملاحظة إنه أول مرة يقعد أسبوعين بحالهم من غير ما ييجي.. تكونيش زعلتيه في حاجة؟».

- «والله أبدًا.. وبيكلمني عادي.. مش عادي أوي بس مبيقولش زعلان، وف الوقت نفسه مش زي الأول».

- «وهو اللي طلب منك تقابليه؟».

- «لأ.. أنا اللي بفكر أروح له الشغل وأتكلم معاه وأحاول أفهم منه فيه إيه؟».

صمتت أمينة قليلاً تفكر.. تخشى أن تُفسخ الخطبة لأيّ سبب وتعود للقلق على كريمة مرة أخرى.. تخشى كثيرًا من التغير الذي طرأ..

قالت هامسة، رغم وجودهما وحدهما:

«طيب روحي له.. ومتقوليش حاجة لأبوكي لما نشوف فيه إيه.. ومتتأخريش علشان تيجي تطمنيني».

- «حاضر».

ارتدت كريمة ملابسها.. وذهبت لـ«فاروق» في عمله..

اتصلت به قبل أن تصعد له.. وأخبرته أنها تريد التحدث معه في أمر مُهِمّ.. فطلب منها الانتظار..

دقائق.. ووصل.. استقبلها جيدًا رغم المفاجأة.

سألها بقلق:

«مالك.. إيه اللي جابك فجأة كده؟».

- «وحشتني قلت آجي أشوفك.. ولا اتضايقت إني جيت لك؟».

- «لا أبدًا.. أتضايق ليه؟.. تعالي...».

أخذ يدها في يده وهو يمشي.. تتبعه وقلبها يخفق معه.

لم يَبدُ عليه الاستياء كما توقعت.. فرحت لمقابلته وترحيبه بها، لكنها لم تطمئن بعد على تغيّره الفترة الماضية.

أشار لتاكسي.. فتح لها الباب وأجلسها ثم جلس بجوار السائق.

لم يتبادلا أيّ حديث؛ فساورها القلق مرة أخرى.

سمعته يخبر السائق أن يتجه للمكان الذي يجمعهما دائمًا..

لماذا لم يتحدث معها فورًا.. تُرى، هل لديه ما يحتاج هدوءًا لقوله؟

الزحام في الشارع جعل الوقت يطول عليها في التاكسي، فيزداد الحديث داخلها وتشتعل حرائق القلق.

أخيرًا.. توقف التاكسي ووصلا لوجهتهما.

يمشي بجوارها كعادته.. يمسك يدها أثناء سيرهما.. يحيطها بذراعه في الزحام أو عبور الطريق.

تُرى.. إن كان تغير بالفعل لِمَ لم تتغير عادته معها؟

جلسا.. فابتسم لها سائلاً:

«قولي لي بقى.. إيه اللي جابك فجأة كده؟».

كادت تبكي من انهيار أعصابها.. التناقض العجيب الذي تلقاه هو ما يلعب بعقلها.

لا هو يرفضها صراحةً.. ولا هو كعادته دائمًا.

تماسكت وسألته:

«جاية أشوف مالك؟».

رد ببساطة: «مالي؟ أنا كويس.. مش مكلماني الصبح مصحياني؟».

- «أيوه مصحياك ومكلمني عادي.. بس إنتَ متغير».

صمت.. أخرج سيجارة من علبة سجائره وأشعلها.. فاشتعلت أعصابها مرة أخرى.. نفث دخان سيجارته وهو ينظر بعيدًا، فلم تنتظر كريمة وسألته:

«والله فيه حاجة.. إنت متغير يا فاروق وأنا متأكدة.. لو فيه حاجة قول بس متسبنيش أضرب أخماس في أسداس كده».

اختفت الابتسامة من وجهه.. وبصوت عميق بدأ كلامه بعدما سحب نفسًا طويلاً من سيجارته:

«معاكي حق.. أنا مكنتش عايزك تحسي بحاجة.. كنت بحاول على قد ما أقدر إني أتصرف من غير ما تلاحظي أيّ تغيير».

ردت بعدما تغير قلقها منه إلى قلق عليه:

«إيه اللي حصل.. طمّني يا فاروق».

- «متضغطيش عليا.. مش عايز أشغلك بمشاكل ملكيش ذنب فيها».

- «اخص عليك.. مشاكلك هي مشاكلي.. إنت ليه بتفصلنا عن بعض؟».

- «مش عايز أضايقك بس مش أكتر.. وخايف إني أوصل لطريق مسدود».

- «اتكلم يا فاروق.. احكي واهو نفكر مع بعض بدل ما تفكر لوحدك».

أطفأ سيجارته التي انتهت.. وامتدت يده لأخرى..

وضعت كريمة يدها على يده قبل أن يأخذ سيجارة أخرى..

فابتسم بسخرية قائلاً:

«دي تاني علبة أجيبها النهارده واليوم لسه في بدايته».

- «حسيت من لحظة ما شُفتك وانت بتاخد واحدة ورا التانية.. حرام عليك نفسك».

- «أهي أيّ حاجة بطلّع فيها قرفي».

- «وهتتحل كده يعني.. احكي لي يمكن نحلها».

ابتسمت تحثه على الكلام.. سحب يده دون علبة السجائر، وبدأ يتحدث:

«المشكلة يا كريمة إني مش هقدر أوفي بوعدي ليكي ولا لباباكي».

بدا الذعر على ملامحها.. واختفت ابتسامتها وهي تسأل بصوت مبحوح:

«ليه؟».

- «علشان كل ترتيبي اتهد في ثانية.. كنت عامل حسابي على جمعية أجيب منها العفش.. وأدفع مقدم كام شهر في شقة معقولة.. الجمعية كانت هتبدأ الشهر ده وهاخدها الرابع.. يعني السنة اللي كنت قلت لباباكي عليها كنت هبقى يدوب قادر على فرش شقة إيجار.. دلوقتي بقى الجمعية اتفركشت وزميلتنا اللي كانت هتعملها مش هتعمل.. ومينفعش آخد قرض لأن أساسي مرتبي ضعيف.. وزي ما انتي عارفة أهلي معندهمش اللي يساعدوني بيه».

- «هو ده كل اللي مضايقك ومغيرك كده؟».

- «وهو ده شوية.. عارفة لو مكنتش حبيتك كنت قلت لك أنا آسف مش هقدر.. أنا مش قد الجواز ومصاريفه ومسئولياته».

قاطعته كريمة:

« كده.. دي كلمة تقولها؟».

- «ما أنا مش قادر أقولها علشان بحبك.. وفي الوقت نفسه نفسي نتجوز النهارده قبل بكره.. أنا محتار أوي وبفكر ليل ونهار ومش عارف أتصرف إزّاي».

صمتت كريمة.. لتفكر.. تتحدث لنفسها وتعيد على مسمعها المبادئ التي تسمعها من والدتها طيلة حياتها: (الأصيلة تتحمل جوزها في كل ظروفه).

ستتحمل.. لن تتراجع وتتخلى عنه وهو بحاجة إليها..

لكن، ماذا ستفعل.. كيف يمكنها مساعدته؟

لاحظ صمتها.. فتكلم وهو يحاول الابتسام:

«أنا عارف إنك اتفاجئتي.. عارف إن عمرك ما احتاجتي حاجة ومقدرتيش تيجيبيها.. متدوريش في أسباب علشان تقوليها بعد اللي عرفتيه.. أنا هحترم اختيارك».

ردت بابتسامة لتخفف عنه:

«إيييه الكآبة اللي بقيت فيها دي.. واختياري أنا حددته خلاص.. ومين يعني مجاش عليه ظروف صعبة وكله بيعدي».

- «يعدي إزّاي.. لو عندك حل قولي لي وأنا من إيدك دي لإيدك دي».

- «أكيد فيه حل.. يمكن مش في بالي دلوقتي بس أكيد فيه حل».

- «إيدي على كتفك.. ياريت تلاقي الحل».

- «هلاقيه إن شاء الله.. بس بعد كده متخبيش عني أيّ حاجة.. ماشي؟».

هز رأسه موافقًا على كلامها.. وردد:

«ماشي كلامك».

حقق ما خطط له من قبل خطبتها.. وهو ما بدأ في تنفيذه الأسبوعين الماضيين.. حرمها منه قليلاً لتشعر بشيء ما.. لم يتوقع أن الاستجابة ستكون سريعة هكذا.. ألقى بين يديها الكرة لتسددها هي.. بأيّ طريقة لا يهم.. المهم هو الهدف الذي ينتظره..

ينتظر زواجًا لا يكلفه شيئًا.. فهو الآن بحاجة إلى زوجة تهتم بشئونه بدلاً من والدته التي بدأت التقدم بالعمر.. بحاجة إلى أبناء ليكونوا بجواره عندما يتقدم به العمر أكثر.. بحاجة إلى إشباع جسدي لا يكلفه شيئًا.

إذن.. آن الأوان للزواج.

سمع صوتها يُخرجه من أفكاره:

«يلّلا بقى.. أنا لازم أمشي.. وعدت ماما مش هتأخر».

«حاضر.. يلّلا بينا».

نهض.. وقبل أن يعرض عليها توصيلها تذكر أنه على موعد مع نورا بعد ساعتين.. فقال معتذرًا:

«معلش هوقّف لك تاكسي وابقي طمنيني لما توصلي.. يدوب أرجع الشغل أمضي».

أطاعته في حب وتقدير لضيق وقته.. وقبل أن تركب التاكسي الذي توقف.. همست له:

«متغيبش عليّا كتير.. هستناك تيجي النهارده».

- «مش عارف.. لو مش النهارده يبقى بكرة أكيد.. لما توصلي كلميني».

أغلق الباب بعدما ركبت.. ولوّح لها وهي تبتعد حتى اختفت في الزحام..

التفت عائدًا في طريقه.. معجبًا بذكائه وقدرته على إقناعهن..

كلهن سواء.. يعطي اهتمامًا فيحصد حبًّا يتبعه اقتناع تام بكل ما يقول.

❑❑❑

تفكيرنا في شيء محدد يُعمينا عن رؤية بقية الأشياء الجليّة أمامنا؛ فرغم وقوف أمينة في المطبخ فإنها لم ترَ الطعام الذي كاد يحترق من كثرة تفكيرها في ابنتها وقلقها من التغير المفاجئ الذي طرأ على خطيبها.

أطفأت النار سريعًا.. ولسانها ما زال يدعو ألّا يحدث ما تخشاه.

سمعت صوت المفتاح يُولج بالباب.. فاستنتجت أنها كريمة.. هرولت لملاقاتها.. وسألتها بلهفة:

«قابلتيه؟».

ردت ببساطة: «أيوه».

لم تستطع أمينة استنتاج ما حدث.. فسألت مستفسرة:

«طلع فيه حاجة مزعّلاه؟ كان آخد جنب صح؟ طيب عرفتي فيه إيه؟ يا بنتي احكي وطمنيني».

دخلت كريمة حتى غرفتها ووالدتها تنهمر عليها بسيل الأسئلة..

جلست كريمة على سريرها:

«برتاح من المشوار يا ماما وهحكي لك كل حاجة».

جلست أمينة قبالتها وسألتها:

«ارتَحتي أهو.. احكي بقى».

وبدأت كريمة في قص ما حدث وما دار بينها وبين فاروق من حديث...

فقالت الأم، مُشجعةً، بعد اطمئنانها:

«جدعة يا كريمة إنك طمنتيه.. الأصيلة يا حبيبتي متتخلاش عن راجلها أبدًا».

- «وانا جاية بفكر ممكن نتصرف إزّاي ولّا أساعده إزّاي من غير ما أضايقه.. فكرت أبيع جزء من دهبي وأساعده بس خايفة يزعل ويفتكر إني قاصدة أجرحه.. مش عارفة أعمل إيه؟».

صمتت الأم تفكر، ثم قالت:

«متعمليش حاجة.. سيبيها على الله وكل حاجة هتتحل إن شاء الله».

- «هتتحل إزّاي ومنين.. أنا قعدت أهوّن عليه بس الحقيقة إني كمان اتضايقت وخُفت.. تفتكري ممكن نستنى كام سنة لحد ما يقدر يعمل حاجة؟».

- «كام سنة إيه يا بت تفّي من بؤك.. سيبي الموضوع ده على الله وهتتحل.. خليكي بس انتي عادية أوي معاه ومتخليهوش يحس إنه مقصر والأحسن متتكلميش معاه في الموضوع ده خالص».

- «حاضر».

لم تتحدثا خلال اليوم في الموضوع نفسه، رغم احتلاله تفكير كل منهما على حدة.

حاولت كريمة إظهار اللامبالاة عكس ما تُبطن من حزنها على تأجيل الزواج لأجل غير مسمى.. أمّا أمينة فكانت تفكر في حل تساعد به ابنتها، وخطيبها الذي تعتبره كأحد أبنائها.. ولتفرح مع زوجها بابنتهما الوحيدة.

في المساء، وقبل أن يخلد الحاج عوض للنوم، بدأت حديثها معه:

«هتنام يا حاج؟».

- «ايوه.. عايزة حاجة؟».

- «آه.. عايزة أتكلم معاك في حاجة حصلت النهارده.. تخص كريمة».

اعتدل الحاج عوض جالسًا بعدما كان نائمًا، وسألها بلهفة:

«مالها؟».

طمأنته: «اطمن.. خير إن شاء الله».

وحكت ما حدث خلال اليوم بكل تفاصيله.. صمتت بعدها ونظرت لزوجها في حيرة وعيناها كلها رجاء بإيجاد حل..

صمت هو الآخر.. تنهد ثم قال:

«هي البت دي حظها قليل كده ليه؟».

همت أن ترد، لكنها لم تجد إجابة فنكست رأسها وهي تتمتم:

«أمر الله».

- «لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنتي شايفة إيه يا حاجة؟».

- «أنا طول اليوم بفكر وقلت نتكلم سوا الأول وأشوف يمكن عندك حل.. أو لو معندكش مانع يعني...».

ترددت قليلاً.. فحثها الحاج على المتابعة:

«هاا.. مانع على إيه؟».

- «تساعدهم.. تيجي مننا إحنا كأننا بنطلب منه علشان منحرجوش.. نجوزهم معانا.. نقول له إنها البنت الوحيدة اللي مش هنقدر نجوزها بره و إننا بنطلب منه يوافق يتجوزوا معانا.. كده هنبقى وفرنا عليه كتير أوي ونجوز البت اللي حيلتنا ونفرح بيها ونطمن عليها قبل ما نقابل وجه رب كريم.. على طول بفكر لو حصل لنا حاجة وهي لوحدها محدش هيفكر يسأل عليها من إخواتها إلا كل حين ومين.. كلهم ملبوخين بمراتاتهم وعيالهم وأشغالهم.. هي يا حبة عيني اللي مالهاش غيرنا ولا عمرها اشتكت ولا بصّت لحد».

- «وماله.. إحنا عايزين إيه إلا نطمّن عليها.. وممكن نأجّر لها شقة بره.. إيه رأيك؟».

- « كده هيفهم إنها قالت لنا.. أخاف يفتكرها بتطلّع سِره بره».

- «يبقى نقول له زي ما قُلتي.. طمني كريمة وشوفي جاي إمتى وأنا أفاتحه في موضوع الجواز ده وربنا يقدم اللي فيه الخير».

انتصبت أمينة متهللة الأسارير:

«أروح أفرحها.. يا حبيبتي كانت مهمومة طول اليوم».

- «فرّحيها.. وقولي لها متشيلش هم تاني طول ما أنا عايش».

- «ربنا يخليك لينا يا حاج ويبارك لنا في عمرك».

سُرّ الحاج عوض بعدما رأى علامات السرور والابتهاج على وجه زوجته.. تمدد نائمًا وهو يدعو لابنته بالسعادة والستر.

في اليوم التالي.. جاء فاروق لزيارتهم، كما طلبت كريمة.

قابلته أمينة بالترحاب كعادتها.. جلس مع كريمة وكان يتحدث معها أحيانًا ويشرد أحيانًا أخرى.

حاولت إخراجه عن شروده بفتح أحاديث مختلفة في موضوعات عامة.. فيرد عليها بكلمات قليلة ولا يتبادل الحديث.

بعد ساعة، مرت سريعًا على كريمة.. قال وهو ينهض:

« كريمة.. أنا هقوم.. مش عايزة حاجة؟».

تعجبت كريمة وسألته:

«هتقوم بدري كده؟.. إنتَ زهقت مني بالسرعة دي؟».

- «معلش.. استحمليني.. أنا دماغي مبتبطلش تفكير ومخنوق مش عايز أخنقك معايا».

- «إنت لسّه برضه بتفكر في نفس الموضوع.. مش قلت لك إن شاء الله هنلاقي حل».

- «فين الحل ده بس؟.. هي السما بتمطر حلول».

- «هتفرج إن شاء الله.. وبعدين ماما من بدري عمّالة تحضّر في عشا للنهارده لمّا عرفت إنك جاي.. تقوم تقول تمشي دلوقتي؟».

- «ومين بس له نِفْس؟».

جاءت أمينة تجلس معهما قليلاً، كما تفعل دائمًا بين الحين والآخر..

قالت كريمة: «خلاص استأذن ماما لَتزعل منك».

نظرت له أمينة متسائلة:

«خير يا فاروق؟».

- «مفيش يا ماما.. هقوم أنا.. مش عايزة حاجة؟».

- «تقوم فين.. والله ما انتَ ماشي إلا لمّا تتعشى معانا.. إنتَ عايز الحاج يزعل؟».

- «مقدرش على زعلكم».

ابتسمت كريمة.. سعيدة بوجود فاروق معها وعدم ذهابه في الحال.

بعد تناول العشاء.. جلسوا جميعًا وطلب الحاج عوض من كريمة إعداد شاي له.. وأشار إلى أمينة أن تتبعها..

سعل الحاج عوض وبدأ حديثه مع فاروق بهدوء ورجاء:

«بقول لك إيه يا فاروق.. كنت عايز أطلب منك طلب».

- «اؤمر يا حاج».

- «إنتَ عارف إن كريمة الوحيدة والصغيرة بتاعتنا وإن الحاجة معدتش صحتها زي الأول.. وبيني وبينك كده مبتستغناش عن بنتها».

توقف الحاج عوض عن استكمال حديثه ليرى رد فعل فاروق..

نظر له فاروق بعدم فهم ونظراته تحثه على التكملة..

فأكمل الحاج عوض:

«لو ميضايقكش يعني.. تسكنوا معانا هنا.. والبيت الحمد لله كبير وانا والحاجة يدوب هناخد أوضة والبيت كله بتاعكم».

لم يصدق فاروق أن خطته آتت ثمارها بهذه السرعة.. حاول أن يتمالك نفسه ولا يُبدي سعادته.. فتظاهر بالتردد:

«أيوه.. بس....».

- «بس إيه؟».

- «يعني.. إخوات كريمة ممكن يتضايقوا؟».

- «ويتضايقوا ليه؟.. كل واحد وله حياته وفين وفين لما ييجي يطل علينا.. علشان كده مش عايزين الحنيّنة اللي طلعنا بيها تبعد هي كمان.. ونفرح بيكم بقى ونشيل عيالكم».

تردد فاروق.. ثم قال:

«مش عارف أقول إيه؟».

جاءت كريمة بالشاي.. وخلفها أمينة تنظر لـ«عوض» نظرات متسائلة..

فقال الحاج عوض مشجعًا فاروق على اتخاذ القرار والرد السريع:

«تقول موافق خلينا كلنا نفرح».

تظاهرت كريمة بجهلها بما دار بينهما -كما طلبت منها والدتها- وسألت بحيرة كاذبة أدركها فاروق ولم يُبدِها:

«خير.. فيه إيه؟».

أجاب والدها: «عايزين نحدد معاد فرحكم.. واتفقت مع فاروق تقعدوا معانا هنا».

نظرت كريمة لـ«فاروق» وقلبها يرقص فرحًا ونظراتها كلها أمل وسعادة.. بادلها فاروق نظرتها السعيدة..

جذبتها أمينة لحضنها وهي تبارك للعروسين.. ثم سألت الحاج:

«ونعمل لهم فرح كبير يا حاج في فندق من الفنادق الحلوة النضيفة».

ابتسم الحاج عوض وهو أكثر منها سعادة:

«يروحوا يحجزوا في المكان اللي يعجبهم.. كمان شهرين.. نكون وضبنا البيت علشان يليق بالعرسان وربنا يتمم بخير».

تبادل العروسان التهاني وكل منهما سعيد باقتراب تحقيق حلمه رغم اختلاف النيّات، فقد اتفق الهدف.



«هكذا التعساء..
أحلامهم البسيطة مستحيلة»

جلست «يسرية» أمام مرآة غرفة نومها تنظر لنفسها في المرآة.. جميلة هي اليوم كيوم عرسها.. رأت نظرات الإعجاب في العيون وربما خطفت بجمالها الأنظار من شقيقتها العروس..

شقيقتها.. تُرى ماذا تفعل الآن؟

ابتسمت بخجل وهي تتذكر الهمسات بين العروسين وابتسامة شقيقتها بخجل.

تعلم كم تحب «يمنى» زوجها «عمرو» وهو أيضًا يحبها.

تُرى.. هل يحبها «صالح» كما يحب «عمرو» «يمنى»؟

- «هتفضلي قاعدة كده كتير؟».

التفتت لـ«صالح».. ابتسمت ونهضت بدلال لتجلس بجواره:

«عايزني؟».

رد وهو يخلع نظارته ويتمدد على السرير:

«عايزك تطفّي النور ده.. عايز أنام».

صفعة قوية شعرت بها وهو يبتعد عنها للطرف الآخر من السرير ويدير وجهه ويغمض عينيه.

نهضت تجر إحباطها مع قميص نومها المعلق.. وأطفأت النور وخرجت من الغرفة.

دخلت غرفة ابنتها الخالية.. كم كانت تتمنى وجودها لتأخذها في حضنها.. تحتاج إلى حضن يضمها أو تضمه حتى لو كانت ابنتها.

لِمَ صممت «لبيبة» أن تأخذها الليلة.. «لبيبة» لم تكن لبيبةً بالقدر الكافي لتفهم ما تعانيه ابنتها.

ظنت أنها تتيح لابنتها وزوجها لحظات جميلة كتلك التي ستنعم بها عروس الليلة.. تحججت بأنها تريد أن تقضي «ملك» الليلة معها كي تؤنسها في أول ليلة تبيت فيها بمفردها.

مسكينة لبيبة.. تعتقد أن زواج يسرية من صالح ناجح لأقصى درجة ولا تعلم أن الصورة الخارجية للزواج الناجح تبدلت وأصبحت تخفي وراءها سرًّا يحطم أعصابها في الأشهر الـ٦ الأخيرة.

كم من بيوت تخفي أسرارًا لا يعلمها سوى ساكنيها.

كم من ابتسامة تموت وتولد يوميًّا على عتبات أبوابها.

وقفت أمام المرآة مرة أخرى..

ظلت تنظر لنفسها بشكل كامل من رأسها حتى قدميها مرورًا بجسدها.. وجدت وجهها قد تلطخ من هطول شلالات سواد عينيها..

بدلت ملابسها وارتمت بين أحضان الوسائد في سرير ابنتها.

في الصباح.. استيقظت يسرية على صوت المنبه فنهضت ببطء وهي تتثاءب.. دخلت المطبخ، وضعت براد الشاي ثم دخلت الحمام وخرجت منه على غرفتها توقظ صالح بهدوء.. وعندما تأكدت من استيقاظه عادت مرة أخرى للمطبخ تكمل إعداد الإفطار.

بعدما انتهى صالح من ارتداء ملابسه ذهب ليتناول الإفطار مع يسرية ككل صباح.. نظر لها متسائلاً:

«إنتي لسه ملبستيش».

- «مش قادرة أروح الشغل النهارده.. محتاجة أنام».

- «طيب نامي وخدي راحتك.. خدي لك كام يوم أجازة ترتاحي، إنتي تعبتي مع أختك في الفرش والفرح».

- «هجرب النهارده بس وأشوف».

- «متجيش على نفسك.. إنتي عندك رصيد أجازات كفاية، مش كده».

- «عندي.. بس اتعودت، إنتَ عارف».

- «اللي يريّحك».

أكمل تناول إفطاره.. صامتة يسرية شاردة وانتبهت على سؤاله:

«مش بتاكلي ليه؟».

- «هنام شوية بعد ما تنزل وأبقى آكل بعدين.. هتيجي ع الغدا؟».

أجابها وهو يمضغ طعامه:

«مش عارف.. على تليفون زي كل يوم».

- «عرّفني علشان هنزل أروح لماما وهنروح ليمنى آخر النهار».

- «وهاتي ملك، متخليهاش تبات عند مامتك النهارده».

جاءتها فرصة لا بد أن تغتنمها.. همست وهي تربت على كفه:

«ما تخليها عند ماما».

سحب كفه بسرعة ونهض متصنعًا الاستعجال وهو يبرر:

«وحشتني.. ومش عايزها تتعود تغيب بره البيت من غير ما أشوفها».

صمتت وظلت جالسة مكانها تراقبه بعدما غسل يديه واتجه لأخذ سجائره ومفاتيحه.

وقبل أن يفتح الباب سألها وكأنه تذكر شيئًا:

«شفتي حد يعلّمك السواقة؟».

أجابت من مكانها:

«لأ».

- «طيب انجزي في الموضوع ده».

نهضت تجمع الأطباق وترد دون أن تنظر له:

«هتعلم ليه؟.. مالهاش لازمة».

- «اتعلمي علشان خلال أيام هتكون معاكي عربيتي.. أنا هشتري عربية جديدة وأدّيكي بتاعتي.. سلام».

ظلت ثابتة دون أن تتحرك والأطباق بيديها.. تحاول استيعاب ما يحدث.

في الآونة الأخيرة يتقلب في لحظة بين القسوة والحنان.. شُحّ المشاعر وكرم الماديات..

كيف يعيش أكثر من إحساس في الساعة الواحدة؟

وتذكرت كلماته الأخيرة.. فابتسمت بسخرية وهي تردد:

«يسرية بنت متولي البيّاع السريح هتسوق عربية!!».

أكملت جمع الأطباق وهي تحاول أن تركز تفكيرها في فرحة السيارة وأن تُقصي ما يؤلمها بعيدًا.

قبل أن تدخل غرفتها لتكمل نومها ذهبت لتُجري اتصالاً هاتفيًّا.. بعد عدة دقائق لم يأتِها رد.. ذهبت مرة أخرى لغرفتها واتصلت من هاتفها المحمول.. فجاءها الرد سريعًا:

«صباح الفل يا أخت العروسة».

ابتسمت بفرحة وردت على صديقتها:

«صباح النور يا سمية.. إنتي وصلتي الشغل؟».

- «لا، لسه في الطريق.. إنتي وصلتي؟».

- «لا، أنا مش قادرة آجي النهارده.. قدمي لي على النهارده بس».

- «ماشي.. أشوفك بكره إن شاء الله.. سلام».

أغلقت يسرية مع سمية زميلتها وصديقتها المقربة.. ثم تمددت على سريرها في محاولة للنوم.

لا تعلم لماذا فر النوم فجأة من مُقلتيها.. وحاولت التمسك بتلابيب فرحتها لكن أبت الأفكار أن تتركها تنام قريرة العين.

فجأة مرت ذكريات ٦ أعوام مضت أمام عينيها.. رأت نفسها وهي الفتاة التي تأخر زواجها عن كل مَن حولها رغم جمالها حتى وصلت للخامسة والعشرين.. ورغم تقدم راغبي الزواج لكن من بينهم لا أحد يصلح إطلاقًا لبناء أسرة.

يسرية ابنة بائع الفاكهة المتجول الذي يملك قوت أسرته بالكاد.. الفتاة التي تعمل بإحدى الصيدليات التي يديرها صيدلي فاسد يتردد عليه المدمنون طوال الوقت، تعمل ساعات طويلة يوميًّا من أجل مائة وخمسين جنيهًا تعطيها كاملة لوالدها للمساعدة في مصروفات دراسة شقيقتها (يُمنى) التي وصلت للثانوية العامة.

كانت في رحلتها اليومية للصيدلية تحلم باليوم الذي تحصل فيه على عمل آخر أكثر آدمية من معاملة المدمنين أو رواد الصيدلية من سكان المنطقة البسيطة الذين يرون فيها طبيبة قادرة على علاج أبنائهم من القيء والإسهال ونزلات البرد والحمّى.

أمّا في أحلام يقظتها قبل النوم فتتخيل فارس الأحلام الذي سيختطفها على جواد السعادة إلى دنيا أخرى تنعم فيها بالحب والحياة.

تتخيل يوم عرسها البسيط ووالدها يسلمها لزوجها بكل فرحة.. ومنزلها البسيط أيضًا الذي ستملؤه سعادة وحُبًّا وأطفالاً يزيدون من سعادتها هي وزوجها.

تتخيله رجلاً عاديًّا لا وسيمًا ولا قبيح الشكل.. تتمناه طيبًا حنونًا كوالدها.

لا تحلم به صاحب جاه أو منصب فهي تعلم تمامًا قدرها وقدر أسرتها.. تتمناه يكافح في عمله أيًّا كان من أجل سعادتهما معًا وسعادة أولادهما في المستقبل.

تعلم أنها مسألة وقت فقط وستتحقق أحلامها.. حتما ستتحقق؛ فلم تحلم يومًا بحلم صعب المنال حتى تشك في تحقيق أحلامها.

أحلامها البسيطة ومنزل أهلها الذي يملأه الحب والحنان خير معين على قتل ملل الانتظار حتى يتحقق الحلم.

لم تعلم أن كل تلك الأحلام ستُسحق ذات صباح.. لم تتخيل أن بين عشية وضحاها ستنقلب حياتها رأسًا على عقب وتصير كقشة في مهب الريح.

لم تتخيل أبدًا أنها ستيستيقظ ذات صباح على صراخ والدتها وهي توقظها ليذهبا معًا إلى أحد المستشفيات الذي يرقد به والدها إثر تعرّضه لحادث سير.. لتذهبا ويكون قد انقضى الأمر وتُوفّي والدها بعد إصابته.. لن تنسى أبدًا انهيار والدتها بين يديها ومقاومتها ألّا تنهار هي الأخرى.

ظلت تبكي وفي الوقت نفسه تتذكر المسئوليات التي وُضعت فيها رغمًا عنها.

ما زالت يمنى في المدرسة.. لم تعلم بعد أن قبلتها لوالدها صباحًا ستكون القبلة الأخيرة والوداع الأخير.

هي وشقيقتها أصبحتا يتيمتين في لمح البصر.

والدتها البسيطة، التي لم تواجه الحياة خارج البيت، كيف لها أن تتحمل ما كان يحمله متولي؟

جلست قليلاً بجوار والدتها.. هدأَت وهدّأت من روع والدتها.

ثم طلبت منها الانتظار لتعلم ملابسات الحادث ولترى والدها.

أخبروها في المستشفى أن الحادث تم في التاسعة صباحًا ورغم الزحام فإن صاحب السيارة فرّ هاربًا وكل شهود العيان حاولوا إنقاذ المصاب فلم ينتبه أحدهم لرقم السيارة.

تمت الإجراءات سريعًا ودُفن متولي ومر اليوم الأول طويلاً كدهر، مريرًا كالعلقم، يحمل بين ثناياه الألم والحزن والقلق والخوف من المستقبل.

وفي اليوم الثاني جاء للعزاء رجل يسأل عن أهل المتوفي...

قاده المعزون لداخل المنزل البسيط.. وقال أحد الجيران:

«مراته وبناته».

رفعت يسرية عينيها الحزينة الخالية من الدموع، المليئة بالخوف من المجهول، لترى القادم.

وجدته رجلاً أربعينيًّا يُعرّف نفسه لوالدتها:

«البقاء لله.. صالح عاشور.. صحفي».

نكست رأسها مرة أخرى وهي تسمع والدتها ترد عليه بكلمات قليلة ترد بها على كل المعزين من بين دموعها التي لم تتوقف.

جلس قليلاً وهو يدير عينيه بين يسرية ويمنى...

ثم قال لوالدتها:

« كنت عايز أتكلم معاكي في موضوع يا حاجة.. لو ممكن بس نتكلم لوحدنا».

نظرت الأم حولها.. لتجد كل السيدات يجلسن ويترقبن ما سيقوله الرجل؛ فتلعثمت..

نهضت يسرية وأشارت له إلى خارج المنزل الصغير..

«اتفضل حضرتك».

سبقته للخارج وفضولها داخلها.. يتبعها صالح.

توقفت بجانب الباب وسألته بصوت منخفض:

«اتفضل حضرتك».

- «أولاً، البقاء لله.. ثانيًا، عارفة والدك توفي إزّاي».

- «ونعم بالله.. طبعًا.. مات في حادثة عربية».

- «تعرفي كامل خليفة؟».

صمتت برهة تفكر ثم أجابت:

«لأ».

أكمل صالح: «كامل خليفة رجل الأعمال وعضو مجلس الشعب».

- «تقريبًا سمعت اسمه قبل كده.. ماله؟».

- «ابنه هو اللي قتل والدك».

دارت بها الدنيا فجأة مع كلمة «قتل».. تجمعت الدموع في عينيها حتى حجبت الرؤية عنها.. كادت تسقط فأمسكها صالح.

تماسكت وهي تسحب يدها من يده وتمسح الدموع.. وتسأله:

«حضرتك عرفت منين؟ وابنه يقتل بابا ليه؟».

سألها: «أولاً، إنتي كويسة؟».

هزت رأسها.. فأجابها:

«عرفت من مصدر وصّل لي الخبر بالصدفة.. يقتل والدك ليه أكيد والدك مش مقصود.. بس تقدري تقولي الاستهتار هو اللي قتله».

صمتت وهي لا تعرف ماذا تقول.. ولا تفهم لماذا جاء ذلك الصحفي ليزيد ألمها.. قُتل.. مات.. النتيجة واحدة.. فقدت والدها.

استطاع صالح بخبرته أن يفهم ما يدور في رأسها، فقال:

«أنا هساعدكم.. هكتب عن اللي حصل وأعرضه على الرأي العام.. هفضح الاستهتار بأرواح الناس.. هفضح الفساد في إنه قدر يسكت كل اللي شافوا الحادثة ومحدش اتكلم».

قاطعته يسرية من بين دموعها:

«ليه؟».

- «حقكم».

- «بابا هيرجع؟».

- «الميت مبيرجعش.. بس على الأقل تاخدوا حقه».

قالت بسخرية: «إحنا ٣ ولايا.. هنحارب راجل زي ده إزّاي؟».

- «الحق معاكم وأنا مش هسيبكم».

- «واحنا مش بتوع مشاكل».

- «بس...».

قاطعته ثانيةً: «مش هقدر.. بجد مش هقدر أدخل حرب مع راجل زي ده.. ممكن يدوس علينا في لحظة».

- «يا خسارة.. بتفرطي في حق باباكي.. ولّا كنتي عارفة وسكتك إنتي كمان؟».

تجاوزت عن تلميحاته وقالت بنظرة متهمة:

- «اللي أنا عارفاه كويس إن محدش بيعمل حاجة لوجه الله وإن كل واحد بيدوّر على مصلحته.. إنتَ جاي علشان مصلحتك عايز تكتب عن راجل معروف علشان تتشهر، ولّا يمكن عايز تلفت نظره ليك علشان يشوفك وينوبك من خيرُه قرشين».

تركته وعادت للداخل، والدموع تملأ عينيها.. والحقيقة التي عرفتها منذ قليل تعتصر كيانها.. ولا تدري إن كان قرارها صحيحًا أم خاطئًا.

انتهى العزاء وعادت لعملها من جديد وكل لحظة تمر عليها تدعو ألّا تضطر يمنى لترك الدراسة والعمل لكسب لقمة العيش.

عادت من عملها مجهدة بعد العزاء بيومين.. لتجد صالح يجلس مع والدتها يحاول إقناعها بتقديم بلاغ تتهم فيه نجل رجل الأعمال.

ترددت والدتها وهي تسألها الجواب.. فقالت يسرية بحسم:

«مش هنقدر نقف قصاده».

طمأنها صالح: «جرّبي.. وأنا مش هسيبكم إلا لمّا تاخدوا حقكم وتحبسوا اللي قتل والدك».

دموع الأرملة واليتيمة الصغيرة جعلتها تصمت موافقة.

مرت الأيام وحدث ما توقعته يسرية.. بعد تقديم البلاغ ونشر القضية استُدرجت لتجد نفسها متهمة في قضية آداب، ومحامٍ فاسد يخيّرها: بلاغ ببلاغ والضعيف يخسر.

لملمت بقايا كرامتها وتنازلت عن البلاغ ليستطيع المحامي الفاسد إخراجها من القضية بسهولة.

فقدت عملها وحبست نفسها خوفًا من نظرات الناس بعد الفضيحة، والتي يعلم أغلب الجيران أنها لُفّقت لها عمدًا.

جاءهم صالح وهو يشعر بالذنب.. وعندما رآها وعيونها ذابلة إثر البكاء منكسرة من الفضيحة.. فاجأهم بطلب غريب:

«يمكن الوقت مش مناسب للي هقوله.. أو تفتكروا إني بقول كده كنوع من الشفقة.. بس الحقيقة إني كنت هطلب الطلب ده بس مستني وقت مناسب.. وأنا شايف إن مالوش لازمة تأجيل طلبي.. أنا طالب إيد يسرية.. أنا عارف إن فيه فرق سن بيننا كبير بس أنا هعوضها ومش هخليها تحس بالفرق ده.. واعتبروني مسئول عنكم من لحظة ما تقول آه».

لم يكن لديها خيار آخر.. رغم فارق العمر الذي تجاوز العشرين عامًا بثلاث سنوات ورغم أنَّه يكبر والدتها بعام ورغم زواجه السابق ورغم أنَّها لا تعرف عنه الكثير.. إلا أنها وافقت راضية راجية الخلاص ممّا هي فيه.

وتبدلت حياتهم بالفعل.. وجدت زوجًا حنونًا مخلصًا.

وجدت أبًا لها ولشقيقتها، كريمًا لأقصى درجـة.. لا يبخل عليها ولا على والدتها وشقيقتها.

وازدادت سعادتها وارتباطها به بعد إنجابها لابنتها.

لم يرفض رغبتها في العمل بل ساعدها على الالتحاق بوظيفة بمؤهلها المتوسط.

كانت راضية قانعة بحياتها.. لولا التغير المفاجئ الذي حدث، والذي لا تعلم له سببًا.

ما الجديد الذي طرأ عليهما لتصير حياتهما هكذا؟

سمعت أذان الظهر من المسجد القريب من منزلها.. نظرت في الساعة لتتأكد وهي غير مصدقة..

هل أفكارها وذكرياتها سرقت النوم والوقت لتلك الدرجة؟

اعتدلت جالسة وتناولت هاتفها واتصلت بزوجها.

❑❑❑

وقفت يسرية تغسل الأطباق بعدما تناولت الغداء مع والدتها وابنتها.. ووالدتها تقوم بتغليف بعض الأطعمة التي أعدتها منذ قليل.

رن الهاتف الأرضي فذهبت لبيبة للرد.. فسمعت يسرية صوت لبيبة:

«الحمد لله.. منتحرمش منك يا صالح.. هننزل كمان شوية نروح لها.. أنادي لك يسرية.. طيب مع السلامة».

كادت يسرية تخرج من المطبخ عندما سمعت أن المتحدث صالح.. لكنها وجدت لبيبة عائدة للمطبخ مرة أخرى بعد إنهاء المكالمة:

«هو مسألش عليّا؟».

- «سأل وطمّنته إنك هنا».

- «مخلتنيش أكلمه ليه؟».

- «لمّا سألته قال هيكلمك كمان شوية».

- «أمّال هو متصل ليه؟».

- «بيقول لي إنه بعت لأختك غدا».

جلست لبيبة تكمل ما كانت تفعله.. لكن يسرية توقفت وقالت بصوت حزين:

«صالح أتغير».

سألتها والدتها وهي تنظر في عينيها الحزينة:

«اتغير إزّاي».

حاولت يسرية عبثًا أن تصوغ إحساسها في كلمات لكنها فشلت وجاءت كلماتها غير واضحة.

«أتغير معايا.. حاسة بكده».

أكملت والدتها ما كانت تفعله وهي تلومها:

«بلاش بَطَر.. إنتي لسه قايلة هيديلك عربية وكل اللي نفسك فيه جايبهولك وبيعاملك ويعاملنا أحسن معاملة.. صالح جوزك مفيش منه اتنين؛ احمدي ربنا عليه ومتنكديش على نفسك وعليه».

وضعت العلب التي انتهت من تغليفها في أكياس:

«أنا خلصت.. هلبس على طول خلينا نروح نطمّن على أختك».

تركتها والدتها غارقة في إحساسها.. ليتها تستطيع البوح.

لا تجرؤ على الحديث.. لا تجرؤ أبدًا.. إلى متى ستظل صامتة؟

أمسكت رأسها وقد عاودها الصداع الذي تعوّد أن يغزو رأسها في الفترة الأخيرة كثيرًا.

تناولت قرص مسكن.. ابتلعته وهي تبتلع سرها وحزنها داخلها.

❑❑❑

استقبل عمرو يسرية ولبيبة بحفاوة.. باركتا له.. ثم سألت لبيبة: «هي يمنى نايمة ولا إيه؟».

عمرو: «لا، في الحمّام.. ثواني أعرّفها إنكم وصلتم».

دخل عمرو ليخبر يمنى بوصول أهلها...

دقائق قليلة.. جاءتهم يمنى ترحب بهم وتبدو عليها السعادة..

عيناها لامعتان ووجهها مشرق وابتسامتها مبهجة.

جلست وجاء عمرو جلس جوارها وهو يحيطها بذراعه.

تبادلوا جميعًا أحاديث بسيطة.. ولاحظت يسرية أن بين كل جملة وأخرى تتبادل النظرات العاشقة بين العروسين.

قالت الأم لـ«يمنى»:

«أنا عملت لك أكل يكفي ٣ أيام.. حطيه في الفريزر وابقي طلعي سخني بس».

- «شكرًا يا ماما».

وجّه عمرو حديثه لـ«يسرية»: «أستاذ صالح تعب نفسه وبعت لنا النهارده غدا.. متشكرين جدًا.. ده حتى بعت لنا الأكل من المطعم اللي كنا بنحب نروح له دايمًا.. أكيد قُلتي له عليه».

تساءلت يمنى: «صحيح يا يسرية.. عرفتي منين المطعم ده بالذات؟».

تفاجأت يسرية بكل ما تسمعه.. فلا هي تعرف اسم مطعمهما المفضل ولا كانت تعلم أن صالح سيرسل لهما الطعام.. قبل أن تجيب وجدت والدتها تجيب ببساطة:

«أنا اللي قلت له عليه».

نظرت لها يسرية متفاجئة أكثر وسألتها:

«قلتي له إمتى.. مش لمّا كلمك كان بعت الأكل خلاص».

- «أيوه.. قلت له الصبح».

نهضت الأم وهي تمسك بعلب الطعام.. وأشارت لـ«يمنى»:

«تعالي معايا نشيل الأكل».

نهضت يمنى.. وضعت شعرها خلف أذنها وهي تنحني تأخذ باقي علب الطعام من الطاولة الصغيرة الموضوعة في المنتصف.

توقفت نظرات يسرية للحظة على رقبة يمنى.. نظرة خاطفة لم تطُل بسبب دخول يمنى

المطبخ خلف والدتها..

نظرت فجأة لـ«عمرو» الذي كان يتابع يمنى بنظرات عاشقة..

وعندما عاد عمرو بنظره للأمام وجد يسرية تنظر له فابتسم وهو يرحب بها:

«منورين».

ثم نظر للتليفزيون المفتوح.. وساد صمت ثقيل فجأة على كليهما.

نهضت يسرية دون أن تتكلم ودخلت لشقيقتها المطبخ..

سألتها فجأة:

«يمنى.. إنتي كويسة؟».

أجابتها يمنى بسعادة: «الحمد لله».

كررت يسرية: «بجد؟».

أعادت يمنى إجابتها بتعجب: «آه والله الحمد لله.. ليه؟».

ترددت يسرية قليلاً.. رغم قربها من والدتها وشقيقتها.. إلا إنهن جميعًا يتوقفن عند حدود في الحديث لا تجرؤ إحداهن على تجاوزها..

سؤال يمنى ينتظر إجابة، وانتباه والدتها أيضًا..

استجمعت جرأتها فسألت بصوت مبحوح:

«عمرو كويس معاكي؟».

فابتسمت يمنى وقد فهمت أن شقيقتها تطمئن عليها فقط:

«الحمد لله يا حبيبتي والله إحنا كويسين ومبسوطين».

ربتت عليها والدتها وهي تدعو لها:

«ربنا يسعدك يا حبيبتي».

ثم تنهدت وهي تكمل:

«دلوقتي بس أقول إني اتطمنت عليكم كل واحدة في بيت جوزها ومبقاش خايفة لو جرا لي حاجة».

قبَّلتها يمنى وهي تلومها:

«متقوليش كده تاني يا ماما.. هتخليني أعيّط».

الأم: «عياط إيه عايزة عريسك يقول عكننا عليكم.. يلّلا يا يسرية».

خرجن جميعًا من المطبخ ويمنى تتظاهر بالتمسك بهما:

«خليكم قاعدين معانا شوية».

حضنتها والدتها وهي تدعو لها.. ثم سلمت على عمرو:

«خلي بالك منها يا عمرو.. ربنا يسعدكم يا حبيبي».

رد عمرو وهو يحيط يمنى بذراعه ويضمها نحوه:

«في عينيّا يا طنط».

على السلم أثناء نزولهما.. لاحظت الأم تردد يسرية وأن حالها تبدل عن لحظة وصولهما لمنزل يمنى، فسألتها:

«مالك يا يسرية».

- «هي يمنى بجد مبسوطة.. مقالتلكيش حاجة؟».

تعجبت الأم وسألتها:

«حاجة إيه؟.. زي ما إنتي شايفة ربنا يسعدهم ببعض».

صمتت يسرية.. فالمخاوف التي دبت في قلبها فجأة لا تستطيع أن تصارح بها والدتها؛ فلا تتذكر أن دار بينها وبين والدتها حديث في أمور خاصة إطلاقًا.

منذ طفولتها وهي ترى تشدد والدتها في تربيتها هي وشقيقتها.. فمنذ الصغر وهي تلصق كل فعل ترفضه بكلمة «فضيحة»..

لا تلعبي مع الأولاد حتى لا تفضحينا.. امشي بخطوات جادة كي لا تفضحينا.. إيّاكِ أن تتركي العنان لمشاعرك كي لا تفضحينا..

حتى جاءتها الفضيحة ظُلمًا وبهتانًا.. حينها وجدت والدتها تغلق الباب عليهن وهي تبكي وتولول بأنهن فُضحن ولن تتزوج إحداهن أبدًا وقد يُطرَدن من بيتهن بسبب الفضيحة.

كانت تعلم جيدًا أن ابنتها مظلومة ولكن النتيجة واحدة: الفضيحة.

وقفتا في الشارع وأخرجتها والدتها من ذكرياتها:

«هتروَّحي معايا ولا هتروحي بيتك».

ردت بضيق: «هروِّح».

❐❐❐

دخلت يسرية بيتها وهي تشعر بالاختناق.. اتصلت بزوجها تسأله متى سيأتي فأخبرها ألّا تنتظره.

أعدت العشاء لطفلتها التي تناولته وهي تكاد تغفو.. انتهت من إطعامها ثم أخذتها إلى سريرها حتى نامت.

لا تزال تشعر بالضيق.. لا تعرف له سببًا محددًا.. أم أكثر من سبب.. هل عدم شعور والدتها بها.. هل تغيُّر صالح معها.. هل خوفها على يمنى؟

وجدت نفسها تجلس بجانب الهاتف وتتصل بصديقتها..

جاءها صوت سمية:

«آلو».

- «إزيك يا سمية.. نايمة؟».

ردت سمية بصوت واضح:

«لا يا حبيبتي، قاعدة وسط العيال بيعملوا الواجب.. مبنامش دلوقتي إنتي عارفة.. مال صوتك؟».

سمية صديقتها.. عرفت من صوتها أن بها شيئًا.. ليت كل من حولها يشعر بها كصديقتها.

سمية ليست صديقة عُمر.. بل عمر صداقتهما لا يتجاوز ثلاث سنوات هي عمر زمالتهما.

ولكن من قال إن الصداقة تُحسَب بالوقت؟

الصداقة كالحب.. لا تخضع لقوانين الزمان.. تخضع فقط لقوانين يسرية.. فلا تمتد لأسرار خاصة ولا تقتصر على زمالة محدودة.

تتبادل كل منهما مع الأخرى تفاصيل يومها العادية.. مشاكلها البسيطة.. تسألها يسرية عن خبراتها في التربية.. تزور كل منهما الأخرى في المناسبات وتتبادلان الهدايا والمجاملات.

ردت يسرية وهي تزفر وتحاول أن تُخرج الضيق من صدرها فخرج مع دموع عينيها:

«مخنوقة أوي».

لاحظت سمية أن صديقتها بها شيء ما..

«طيب استنى لما أكلمك من أوضتي».

التفتت سمية لأولادها:

«خلصوا اللي وراكم لحد ما أخلص المكالمة.. إيّاكم حد فيكم يقوم من مكانه».

دخلت غرفتها.. وجلست وهي تقول:

«قولي يا يسرية مالك».

حكت لها يسرية عن اليوم من أوله.. وعن زيارتها لشقيقتها التي أربكتها.. وقالت بوضوح:

«ماما مخدتش بالها من الزراق اللي في رقبتها بس أنا خايفة عليها.. خايفة يكون بيضربها وهي مرضيتش تقول علشان متزعلناش.. مع إن تشوفيهم مع بعض بيموت فيها.. ده حتى قدّامنا أخدها في حضنه».

سمعت سمية تضحك.. فقاطعتها يسرية:

«بتضحكي على إيه؟».

- «عليكي يا يسرية».

سألت باستغراب:

«ليه؟».

- «إنتي بجد اللي بتقوليه ده.. إنتي فاكراه بيضربها؟».

- «أيوه يا بنتي اللي في رقبتها كدمة.. خبطة بقى ولّا ضرب مش عارفة بالظبط.. بس أنا لبّستها إمبارح مكانش في جسمها حاجة».

- «اطمنى يا حبيبتي.. أختك عروسة وعريسها مبسوط بيها.. يسرية بجد إنتي مش فاهمة ولا بتحكي لي تحسرينا على عمرنا».

تبعت سمية كلامها بضحكة؛ فأدركت يسرية أنها ورغم عمرها وعمر زواجها إلا أنه لا تزال هناك خفايا لا تفهمها.

فقالت يسرية محاولة التظاهر بالفهم:

«يمكن من حبي ليها وخوفي عليها فكرت كده».

- «ممكن برضه».

- «طيب يا سمية.. مش هعطلك.. روحي لأولادك.. أشوفك بكره في الشغل».

- «قبل ما أقفل طمنيني.. لسّه متضايقة؟».

ردت كاذبة: «لا، خلاص أنا كويسة.. تصبحي على خير».

أغلقت يسرية الهاتف.. وهي تستعيد النظرات العاشقة واللمسات الحانية بين يمنى وعمرو.

فنهضت ووقفت أمام دولابها.. انتقت ثوبًا يكشف الكثير من مفاتنها، ولونًا تعلم أن صالح يحبه.. ثم بدأت تتزين وتتعطر وجلست تنتظر.

وصل صالح بعد منتصف الليل بساعة.. وجد يسرية في انتظاره..

استقبلته وهي تعانقه:

«حمد الله ع السلامة».

ربت على كتفها سريعًا وهو يبتعد:

«إنتي لسّه صاحية؟».

- «مستنياك».

لم يرد.. دخل على غرفته وبدأ يغير ملابسه.

- «أحضّر لك العشا؟».

- «لا، اتعشيت.. هنام على طول».

ظلت مكانها.. تراقبه وهو يذهب للحمام ثم يعود.. يطفئ الضوء ويتمدد على فراشه دون الالتفات إليها.

شعرت بالغليان والثورة تجتاحها.. لِمَ يعاملها وكأنها غير موجودة؟

أضاءت المصباح وهي تصرخ فيه باكية:

«قوم يا صالح كلمني».

رفع رأسه قليلاً وسألها:

«نعم».

- «فيه إيه؟».

- «إيه؟.. هنام».

اقتربت وهي تكاد ترجوه:

«إنتَ بتعاملني كده ليه.. فهمني فيه إيه؟».

اعتدل جالسًا وهو ينظر لها بلامبالاة:

«بعاملك إزّاي.. طلباتك كلها مجابة قبل ما تطلبيها.. عمري ما زعّلتك ولا قلت لك كلمة تجرحك.. عمري ما منعتك من حاجة بتحبيها.. يبقى بعاملك إزّاي؟».

جلست تبكي:

«إنتَ مش بتحبني؟».

قام ثائرًا:

«آآآه.. إنتي فايقة بقى وعايزة تدوري على أيّ نكد والسلام.. بقول لك إيه.. أنا هسيب لك الأوضة خالص وأنام في الأوضة التانية.. أنا طول اليوم في شغل وقرف مش هيبقى هنا كمان.. واوعي تيجي ورايا».

جلست يسرية جامدة مكانها كجثة هامدة قتلتها طعنات التجاهل.. تبحث عن سبب.. مبرر.. جريمة ارتكبتها تستحق عليها هذا العقاب القاسي!

نهضت ببطء تجر قدميها المكبلتين بقيود صدمتها وحيرتها.

وقفت تنظر في المرآة.. هل يراها دميمة؟!

أحاطت جسدها بيديها تتحسسه وهي تستدير حول نفسها أمام المرآة..

هل جد جديد في جسدها يؤدي للنفور منها؟

هل يرى صالح ما لا تراه هي بعينيها؟

ظلت تبحث بجنون عن أيّ تغيير فيها..

تبدل ملامح؟ .. ربما زيادة وزن؟.. ربما ترهل بعد جراحتها القيصرية؟!!

لكنها لم تجد أيّ جديد يذكر.. تُرى ماذا حدث؟

عادت لسريرها تبكي بمرارة.. حتى لاح الصباح.

❑❑❑

بآلية تامة تحركت يسرية كعادتها بعدما استيقظت على رنين المنبه.. تحركت ببطء وهي تتثاءب وتقاوم رغبتها في النوم مجددًا بعد ليلتها المؤرقة.

دخلت المطبخ.. وضعت براد الشاي، ثم دخلت الحمّام وخرجت منه على الغرفة التي نام بها صالح توقظه بهدوء.. وعندما تأكدت من استيقاظه عادت مرة أخرى للمطبخ تكمل إعداد الإفطار.

بعد قليل جاء صالح مرتديًا ملابسه وجلس على المائدة.. تبعته يسرية ومعها «ملك»، بعدما استعدتا للخروج..

جلست يسرية دون كلام تعد سندوتشات المدرسة لـ«ملك».

بدأ صالح حديثًا عاديًّا ككل صباح.. على عكس الليل تمامًا:

«أنا رايح إسكندرية بعد ما أوصلكم.. عايزين حاجة من هناك؟».

ردت يسرية بجفاء: «لا، شكرًا».

أكمل دون تعليق على جفائها:

«هتروحي من الشغل على مامتك ولا هتيجي على البيت».

ردت وهي تطعم ملك ودون أن تنظر له:

«هروح لماما».

- «طيب هبقى أعدي عليكم آخدكم لو هرجع بدري».

زفرت: «براحتك، لو مش عايزنا خالص خلينا هناك».

رد بلطف وحنان: «مستغناش عنكم.. إنتي عارفة».

نهض بعد أن انتهى من طعامه:

«هنزل أسخّن العربية لحد ما تخلصي.. يلّلا يا ملك».

أخذ ملك وسبقها للخارج وتركها غارقة في حيرتها.

يحيّرها أكثر.. مَن هذا؟ .. كيف يتبدل هكذا؟

هل ستعيش يوميًّا تلك الحيرة؟

كل يوم تتساءل عن تبدل حاله من النقيض للنقيض.. وكل يوم، لا تجد جوابًا ولا تصل إلى سبب.

❑❑❑

يومها في العمل يبدو طبيعيًا ككل يوم..

يوصلها صالح لعملها بعد أن يوصلا ملك لمدرستها ثم يغادر متجهًا للجريدة.

وصلت قبل الأخيرة من زملاء المكتب.. وجدت سمية ومحسن يجلسان خلف نفس المكتب متقاربين ويبدو أنهما منهمكان في حديث هامس بينهما.

ألقت تحية الصباح وجلست خلف مكتبها.

ردّا عليها.. وقالت سمية بصوت مرتفع قليلاً:

«قوم على مكتبك دلوقتي ونبقى نشوف حل بعدين».

سحب محسن مقعده وأعاده خلف مكتبه.

لم يجلس بل ذهب متجهًا للباب وسمية تتبعه بنظراتها..

سألته عندما اقترب من الباب:

«رايح فين؟».

رد بضيق: «هطلع أشرب سيجارة بره».

قالت محذرة: «دي رابع سيجارة م الصبح على الرّيق».

نهضت من مكانها واقتربت منه.. ربتت على كتفه بابتسامة هادئة وصوت مليء بالحب أثار انتباه يسرية:

«قلت لك هتتحل.. سيبها على الله ومتزعّلش نفسك».

ابتسم لها بانكسار، فأردفت:

«انزل هات لنا فطار».

التفتت ليسرية: «نجيب لك معانا؟».

شكرتها يسرية وهي تجيب: «فطرت في البيت».

خرج محسن من المكتب وعادت سمية لمكتبها.. جلست شاردة قليلاً ثم فاجأت يسرية:

«تدخلي في جمعية؟».

ترددت يسرية قبل أن تجيبها.. فأردفت سمية:

«محتاجة ألمّ جمعية.. ١٠٠ في الشهر».

صمتت قليلاً ثم أكملت:

«محسن منامش طول الليل.. استغنوا عنه في شغل بعد الضهر ومن ساعة ما رجع إمبارح وهو عمّال يفكر ويحسبها.. مرتب شغل آخر النهار ده اللي ساندنا، فجت لي فكرة الجمعية دي لحد ما يشوف شغل تاني».

سألتها يسرية: «هتعرفي تلميها؟».

ردت سمية بأمل: «هحاول وربك ييسرها.. ها هتدخلي؟».

ابتسمت يسرية مشجعة لصديقتها:

«ماشي.. هدخل بـ٢».

ردت سمية بفرح:

«يا فرج الله.. أهو في لحظة بقينا ٣.. أمّا أروح أشوف بقية المكاتب كده يمكن ربنا يسهلها».

أكملت بصوت خافت:

«يا رب قبل ما ييجي أكون لميت الجمعية وأفرّحه».

خرجت سمية من المكتب في نفس اللحظة التي دخل فيها زميلهم الرابع:

«صباح الخير».

ردت يسرية تحيته:

«صباح النور».

جلس خلف مكتبه وهو يسأل عن صديقه:

«محسن مجاش النهارده ولا إيه؟».

- «لا، جه.. نزل يجيب فطار وجاي».

انشغل كل منهما ببعض الأوراق أمامه.

وبعد قليل عادت سمية متهللة الأسارير:

«شُفتي.. نيّته خير.. اتلمت بسرعة أكتر ما تخيّلت».

سألها زميلهم:

«لميتي إيه؟ طالعين رحلة؟».

سمية: «لا، جمعية.. تدخل معانا؟».

وأكملت مشجعة:

«يسرية من غير كلام دخلت بـ٢، علشان تعرف الفرق بين الصحاب الجدعان والنص نص».

رد قائلاً: «هو المرتب بيتبقى منه حاجة لما أدخل في جمعية».

تعجبت سمية وهي تسأله:

«إنتَ مش داخل على جواز.. امسك لك قرشين ينفعوك».

وصل محسن وسمع جملة سمية الأخيرة فقال وهو يضع الطعام على مكتبها:

«سمية.. إنتي بتتكلمي في فلوس هنا كمان.. كفاية الله يخليكي أعصابي تعبت».

قالت سمية بفرحة:

«سلامة أعصابك يا حبيبي.. أنا عملت جمعية وهنقبضها الشهر ده».

ثم همست بعدما جلست ومحسن يجلس جوارها، وهي تناوله الطعام: «مش قلت لك هتفرج.. الحمد لله».

لاحظت يسرية لمعة متبادلة في عيون محسن وسمية وهو يهمس في أذن زوجته «ربنا يخليكي ليّا يا أحسن ست في الدنيا».

تنهدت سمية وهي تبتسم بسعادة:

«ويخليك ليّا يا أبوالعيال».

أدارت يسرية رأسها بعيدًا عنهما:

دون أن تدري وجدت نفسها تتذكر أيضًا يمنى وعمرو..

شعرت بالضيق وهي تحاول أن تتذكر متى آخر مرة قال لها صالح كلمة غزل أو كلمة حب.

شهور.. شهور طويلة لم تسمع منه كلمة تشعرها أنه ما زال يحبها..

تُرى لماذا؟ ما السبب؟

حيرة مرة أخرى.. تلازمها الحيرة في الآونة الأخيرة.

لو أنها تعلم.. لو أنها ترتاح قليلاً..

تقفز الصور أمام عينيها.. سمية ومحسن.. يمنى وعمرو..

ماذا ينقصها لتشعر أنها أنثى؟

تراقصت الدمعات أمام عينيها.. فنهضت مسرعة للحمّام دون أن تتكلم.

لاحظها محسن فقال لـ«سمية»:

«هي يسرية مالها؟».

انتبهت سمية للتو وهي تسأله:

«مالها؟».

أجابها: «قامت فجأة وشكلها بتعيّط».

انتفضت: «بتعيَّط؟!!».

ذهبت سمية تبحث عن صديقتها.. بالفعل وجدتها تغسل وجهها الذي اختلط بدموعها.. فسألتها سمية بخوف حقيقي

«مالك؟».

ضمتها لصدرها.. بكت يسرية أكثر في حضن صديقتها..

شعرت بحنان أمّ وسمية تحاول تهدئتها..

بكت كثيرًا.. كانت تحتاج هذا العناق الدافئ لعله يهدئ من نفسها.

سمية تُربت عليها وتضمها بحب وقلق:

«قولي لي مالك.. طمنيني».

رفعت يسرية رأسها لتسأل صديقتها:

«فيّا حاجة اتغيرت.. بقيت وحشة؟».

أجابتها صديقتها دون أن تفهم ما تقصده:

«لا يا حبيبتي، إنتي زي القمر.. إيه اللي حصل بس؟».

ترددت.. ماذا تقول؟

هناك أسرار نود البوح بها كي نُلقيها بعيدًا عن صدورنا.. لكنها مع خروجها تزيدنا جراحًا.. ففي الكتمان اختناق وفي البوح ذبح.. كلاهما مميت.

لاحظت سمية تردد صديقتها.. فقالت لها مشجعة:

«فضفضي.. شيلي من على قلبك.. اقسمي وجعك معايا».

نظرت لها يسرية بتردد.. ثم قالت وهي تلتقط أنفاسها:

«مش عارفة أقول لك إيه؟.. أنا أول مرة أتكلم مع حد في الحاجات دي».

صمتت.. هزت سمية رأسها تحثها على الحديث.. أكملت:

«صالح متغير معايا.. وقبل ما تقولي لي ناقصني إيه هو مش مقصر في مصاريف ولا أيّ طلبات ليّا ولملك وهو تقريبًا اللي صرف على جهاز يمنى بعد ما خلصت دراسة.. كل ده عادي ومتغيرش فيه.. بس هو اتغير معايا أنا.. ساعات يبقى حنين زي ما هو معايا من أول جوازنا وساعات ألاقيه يقلب عليّا و يعاملني بطريقة وحشة أوي من غير سبب».

ابتسمت سمية وهي تهوّن عليها:

«يا شيخة.. افتكرت فيه حاجة كبيرة.. كل الرجالة كده بتقلب في لحظة عادي.. هتتعودي».

ألقت ما في صدرها فجأة دون تفكير: «صالح بقى له ٦ شهور ملمسنيش».

تجمدت المرأتان وكل منهما تنظر للأخرى.. وفرت الكلمات من لسانيهما..

فقط النظرات متعلقة ببعضها وعيون يسرية مليئة بالدموع وعيون سمية مفتوحة لآخرهما من المفاجأة.

شعرت سمية بألم صديقتها.. فحاولت أن تبدو هادئة:

«مسألتيهوش عن السبب؟».

نظرت لها يسرية بدهشة وكأنها تتهمها بالجنون:

«أسأله؟!! أنا اتربيت على كل حاجة عيب ولا أقدر أتكلم في حاجة زي دي مع أيّ حد».

- «ده جوزك».

- «ولو.. إنتي عارفة إني مستغربة على يمنى ومعاملتها مع جوزها.. أنا فضلت سنين على ما أخدت على صالح وبطلت أتكسف منه واحنا مع بعض.. تقولي لي أسأله؟!».

- «سنين!! ليه؟».

- «معرفش.. يمكن علشان محبيتش قبله.. يمكن علشان أول ما اتجوزته مكنتش أعرفه كويس قبلها.. يمكن علشان اتربيت إن لو راجل شاف حتة مني أبو يا هيدبحني وأدخل النار.. بجد مش عارفة».

فكرت سمية قليلاً.. ثم قالت تنصح صديقتها وتطمئنها:

«متقلقيش.. مفيش حاجة مالهاش حل.. إحنا الأول نفكر في السبب.. ممكن جدًا يكون حس بملل أو ممكن يكون...».

صمتت مترددة.. فسألتها يسرية وهي تبحث عن نجاتها في كلمات صديقتها:

- «ممكن إيه؟».

- «يعرف واحدة تانية؟».

صمتت يسرية تفكر.. ثم قالت:

«مفتكرش.. مشفتش منه اللي يخليني أقلق».

- «مش شرط تكوني شُفتي.. فيه رجالة تقيلة متبيّنش».

- «والعمل؟».

- «أولاً هنعرف السبب ونحاول علاجه.. حتى لو على علاقة بواحدة تانية نفكر مع بعض إزّاي نطيّرها من طريقه.. أكيد مش هتسيبي جوزك لواحدة تانية».

اشتعل قلبها بالغيرة وهي تردد بألم:

«معقول يكون سايبني أتقهر كده وهو على علاقة بواحدة تانية وأنا مش حاسة؟».

- «مش أكيد يا يسرية.. إحنا بنفكر في كل الحلول.. إنتي عندك نت، مش كده؟».

- «آه.. ليه؟».

- «بصي يا ستي.. هنفترض إنها مرحلة ملل عادية يبقى ده محتاج تغيير منك ومساعدة إنك تجذبيه ليكي تاني».

تسمعها يسرية باهتمام وتركيز.. تكمل سمية:

«هتدخلي على منتديات السعادة الزوجية وتقرئي النصايح والمقالات اللي ممكن تفيدك.. وحاجة كمان بس مكلفة شوية».

رددت يسرية بسرعة:

«الفلوس الحمد لله موجودة.. المهم يرجع معايا زي الأول».

- «طيب يبقى تغيير في شكلك.. شعرك.. لينسز.. تغيير ستايل لبسك جوه وبره البيت.. يعني تشقلبي حالك وتبقي واحدة جديدة».

- «وأعرف منين إنه يعرف واحدة تانية أو لا؟».

- «دوّري في تليفونه.. فاجئيه في شغله.. هو مواعيده اتغيرت أو بيبات بره البيت كتير؟».

- «هو أصلاً من أول جوازنا وشغله مالوش مواعيد ودي حاجة اتعودت عليها».

- «خلاص يبقى زي ما قلت لك.. ولو فيه حاجة هتبان».

ارتسمت ابتسامة أمل على ملامح يسرية.. عانقت صديقتها بامتنان وهي تشكرها.. وعادتا معًا للمكتب.

❑❑❑

«نرحم، رغم قلة حيلتنا؛
عسى أن يُسخِّرَ اللهُ لنا من يرحم ضعفنا»

ابتسمت فاطمة عندما تسلل إلى سمعها صوت التليفزيون المفتوح في المطعم وسمعت صوت صباح تغني «أمورتي الحلوة».. خفق قلبها وهي تتذكر السنوات الماضية منذ طفولة نورا حتى الآن.. قلبها يدعو لها بالنجاح والستر وصلاح الحال..

- « كلمي يا أمّ علي».

التفتت لزميلها.. فرأته يشير برأسه عبر باب المطبخ للباب الخارجي للمطعم.. فرأت علي..

نهضت وهي تمسح يديها في ملابسها.. وخرجت مارة بالحاج عوض:

«بعد إذنك يا حاج».

هز الحاج عوض رأسه مجيبًا لها بعدما رأى علي يقف خارج باب المطعم ينتظر والدته.

«إيه يا حبيبي.. عايز حاجة؟».

- «جيت أقول لك إني هتأخر شوية بس متقلقيش».

- «أنت مش خلّصت دروسك.. واحنا في أيام مذاكرة هتروح فين؟».

- «هنتمشى أنا وأصحابي كده ونغير جو المذاكرة ده.. جيت أعرفك علشان متقلقيش لو اتأخرت».

- «طيب.. عايز فلوس؟».

سألته وهي تتمنى ألا يطلب منها.. فاقتراب نهاية العام تزداد مصروفات الدراسة عليها ومع ذلك لا تستطيع أن ترفض لأحد أولادها طلبًا.. أجابها علي مطمئنًا:

«لا شكرًا.. معايا مصروفي».

- «طيب.. هتيجي ع الغدا؟».

- «لا.. هناكل أيّ حاجة».

سمعا صوت ارتطام وصرخة فجأة.. والتفتا لمصدر الصوت.

❑❑❑

وصلت عزة للمطعم الذي وصفته لها زميلتها.. هي الآن أمامه.. لا يفصل بينهما إلا شارع واحد.. كادت تعبره حين رن هاتفها..

توقفت وهي تتمسك بابنها وتفتح حقيبتها لتُخرج الهاتف.. وجدت المتصل شقيقها.. تجمعت الدموع في عينيها وهي تتذكر قسوته عليها ورد زوجته عليها من قبل..

هل تذَكَّرها الآن.. وبعد الشهور المنقضية؟

دموعها تزيد وهي تتساءل:

كيف لهم أن يقسوا إلى هذا الحد من كانوا لنا مصدر الأمان والحب؟

هل ترد قسوته بقسوة وتتركه حائرًا ولا ترد عليه.. أم ترد وتصل ما انقطع من قبل؟

تشوُّش أفكارها جعلها لا تنظر أمامها وهي تخطو خطوة أخرى..

صدمتها سيارة عابرة.. صرخت حينما فقدت توازنها وهي تحمل ابنها خوفًا عليه وطار الهاتف من يدها بعيدًا.

لم تكن الصدمة قوية.. ولكنها مع سقوطها ارتطمت رأسها بحافة الرصيف.

على الجانب الآخر.. سمعتها ورأتها فاطمة وعليّ؛ فعبرا الشارع مع كثير من المارة، تجمعوا حولها.. أمسكت فاطمة بالطفل الذي يبكي بعد سقوطه من يد والدته التي تنزف بشدة.

ألم شديد برأس عزة.. تحاول النهوض لكنها لا تستطيع.

تخاف على ابنها أن يكون أصابه مكروه.

تهمس بصوت خافت ضعيف:

«ابني».

اقتربت منها فاطمة تطمئنها:

« كويس أهو متخافيش».

أصوات كثيرة حولها.. البعض يطلب الاتصال بالإسعاف.. وآخرون يطلبون نقلها بأيّ سيارة بسرعة لأقرب مستشفى.

نظرات عزة مركزة فقط على ابنها ودموعها تتساقط من عينيها..

تألمت فاطمة وهي تشعر بخوفها.. اقتربت منها:

«متخافيش، ابنك معايا أهو مش هسيبه إلا لمّا أديه لحد من أهلك».

ابتسمت عزة بمرارة وهي تهمس بصوت متقطع:

«مالوش غيري».

كلمات قليلة اخترقت قلب فاطمة.. تألمت على آلام المصابة والطفل الباكي بين يديها.

حملها بعض المارة وهم يضعونها في سيارة.. لم تعرف فاطمة كيف تتصرف وهي تحمل طفل المصابة ولا تستطيع تركه لها.

نظرت للحاج عوض الواقف وسط التجمهر.. ففهم نظرتها وهز رأسه سامحًا لها بمرافقتها.

قالت لـ«علي» بحسم:

«ارجع البيت لأختك».

- «آجي معاكي؟».

- «لأ.. لو اتأخرت متقلقوش عليّا يمكن أفضل معاها».

الوقت لا يترك لهما متسعًا للمناقشة.

ركبت فاطمة السيارة بجوار عزة والطفل بين يديها.. وألقى أحد المارة حقيبتها بجوارهما:

«شنطتها أهيه، كانت واقعة بعيد».

تحرك صاحب السيارة بسرعة في محاولة لإنقاذ المصابة.

عزة تقاوم.. تحاول رفع يديها لملامسة طفلها ولا تستطيع.

تطمئنها فاطمة:

«متخافيش هتبقي كويسة إن شاء الله».

قالت بدموعها وهي تنظر لابنها:

«ابني.. علي.. يتيم».

تألمت فاطمة ووجدت دموعها تنهمر وهي تضم الطفل:

علي.. نفس اسم ابنها.. يتيم كأولادها..

ضمته لصدرها أكثر وهي تطمئن عزة:

«متخافيش.. معاكي تليفون أتصل بحد من أهلك؟».

قالت عزة وهي تئن.. وبصوت متقطع تجاهد في خروجه:

«أرجوكي.. أهل أبوه لأ.. أخويا».

توقفت عزة عن الحديث.. حاولت فاطمة سؤالها:

«ها.. أخوكي فين؟ اتصل بيه إزّاي؟».

لم ترد عزة.. فقد فاضت روحها.. وابنها يبكي بين يدي فاطمة.

❑❑❑

صوت القرآن الكريم الصادر من الراديو في بيت فاطمة مع صوت بكاء علي ودموع وهمهات فاطمة هي الأصوات الوحيدة المسموعة في سكون الليل.

تبكي فاطمة الأمَّ الشابة التي توفيت على كتفها منذ ساعات..

تبكي الطفل اليتيم الذي يبكي بين يديها..

تبكي قسوة الزمن ومرار الأيام..

يزداد بكاء علي.. احتضنته فوجدته مبتلاً..

وضعته جوارها على الكنبة ونهضت تفتح حقيبة عزة باحثة عن قطعة أخرى من الحفّاض لتبدل القطعة التي امتلأت عن آخرها..

لكنها لم تجد.. تمتمت بصوت خفيض:

«أعمل إيه بس يا رب؟».

يزداد بكاء علي.. ذهبت إليه وبقلب موجوع حدثته:

«يا حبيبي يا ابني.. الدنيا جت عليك بدري أوي».

حملته وضمته لصدرها وقبّلته وظلت تهدهده.

«معلش يا ابني.. نصيبك كده».

مسحت دموعها وهي تبتسم:

«ترضع وتغيّر وهتنام».

ذهبت للبوتاجاز ووضعت مياهًا تغلي لإعداد كوب من الأعشاب لـ«علي».. أعدته في دقائق ثم أخذت الرضيع ودخلت للغرفة.

جلست على الأرض أمام الدولاب.. بعد أن وضعت علي في حجرها وظلت تبحث بين طيات الملابس المرصوصة.

في الخارج.. في سطح البيت تجلس نورا مع علي على الطاولة الصغيرة وكل منهما أمامه كتاب مغلق.

قطعت نورا الصمت المُطبق بينهما منذ فترة ليست بقليلة:

«وبعدين.. هيّ ماما عاملة عزا للست اللي منعرفهاش؟».

تنهد علي وقال بحنان:

«متستهونيش باللي ماما شافته النهارده.. الست كان شكلها صعب أوي وهي واقعة ع الأرض بتنزف وعينيها على ابنها.. وبعدين ماتت وهي جنب ماما قبل ما يوصلوا المستشفى.. ودخلت ماما بعدها في إجراءات تصريح دفن وتحقيق عن الحادث واستلمت الولد على مسئوليتها وحوار طويل».

- «اشمعنى ماما اللي تروح معاها؟».

- «علشان ماما قلبها طيب وحنين».

- «افرض كانوا اتهموها بحاجة ولّا وقعت في مشكلة؟».

- «ربنا سهل كل الإجراءات وتصريح الدفن طلع والحاج عوض دفنها في مقابرهم.. كل حاجة كانت ماشية بسرعة».

قالت نورا بضيق:

«صوته موترني يا علي.. من ساعة ما رجعوا وهو بيعيّط.. أنا مش عارفة أركز في المذاكرة من ساعة ما جه».

- «اصبري بس لمّا ماما تفوق من اللي حصل النهارده ونشوف هتعمل إيه فيه».

نهضت نورا:

«تعالى نشوفها ونحاول نهدّيها شوية.. اللي ماتت دي مش من بقية عيلتنا علشان تفضل تعيّط عليها من ساعة ما رجعت».

تبعها علي.. دخلا الشقة فلم يجدا فاطمة في الصالة.. سمعا صوت علي الصغير في الغرفة فدخلا لوالدتهما.

وجدا فاطمة ممسكة بمقص وملاءة قديمة تقطعها لأجزاء..

سألها علي: «بتعملي إيه ياماما؟».

فاطمة: «ملقيتش غيار أغيّر له فبقطّع ملاية قديمة أعملها له كوافيل ولِفف ألفه بيها لحد ما أجيب له بناطيل».

نورا: «وبعدين؟».

نظر لها علي معاتبًا.. ولم تنتبه فاطمة لمقصدها فأجابت على ما فهمته:

«ولا قبلين.. لمّا يغيّر ويرضع هيهدا وينام إن شاء الله».

نهضت فاطمة.. أخذت علي الصغير معها.. غيرت له، ثم جلست في الصالة وتحسست كوب الأعشاب وأسقطت بضع قطرات على ظهر كفها لتختبر حرارته.. وجدته دافئًا؛ فبدأت إرضاع علي الأعشاب بالملعقة.

بلهفة.. تناول الرضيع الكوب إلا قليلاً وغفا بين يديها..

حملته بهدوء ووضعته في مكانها وقالت لـ«نورا»:

«هينام مكاني وأنا هفرش على الأرض جنبكم».

تدخل علي فورًا:

«لا متناميش ع الأرض.. نامي مكاني وهنام أنا ع الأرض».

قالت فاطمة بحسم:

«لأ.. كل واحد هينام في مكانه».

تلك الليلة.. ورغم التعب والآلام النفسية التي تعرضت لها فاطمة ورغبتها المُلحة في النوم.. لم تنم وظلت تتقلب وعينيها على علي الصغير وتفكر..

كيف ستتصرف مع هذا الملاك.. كيف الوصول إلى أهله؟

حقيبة والدته بحوزتها.. بها مظروف به اسمه كاملاً في شهادة ميلاده وقسيمة زواج والديه وشهادة وفاة والده وأضيفت أيضًا شهادة وفاة والدته.

هل تذهب للعنوان المكتوب في شهادة ميلاده.. قرية بعيدة مجهولة في الصعيد؟

أن أرادت أن تذهب لسألت وذهبت، ولكن وصية المتوفّاة واجبة.. أكدت عليها ألا تعطيه لأهل والده.

ماذا ستفعل.. هل تسلّمه لدار رعاية كما أُخبروها؟

لا.. فقد طمأنت والدته أنه معها.

«أعمل إيه.. يا رب دبرني».

ظلت فاطمة تبتهل إلى الله أن يلهمها الصواب.. حتى نامت.

❑❑❑

قبل موعد استيقاظها بنصف ساعة استيقظت فاطمة على بكاء علي وتحركه على السرير.. نهضت مسرعة وأخذته بين يديها قبل أن يستيقظ علي (الكبير) ونورا.. وقبل أن يسقط ضمته وقبّلته وأخذته خارج غرفة نوم أولادها.. بدّلت ملابسه بغيار آخر نظيف ثم نظرت لكومة الغيارات المتسخة في الليلة الأولى..

فكرت ماذا ستطعمه.. ثم أعدت له كوبًا صغيرًا من المهلبية..

تتصرف بِناءً على خبرة سابقة قديمة كادت تنساها.. وفي أضيق الظروف.. فلا ملابس معه ولا استطاعت أن تسأل والدته عمّا يأكله ولا يأكله.. وهل يعتمد على لبن محدد أم يكتفي بالرضاعة الطبيعية.

تألمت وهي ترق لحاله..

١٠ شهور في عمر الصغير وقبل أن يدرك حُكِمَ عليه بالحرمان من والديه..

تُرى.. ماذا حدث ليلفظه أهل والده أيضًا؟

ينتابها الفضول ولكن وعْدَها لوالدته أقوى من فضولها..

انتهت من إطعامه.. وضعته على الأرض وأحاطته ببعض المساند ثم بدأت روتينها اليومي من تنظيف وإعداد الطعام وهي تتفقد علي بين الحين والآخر.. غسلت ملابس علي ونشرتها في السطح..

استيقظ علي.. ألقى نظرة على علي الصغير الجالس يلعب ببعض الأطباق البلاستيكية التي وضعتها فاطمة بين يديه..

جلس على الكنبة وهو يتأمله.. رأته فاطمة..

«صحيت يا علي؟».

انتبه الصغير على صوتها.. فابتسم علي وهو يقول لوالدته:

«تصدقي عارف اسمه.. بص لك أول ما قُلتي يا علي».

ابتسمت فاطمة وهي تنظر له:

«يا حبيبي...».

اقتربت وهي تجلس بالقرب من ابنها وتنظر للصغير:

«عارف يا علي أول ما مامته قالت اسمه، قلبي اتهز من جوّه.. معرفش ليه ساعتها جيت على بالي إنتَ وأختك وأنا بفكر لو كنت أنا مكانها هتعملوا إيه لوحدكم!!».

جذب علي يدها وقبَّلها وهو يقاطعها:

«متقوليش كده ربنا يخليكي لينا».

- «يا حبيبي.. محدش ضامن عمره.. أنا بس بدعي ربنا يديني العمر لحد ما كل واحد فيكم يعتمد على نفسه».

ثم انحنت تحمل علي الصغير بين يديها:

«صعبان عليّا يا علي».

أراد علي أن يزيح الحزن عن قلب والدته فقال مازحًا:

«علي مين؟ أنا ولّا هو؟».

- «آه صحيح.. انتوا الاتنين علي».

صمتت قليلاً ثم أكملت:

«خلاص.. هو رزق وانت علي».

- «ماشي كلامك».

- «يلّلا قوم لو هتدخل الحمام متعطلنيش أكتر من كده».

نهض علي للحمّام.. انحنت فاطمة، وضعت «رزق» على الأرض ثم اتجهت للغرفة.. جلست بجوار نورا:

«نورا.. نورا..».

ردت نورا دون أن تفيق:

«اممم».

- «قومي.. عايزة أقول لك حاجة».

فتحت نورا عينيها بصعوبة وهي تسأل فاطمة:

«هاا».

- «عندك درس بدري النهارده؟».

- «آه.. واحد الساعة ٤».

- «طيب هسيب رزق معاكي وأشوف مواعيد أخوكي..».

قاطعتها نورا وهي تهب جالسة:

«رزق مين؟ الواد الصغير؟».

- «أيوه».

- «لا طبعًا، أخاف».

- «تخافي من إيه.. هعلّمك تغيّري له إزّاي وأقول لك تأكّليه إيه لحد ما آجي».

- «لا، لا، لا.. وكمان ورايا مذاكرة.. ماما.. إنتي ناسية إن الامتحانات الأسبوع الجاي؟».

صمتت فاطمة محبطة، ثم قالت:

«لأ، منسيتش.. خلاص هتصرف».

نهضت فاطمة محبطة تفكر وعادت نورا لتكمل نومها.

يبدو أن الأيادي الممدودة بالمساعدة نادرة.. حتى من أقرب الناس.

❑❑❑

قبل موعدها ذهبت فاطمة للمطعم تحمل علي على كتفها.. لم تجد سوى عامل النظافة فسألها:

«مين ده يا أمّ علي؟».

- «ده رزق.. ابن الست اللي عملت حادثة قُدّام المطعم إمبارح».

- «وجايباه معاكي ليه؟».

ردت، وهي تعيد ترتيب ركن نظيب بعيدًا عن المواقد المشتعلة طوال اليوم وتحيطه ببعض المقاعد:

«ملقيتش حد يقعد بيه».

ساعدها عامل النظافة وأحضر لها كراتين لفرشها على الأرض:

«مش قصدي.. أنا أقصد إنتي أخدتيه ليه؟ مالوش أهل؟».

ردت بألم وهي تنظر للصغير:

«مالوش.. يتيم أب وأم».

- «وأبوه وأمه مالهمش أهل؟».

- «أمه وصّتني قبل ما تموت إني مودّيهوش لأهل أبوه.. وملحقِتش تقول لي مكان أهلها».

- «عيّل صغير زي ده مسئولية كبيرة أوي عليكي».

تنهدت وهي تجيبه بيقين:

«ربنا المُعين».

- «ونِعْمَ بالله».

انتهت من وضع رزق في مكانه الجديد.. ركن آمن يلهو به ثم بدأت في عملها.

قبل الظهيرة، عندما أتى الحاج عوض للمطعم سمع صوت بكاء الصغير آتيًا من المطبخ.. فذهب مستطلعًا مصدر الصوت ليجد رزق يبكي وفاطمة جالسة أمامه على الأرض تغيّر له.

عندما انتبهت لوقوف الحاج عوض على باب المطبخ، قالت:

«آسفة يا حاج إني جبته معايا».

قاطعها وهو يتجه خارجًا:

«لما تفضي تعالي لي».

نظرت حولها لتجد نظرات زملائها معلقة عليها.. لحظات ثم نظر كل منهم لعمله.

نهضت وقلبها يرتجف.. ماذا ستفعل إن أخبرها ألّا تأتي به مرة أخرى؟

هل تخبره أنه لن يؤثر في عملها ولن تقصر بسببه؟

هل ترجوه أن يسمح لها باصطحابه؟

هل تصمت وتبحث عن بديل.. لكن من أين لها البدائل؟!

فوضت أمرها لله وذهبت منكسة الرأس ووقفت أمام الحاج عوض..

بدأت حديثها:

«معلش يا حاج.. والله ما كان قدّامي حل تاني غير إني أجيبه معايا».

سألها باهتمام:

«اتصرفتي إزاي من إمبارح؟».

فوجئت بسؤاله.. فأجابت:

«الواد بيصرخ من إمبارح كأنه حاسس باللي حصل.. بيدوّر على حضن أمه مش لاقيه.. فِضِل على ده الحال لحد ما تعب ونام بالليل».

- «مش كان أحسن لو كنتي سمعتي كلام الضابط وسلمتيه للحكومة».

ردت بتأثر:

«صِعِب عليّا.. مقدرتش أسيبه يتبهدل في ملاجئ وهو لسه حتة لحمة حمرا كده.. حسيت بمسئولية ناحيته معرفش إزّاي يمكن علشان طمّنت أمه وهي بتموت إنه معايا.. والله يا حاج ما عارفة أقول إيه بس اللي حسيته ناحيته من ساعة ما خدته في حضني إنه دخل قلبي».

صمت الحاج عوض.. فقالت فاطمة برجاء:

«معلش يا حاج إني جبته من غير ما أستأذن الأول بس الصبح مكانش ينفع أخبّط عليكم وأنا نازلة.. العيال عندهم امتحانات وبيروحوا دروس ومعرفتش أسيبه فين».

أشار لها الحاج عوض آذنًا لها بالانصراف:

«خلاص يا أمّ علي.. روحي كمّلي شغلك.. ربنا يعينك على مسئوليته».

نهضت وهي تتمتم بكلمات الشكر والدعاء له.

فاستوقفها:

«لو مقدرتيش على مسئوليته سلميه للحكومة يا أم علي.. إنتي ظروفك مش مستحملة مسئولية زيادة وما يقدر على القدرة إلا ربنا».

ردت قبل أن تعود للمطبخ:

«أنا استعنت بالله وقادر يعينني».

مضت إلى المطبخ تاركة في نفس الحاج عوض إعجابًا بإيمانها وشخصيتها وكفاحها.. إعجاب واحترام يزيد كلما مر الوقت.

دقائق قليلة... ثم دخلت للمطعم سيدة ممتلئة القوام ترتدي عباءة سوداء، وسألت:

«لو سمحت.. فيه واحدة بتشتغل هنا اسمها فاطمة؟».

❑❑❑

في الأيام الأولى من دخول رزق منزل فاطمة.. كان كثير البكاء قليل النوم وكأنه يشعر بفقدانه لوالدته.. ومع اقتراب الامتحانات ازداد توتر نورا ورفضها الداخلي لوجوده مع عدم قدرتها على مواجهة والدتها برغبتها في تسليمه لدار رعاية.

أمّا علي فكان واقفًا في منطقة وسطى لا يستطيع منها إدراك ما يريد.. فكلما ازداد بكاء رزق وألقت نورا في مسامعه عبارات استيائها كان يشعر بأن الدخيل عليهم قد يكون سببًا في تأثرهم دراسيًا.. وكلما نظر للصغير ولمس أنامله الرقيقة وتذكر والدته الملقاة على الأرض وقت الحادث يرق قلبه ويحذو حذو والدته.

بدأ رزق التعود على فاطمة والتعلق بها.. وعوَّدته أيضًا على لبن صناعي بجانب بعض الأطعمة البسيطة التي يتناولها.

توقفت نورا فجأة أمام فاطمة وهي تطعم رزق.. وقالت بتردد:

«بكرة أول يوم امتحان».

رفعت فاطمة عينيها لنورا وردت:

«ما أنا عارفة.. ربنا ينجحك إنتي وأخوكي».

جلست نورا بجوارها وقالت بتوسل:

«نفسي في بلوزة جديدة أروح بيها».

صمتت فاطمة تفكر وشعور بالضيق يجثم على صدرها:

«مصاريف دراستكم آخر شهر ده قطمت وسطي.. خليها بعد الامتحانات أول قبض مفيهوش فلوس دروس هجيب لك اللي إنتي عايزاه».

قالت نورا بضيق:

«هتكون الامتحانات خلصت.. أنا نفسي أفرح.. ولّا مش مكتوب لي أفرح ولو بحاجة بسيطة؟».

- «يا بنتي يا حبيبتي.. لو عليّا عايزة أجيب لك نجمة م السما.. بس ما باليد حيلة».

قالت نورا بثبات:

«تقدري يا ماما بس إنتي اللي مش عايزة».

تعجبت فاطمة وسألت نورا:

«ليه.. هستخسر فيكي؟ وانا كل شقايا بيروح لمين؟».

- «وانا عمري ما طلبت حاجة فوق طاقتك.. بس إنتي دلوقتي معاكي فلوس.. مش عايزة تجيبي لي بلوزة».

- «فلوس منين؟».

- «فلوس رزق».

قالتها نورا ونهضت غاضبة تاركة فاطمة في اندهاشها..

هل ما سمعته من ابنتها حقيقي.. هل تطلب منها ابنتها أن تأخذ مال اليتيم؟!

ليتها ما حكت عن تلك المقابلة.. حينما ناداها الحاج عوض في اليوم التالي للحادث وأخبرها أن هناك من يسأل عليها فوجدت سيدة تراها لأول مرة.. بادرتها قائلة:

«أنا صاحبة المشغل اللي كانت بتشتغل فيه عزة الله يرحمها.. عزة كانت جاية المطعم هنا تجيب الغدا للبنات في المشغل.. لمّا مرجعتش أنا شكيت إنها خدت الألف جنيه حق الأكل وهربت.. استنيت وقلت يمكن تظهر مرجعتش.. من شوية رحت أعمل فيها بلاغ سرقة في القسم ومن بياناتها قالوا لي إنها ماتت في حادثة إمبارح.. وسألت على علي بلغوني إنك أخدتيه».

أكدت فاطمة على حديثها وقالت:

«مظبوط.. وفعلاً كان فيه ١١٥٠ جنيه في شنطة عزة.. جبت منهم بـ٢٠٠ جنيه هدوم لعلي والباقي هجيبهوملك حالاً.. بس تقدري تدليني على أخو عزة؟».

أجابتها سامية:

«للأسف معرفش عنه حاجة غير إنه من إسكندرية وكان مقاطع أخته».

- «متعرفيش حد خالص من أهل الولد؟».

- « كل اللي أعرفه إن عزة جت لي تشتغل وقعدت معانا كام شهر، لا ليها حد ولا حد بيسأل عليها.. يعني ابنها ربنا يتولاه».

رددت فاطمة بحزن على الصغير:

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

استأذنت فاطمة من سامية:

«هروح أجيب لك الـ٩٥٠ جنيه اللي اتبقوا.. والباقي لو بس تقدري تستني عليّا لحد ما أقبض».

قاطعتها سامية:

«متجيبيش حاجة.. إنتي كتر خيرك إنك هتتحملي مسئوليته.. خلي الفلوس مني لعلي.. ربنا يعينك عليه وخلي بالك منه.. الولد قَدَمُه كانت خير من يوم ما جه عندي المشغل والشغل زاد.. وكان الكل بيحبه هو وعزة الله يرحمها».

رددت فاطمة بتأثر: «الله يرحمها».

عادت فاطمة يومها تحكي عن المقابلة لأولادها بصفاء نيّة.. وقد استأمنت نفسها على نقود رزق.. تشتري منها ما يلزمه هو فقط.

قطع تفكيرها دخول علي فجأة.. وارتمى عليها يقبّلها من جبينها وبصوت مليء بالفرحة:

«ماما حبيبتي.. ادعي لي».

- «ربنا ينجّحك أنت وأختك.. شكلك فرحان.. تكونش عرفت الامتحان؟».

رد ضاحكًا وهو يجلس جوارها و يلوح لـ«رزق» بمفتاحه يلاعبه:

«لا طبعًا.. حاجة أهم».

«خير.. يا رب».

التفت لـ«فاطمة» يحكي لها: «المستر بتاعنا النهارده في الدرس قال إن فيه قرية سياحية

هتفتح قريب في شرم الشيخ وفيه وظايف خالية كتير والتقديم في فندق هنا.. رُحت أنا وأصحابي عملنا (سيفيهات) وقدمناها وقالوا إنهم محتاجين ناس كتير.. ادعي لي ربنا يجعل لي نصيب في الشغلانة دي».

ربتت فاطمة على ركبتيه وهي تضم رزق:

«ربنا ينجح لك المقاصد ويوسع رزقك».

لاحظ علي وقوف نورا ما بين الغرفة والصالة.. فقال لها:

«إيه واقفة كده ليه؟.. طيب ادعي لي دعوة حلوة».

قالت بتهكم:

« كفاية دعوات ماما ليك.. واهتمامها برزق وطلباته.. ربنا يخليكم لها».

وخرجت بصوت مختنق.. مال علي للأمام يتابعها بعينيه فوجدها ذهبت ووقفت في السطح بعيدًا.. فسأل والدته:

«مالها؟».

أجابت فاطمة وكأنها تستغيث بـ«علي»:

«نفسها في بلوزة تروح بيها الامتحان ولمّا قُلت لها لمّا أقبض زعلت زي ما انتَ شايف كده.. تصدق عايزاني أجيب لها من فلوس رزق؟».

صمت علي قليلاً ثم قال:

«وإيه المشكلة طيب يا ماما؟».

اتسعت عينا فاطمة وهي تسأله باستنكار:

«أمد إيدي على مال اليتيم؟».

فقال علي محاولاً الوصول لحل وسط:

«إنتي مش هتسرقيه.. انتي هتاخدي فلوس البلوزة ولمّا تقبضي تحطيهم له تاني.. كأنك استلفتي الفلوس».

صمتت فاطمة تفكر.. فأكمل علي:

«مفيهاش حاجة.. هاا!.. ماشي؟».

هزت فاطمة رأسها وأجابت بصوت متردد:

«ماشي».

نهض علي متجهًا لـ«نورا»: «هروح أفرّحها».

وقف علي بجوار نورا وسألها:

«خلصتي مذاكرة؟».

- «خِلصت.. أنا خلاص زهقت من المذاكرة».

- «هانت كلها كام يوم».

- «يا رب بقى».

«بصي أنا مخلصتش ولسه ورايا مذاكرة.. فلو هنخلص مشوارنا في ساعة يلّلا بينا.. هتفضلي تلفي يبقى خلينا».

سألته بعدم فهم:

«مشوار إيه؟».

- «البلوزة اللي عايزة تجيبيها».

نظرت نورا في اتجاه باب شقتهم.. وهي تتأكد:

«بس ماما مش...».

قاطعها علي: «وافقت.. هاا!.. يلّلا ولّا نخليها بكرة؟».

قفزت نورا بفرح وحماس:

«بكرة إيه؟.. حالاً هكون جاهزة».

ركضت نورا لتبدل ملابسها.. بمجرد دخولها عانقت والدتها وقبّلتها:

«شكرًا يا ماما».

تبعها علي وجلس بجوار والدته وهو ينظر لها بارتياح..

شعرت به فاطمة ودعت له:

«ربنا يراضيك يا حبيبي ويحنن قلبك على اخواتك».

وأوضحت فاطمة بعدما لاحظت تعجب علي:

«نورا ورزق».

❑❑❑

استيقظت نورا أول يوم امتحانات مبكرًا.. في السابعة والنصف كانت مستعدة تمامًا للخروج.. ارتدت بلوزتها الجديدة مع جيب أسود وتركت شعرها منسدلاً على ظهرها..

سألتها فاطمة: «إنتي نازلة بدري كده؟».

أجابتها «آه.. متفقة مع صحابي نروح نراجع شوية قبل الامتحان».

رددت فاطمة دعواتها لها ولـ«علي».. وأخذت نورا حقيبتها وخرجت.

على السلم، وقبل أن تصل للشارع، توقفت وأخرجت من حقيبتها أحمر شفاه صبغت به شفتيها ووضعت قليلاً منه على وجنتيها ووزعته بيدها.. ثم أخرجت قلم كحل حددت به عينيها ثم نظرت في مرآتها الصغيرة نظرات رضا وسعادة..

أعادت مرة أخرى أدواتها لحقيبتها، ثم فتحت الزر الأعلى للبلوزة، وثنت طرف الجيب ليقصر قليلاً.. ثم نزلت ومشيت من جوار الجدار ومع أول منعطف استدارت للشارع الخلفي وسارت من طريق آخر حتى استقلت «ميكروباص» يوصلها لوجهتها.

جلست نورا مع فاروق في مطعم قريب من لجنة الامتحان يتناولان إفطارهما من الفول والطعمية..

اختار فاروق الدور العلوي للمطعم لأنه أكثر هدوءًا.. اختار طاولة على أحد جوانب المكان..

جلست نورا بجوار الحائط.. وجلس جوارها..

يسكب دائمًا في أُذنها عبارات الحب والغزل والاهتمام.. يجعلها من فرط السعادة تكاد تذوب هيامًا..

يبدأ دائمًا بالكلمات.. لكنه دائمًا يصل لأبعد منها قليلاً..

لم يعد يكتفِ بالقُبلات المسروقة.. واليوم أتيحت له الفرصة أن تمتد يده لملامسة جسدها لمسات خاطفة في هدوء ودون أن يراهما أحد.

تنهره بضعف.. يعلم تمامًا أنها تشتاق لتجربة ما يملأ به أُذنها.. يستمر في العبث بجسدها ويراقب استسلامها باستمتاع يزيد رغبته فيها.

سمعا أصواتًا مختلطة لروّاد آخرين صعدوا لتناول إفطارهم..

نظر فاروق للساعة وهو ينهض:

«يلّلا.. الساعة ٨ ونص».

نهضت تتبعه وهي تشعر أن ملابسها غير مهندمة وأن الجميع ينظر لها.. فاستوقفته وهمست له:

«عايزة أروح الحمّام».

- «طيب.. هنزل أحاسب وحصليني».

افترقا بجوار المطعم على وعد بلقاء بعد يومين في نفس الموعد والمكان.

ذهبت نورا للامتحان مشتتة التركيز.. تستجمع ما ذاكرته من قبل بصعوبة.. يحتل فاروق الجزء الأكبر من تفكيرها.. فما زالت تحت تأثير لقائه ككل مرة يلتقيان فيها.

بعد الانتهاء من الامتحان عادت نورا لمنزلها.. أثناء صعودها السلم وجدت باب شقة الحاج عوض مفتوحًا.. لم تنظر للداخل وأكملت طريقها.. فسمعت صوتًا يناديها بعد أن صعدت أول درجتين:

«نورا.. يا نورااا...».

نزلت مرة أخرى وهي تلبي النداء:

«أيوه؟».

وجدت كريمة تسألها:

«إزيّك يا نورا؟».

- «الحمد لله.. كويسة».

- «عملتي إيه في الامتحان؟».

- «الحمد لله».

أفسحت كريمة طريقًا وهي تشير لـ«نورا» بالدخول:

«طيب ادخلي اتصلي بمامتك وطمّنيها لأحسن اتصلت من ٥ دقايق قلقانة.. وناديناعليكم محدش موجود».

دخلت نورا.. لاحظت وجود رجل لم تَرَه من قبل يتجول في المنزل بصحبة زوجة الحاج.. لم تُعِرهما انتباهًا واتصلت بوالدتها من التليفون الأرضي الموجود في الصالة.. وانضمت كريمة لوالدتها والرجل الآخر.

مكالمة قصيرة طمأنت بها فاطمة، وبعدما أنهت نورا المكالمة.

سمعت صوت الحاجة أمينة تتحدث للرجل:

«أنت بتستغل يعني إننا عايزين نبيع العفش وبتنزّل بتمنه الأرض.. لولا إننا هنجيب عفش جديد للعروسة مكناش فرطنا في القديم.. ده خشب...».

لم تنتبه نورا لبقيّة الحديث.. فكل انتباهها تركز حول كلمة «عروسة»، و«عفش للعروسة»..

مَن تقصد؟.. هل تقصد كريمة؟.. ومن غيرها ستكون؟

تلكأت قليلاً.. ورأت الرجل يغادر والحاجة أمينة تعود للمطبخ.. تريد نورا أن تتأكد قبل أن تغادر هي الأخرى.

فتوجهت لـ«كريمة»:

«شكرًا يا أبلة كريمة على التليفون».

ردت كريمة بكرم وود:

«على إيه بس.. ربنا ينجحك إنتي وعلي».

- «شكرًا».

وصمتت قليلاً.. ثم أكملت:

«هو فرحك قرّب؟».

ردت كريمة بسعادة:

«آه.. قرب أوي.. عقبالك».

- «بجد؟».

لاحظت نورا أن سؤالها في غير محله.. فاستدركت:

«هتوحشينا لمّا تمشي».

- «لا، ما أنا مش همشي.. أنا هتجوز هنا.. هنوضب البيت وأتجوز على طول».

- «مبروك».

- «عقبالك».

ردت نورا سريعًا وهي تتغلب على دموعها قبل أن تفضحها:

«شكرًا.. سلام».

خرجت من الشقة وصعدت السلالم ركضًا.. دخلت بيتها وجلست تبكي.

هل سيتزوج فاروق من كريمة فعلاً؟

كيف يحبها ويتزوج من أخرى؟

أين كلماته عن أنها الوحيدة التي أحبها؟

هل يمكن للرجل أن يحب واحدة ويتزوج أخرى؟ أم أنه يستطيع أن يحب اثنتين؟

كيف يمكنه هذا.. كيف يمكنها هي أن تتحمل ذاك العذاب؟

دموعها لا تتوقف.. حتى سمعت صوت الباب يفتح و يدخل علي.

وجدها غارقة في دموعها.. فسألها بلهفة:

«إيه مالك.. الامتحان كان وحش ولا إيه؟».

صمتت شاردة.. ثم نهضت تسأل علي:

«معاك ٣ جنيه؟».

تعجب علي من شقيقته التي لم تُجِبه بعد وتسأله.. فأعاد سؤاله:

«قولي لي الأول مالك؟».

- «نسيت ملزمة مع صاحبتي وعندي فيها امتحان بكره».

- «هو ده اللي معيّطك كده؟».

- «قلقانة شوية يا علي وخايفة من الامتحان.. معاك فلوس أروح أجيب الملزمة ولا هستنى ماما يكون اليوم خلص؟».

أخرج علي من جيبه ٥ جنيهات:

«خدي يا نورا.. وشكرًا يا ستي إنك سألتي على امتحاني».

أخذت نورا النقود وقالت وهي ترتدي حذاءها بعدم اهتمام:

«آه صحيح.. عملت إيه؟».

- «الحمد لله حليت كويس».

اتجهت نورا خارجة وهي تقول:

«لو اتأخرت شوية متقلقش.. بيت صاحبتي بعيد».

ذهبت مسرعة لأقرب محل به هاتف واتصلت بفاروق.. بمجرد أن سمعت صوته بكت وهي تسأله:

«إنتَ فين؟».

أجابها بقلق:

«مالك؟».

- «عايزة أشوفك حالاً».

سألها راغبًا في مزيد من التوضيح:

«بتعيّطي كده ليه؟ حد عندك عرف حاجة؟».

- «لا.. عايزة أشوفك ضروري».

تشهق من بكائها وهي ترجوه.. فأجابها:

«ماشي.. هنزل لك حالاً».

وصف لها فاروق مكانًا قريبًا من بيته.. تقابلا هناك.

يبدو على وجهها الشحوب والحزن على عكس ما بدت صباحًا.. منذ ساعات.. سألها وهو يمسك يدها ويربت على كتفها:

«مالك يا حبيبتي.. محليتيش كويس؟».

فاجأته بالسؤال وعيناها ممتلئة بالدموع:

«إنتَ صحيح هتتجوز كريمة قريب؟».

صمت بعدما نكس رأسه.. فبكت نورا أكثر وهي تسأله:

«إنتَ مش قُلت مبتحبهاش؟».

- «أيوه.. أنا بَحبك انتي».

- «بتحبني أنا وهتتجوزها هي إزّاي؟».

- «غَصْب عني.. أنا اتورطت في الجوازة دي».

- «مفيش راجل بيتجوز غصب عنه».

- «لأ.. فيه.. أنا».

ظلت تبكي بحرقة.. يسيطر عليها القهر والغيرة والصدمة..

مسح دموعها وهو يضغط على يدها:

«لمّا خطبتها مكنتش أعرف إني هشوفك وأحبك.. بعدها كل ما آجي أتلكك علشان أسيبها مش لاقي سبب.. وكمان لقيت أهلها بيورطوني وبيحضّروا كل حاجة للجواز عندهم.. مش عارف أقول لهم إيه.. إنتي عرفتي منين؟».

- «منها.. هي قالت لي».

سألها بقلق:

«وهي قالت لك انتي بالذات ليه؟ تفتكري حاسّة بحاجة؟».

- «الكلام جه بالصدفة.. يعني لو مكنتش عرفت كنت هتسيبني اتفاجئ بإنك اتجوزتها؟».

أكمل بتأثر: «لأ طبعًا.. كنت ناوي أقول لك آخر يوم امتحانات.. خُفت عليكي تزعلي ومتعرفيش تركزي في مذاكرتك».

تسمعه وتحتار أكثر.. يحبها ويخاف عليها ويهتم لأمرها.. ويستعد للزواج من أخرى!!

عقلها يرفض استيعاب ما يؤكده لها.. وقلبها كعادته معه يصدقه ويسلمها لسيطرته.

ضائعة بين قلب عاشق وعقل غاضب.. تائهة بين أمل بعيد وخوف من غد قريب.

كلاعب ماهر يعرف كيف ومتى يسدد هدفه.. طمأنها:

«اوعي تفتكري جوازي منها هيغير حبي ليكي.. ده مجرد خطوة هتقربني منك.. متخافيش أبدًا، انتي الحب الوحيد في حياتي وفي أول فرصة هقدر إننا نبعد ونتجوز، هاخدك بعيد ونكمل حياتنا مع بعض».

نظرت له وعيناها مليئة بتساؤلات عن مستقبل يرسمه وحده..

أجاب قبل أن تسأله:

«هعمل كل اللي يسعدك.. ثقي فيّا.. بس محتاج وقت».

سكنت وهدأت بعدما أكد لها الحب ولوّح لها بالأمان.

أخذ بيدها وعبرا الشارع.. وأشار لـ«ميكروباص»:

«يلّلا يا حبيبتي.. ارجعي البيت واستعدي لامتحان بكره واطمّني خالص».

صعدت نورا للميكروباص.. ظلت نظراتها معلقة به وهو يغلق الباب خلفها.. لوّح لها مبتسمًا والميكروباص يتحرك.. رفعت يدها وأشارت له بابتسامة حزينة وقلب مكسور.



«أحلام تُذبَح بسكين الغدر.. فتصير ردود الفعل حلاوة روح»

بيت فاطمة، الهادئ الساكن، ازداد صخبًا بوجود رزق..

علي ونورا يستذكران أيام الامتحانات وسط ضجيج توضيب شقة الحاج عوض.

يحتمل علي ويزيد تركيزه وتزداد نورا توترًا وضياعًا بين الغيرة والاستسلام.

تحتمل فاطمة المسئولية الزائدة برضا تام... أصبحت ساعات نومها قليلة وأوقات راحتها نادرة.. وانتهت الامتحانات تزامنًا مع اقتراب نفاد نقود رزق.

بعدما أنفقته فاطمة في ملابس ولبن صناعي وغيرها..

وتمضي الأيام حاملة في طيّاتها الأمل والألم.

استقبلت فاطمة الإجازة بفرحة وأمل أن أيام الشقاء انقضت للأبد..

سيبدأ علي في شق طريقه والبحث عن عمل.. ستساعدها نورا في تحمّل مسئولية رزق على الأقل في وقت عملها..

لكن.. ذهبت آمالها أدراج الرياح وما من شيء تغير.

رحلة البحث عن عمل تتطلب مصروفات يومية تدفعها فاطمة لـ«علي»..

ونورا ترفض تحمّل مسئولية رزق وتتحجج بأنها لا تستطيع التعامل معه.

ارتضت فاطمة بالأمر الواقع... وارتضت نورا أيضًا بتصديق فاروق وانتظار وعوده لها.

جاء اليوم الذي انتظرته فاطمة طويلاً.. يوم نتيجة امتحانات آخر سنة دراسية لأولادها.. اليوم الذي انتظرته سنوات..

اليوم.. المحطة الأخيرة في الطريق الصعب الذي سلكته بإرادتها متحدية الفقر والاحتياج.. اليوم يتخرج ابناها.

منذ ذهابها للعمل وعيناها على باب المطعم وأُذنها مع كل رنة للهاتف.. ويداها في عملها مع مراعاة رزق.

تعمل بعقل شارد.. ولسان يُلِحّ بالدعاء.

عندما سمعت أذان الظهر ولم يصلها أيّ خبر بعد.. لم تستطع صبرًا وذهبت للحاج عوض تطلب منه إجراء اتصال بالمنزل لتطمئن على أولادها.

فجاءها رد الحاج عوض مفاجئًا:

«مفيش حد في البيت يا أمّ علي.. عقبال فرحتك بنورا.. راحوا يشوفوا عفش كريمة».

باركت له فاطمة وهي تدعو الله أن يتمم لها بخير.

عادت مرة أخرى لعملها في المطعم.. ومتابعة رزق من آن إلى آخر.

❒❒❒

في الطريق إلى المدرسة ونورا تفكر.. كيف ستتخلص من علي الذي صمم على مرافقتها لمدرستها ليطمئن على نتيجتها قبل أن يطمئن على نتيجته؟

منذ آخر يوم امتحانات ولم تلتقِ بـ«فاروق».. فقط مكالمات قليلة سريعة تُجريها من الشارع أثناء تحججها بشراء أيّ شيء لا يلزمها فعليًّا.

حث علي الخطى وهو يمسك يدها ويطمئنها:

«هانت يا نورا.. خلاص هنرتاح».

دخلا المدرسة معًا وعندما وصلا للفناء، بحثا عن النتيجة وبسهولة علما مكانها من صوت الصياح والازدحام حولها.

توقف علي قليلاً:

« كلهم بنات وفيه زحمة.. روحي شوفيها وانا مستنيكي هنا».

قالت نورا محاولة أن تتصنع اللامبالاة:

«روح إنتَ يا علي شوف نتيجتك لحد ما أشوفها وأرجع ع البيت».

رفض علي بحسم قائلاً:

«لما اتطمن عليكي الأول».

صمتت تبحث عن حجة أخرى.. فلم تجد.

حثها علي: «يلّلا خلينا نتطمن».

دخلت نورا وسط دائرة مكتظة بالبنات وأمهاتهن للبحث عن نتيجتها.. وعلي يقف في انتظارها يتابعها بعينيه حتى اختفت داخل الدائرة.

ذهب علي في اتجاه العلم.. وجلس على أرضيته المرتفعة قليلاً وعيناه معلقة بالدائرة ينتظرها..

بعد قليل، وجدها تتوجه إليه متجهمة.. نهض وسار إليها..

تقابلا وجهًا لوجه.. فابتسم قائلاً:

«قديمة الحركة دي على فكرة».

وجد الدموع تتجمع في عينيها.. فاستدرك:

«بلاش هزار».

بدأت دموعها تتساقط.. فتملّكه الفزع وسألها:

«إيه؟».

أجهشت بالبكاء وهي ترتمي في صدره وتخبره من وسط دموعها:

«جبت ملحق إحصاء».

صُدِم علي وضمها ليهدئ من روعها.. ويفكر في فاطمة والصدمة التي ستتلقاها اليوم.

حزين على نورا وحزين على فاطمة أيضًا.. ومن بين حزنه يبحث عن كلمات يهدئ بها الباكية بين ذراعيه:

«متزعليش يا نورا.. الحمد لله إنها جت على قد كده».

قالت وهي تحاول أن تكف عن البكاء وتبحث عن مبرر:

«أول مرة تحصل.. مش عارفة إزّاي حصل كده».

- «يعني انتي حليتي كويس وممكن تكوني اتظلمتي؟».

ردت بصوت خافت:

«لأ.. محليتش كويس».

قال بهدوء:

«خلاص.. إن شاء الله تعوضيها في الملحق.. بس اللي شايل هَمُّه ماما.. هتزعل أوي».

صمتت نورا وهي تعلم أن والدتها ستحزن بالتأكيد.. تعلم أنها قصّرت كثيرًا بسبب علاقتها بـ«فاروق» ولكنها تريد أن تبحث عن مبرر يقلل حزن والدتها.. فقالت بضيق:

«أنا قلت لكم محدش صدقني.. من ساعة ما رزق جِه وانا مكنتش عارفة أركز.. عياط وزَنّ متواصل وماما بقت مهتمة بيه طول الوقت.. ليّا حق معرفش أركز».

لم يرد علي.. فأكملت:

«صح يا علي.. مش ليّا حق معرفش أركز؟».

أجابها علي:

«اللي حصل حصل خلاص.. المهم تركزي الفترة الجاية واهو خلاص اتعودتي على وجود رزق».

تحرك في اتجاه باب المدرسة.. فاستوقفته نورا:

«روح إنتَ يا علي شوف نتيجتك وانا هستنى أصحابي اطمّن عليهم وأبقى أروّح».

- «وهمّا أصحابك فين؟».

- «تقريبًا لسّه مجوش.. هستنّاهم يا علي».

قالتها برجاء أن يتركها.. فأراد أن يتركها مع صديقاتها ربما خففن عنها..

«طيب هروح أشوف النتيجة.. تحبي أرجع لك؟».

ردت بارتياح:

«لأ.. هبقى أروح أنا».

«ماشي».

تركها مبتعدًا.. فتبعته مسرعة واستوقفته:

«هتقول لماما إيه؟».

صمت يفكر.. ثم أجابها:

«هقول اللي حصل.. ماهي لازم تعرف».

هزت نورا رأسها.. ووقفت مكانها وابتعد علي خارجًا من المدرسة.

❑❑❑

تتشابك أصابعهما وهما يُنصتان للبائع وهو يتحدث عن مزايا بضاعته..

ترتسم الأحلام في الخيال.. وتتحدث النظرات بما في القلوب..

يضم فاروق أصابعه ليضغط بها أصابع كريمة التي تنام في كفه ويرمقها بنظرات جانبية تزيد خفقان قلبها..

وعلى بعد خطوات تجلس أمينة تنتظر قرارهما.

تلتفت كريمة لوالدتها بسعادة:

«ماما.. تعالي شوفي الأوضة دي حلوة؟».

ترد الأم: «اختاروا اللي يعجبكم إنتم.. ربنا يهنّيكم».

يذهب بهما البائع ليريهما غرفة أخرى..

يرن هاتف فاروق في جيبه.. يخرجه ليجد رقمًا غير مسجل.. فيعيد الهاتف مرة أخرى لجيبه ويكمل استماعه لبائع الموبيليا.

يتكرر رنين الهاتف، فيصمت البائع وتلتفت كريمة:

«مين؟».

فاروق: «مش عارف».

كريمة: «رُد».

فاروق: «ثواني وآجي».

ابتعد فاروق خطوات، فذهبت كريمة لوالدتها وهي تسألها:

«إيه رأيك في الأوضة.. حلوة؟».

الأم: «جميلة.. المهم تعجبكم».

كريمة: «غالية شوية».

الأم: «مفيش حاجة تغلى عليكي.. أبوكي قال لي اللي تشاوري عليه هيجيبه».

كريمة بسعادة: «ربنا يخليكم ليّا».

قالتها وهي تنظر في اتجاه فاروق الذي رأته يتحدث وهو ينظر لها مبتسمًا.

عندما ابتعد فاروق.. ورد على هاتفه، سمع صوت نورا فالتفت لـ«كريمة» ليتأكد من المسافة بينهما.

- «فاروق أنت فين؟».

- «في مشوار.. مالك؟».

بكت وقالت برجاء:

«عايزة أشوفك دلوقتي.. إنتَ وحشتني أوي».

- «وانتي كمان يا حبيبتي وحشتيني.. بس مش هينفع نتقابل دلوقتي عندي تفتيش في الشغل ومش هقدر أستأذن».

- «وانا ما صدقت عرفت أتحجج لعلي إنه يسيبني».

- «طيب حاولي بكرة.. اتحججي بأيّ حجة ونتقابل ع الساعة ٣ كده.. إيه رأيك؟».

- «هقول لهم إيه في البيت؟».

- «اتصرفي يا حبيبتي.. وحشتيني من آخر يوم امتحانات».

قالت بتردد: «مش عارفة».

- «حبيبتي.. معلش، لازم أقفل علشان التفتيش.. هستنى تليفون منك لو عرفتي تنزلي.. ماشي؟.. يلّلا سلام».

نادته نورا بتوسل:

«فاروق.. استنى.. عايزة أقول لك حاجة».

- «هاا.. قولي بسرعة».

قالت بانكسار: «أنتَ مسألتنيش على النتيجة».

أجاب متلهفًا على إنهاء المكالمة:

«متزعليش بس أنا بتكلم وحواليّا ناس فنسيت.. مبروك».

- «أنا جِبت ملحق إحصاء».

صمت قليلاً ثم قال:

«ولا يهمك.. تعوضيها في الامتحان.. هستناكي بكرة زي ما اتفقنا.. يلّلا سلام يا حبيبتي».

ردت باستسلام:

«مع السلامة».

أنهى فاروق مكالمته.. وذهب في اتجاه كريمة ووالدتها..

اعتذر لـ«كريمة» مبررًا:

«معلش يا حبيبتي.. كان فيه ورق بس في المكتب مش لاقيينه وكانوا بيسألوني هو فين.. ففضلت معاهم لحد مالاقوه.. المهم.. إيه رأيك هناخد الأوضة دي ولّا نشوف حاجة تانية؟».

❏❏❏

القلق يعتصر كيانها وهي تنتظر.. هل سيتركها ابناها دون أن يطمئناها كلّ على نتيجته.. هل ستنتظر ثلاث ساعات أخرى حتى تنتهي من عملها وتعود لبيتها؟

كيف استطاعا أن يتركاها هكذا؟

قلبها تنهشه الاحتمالات وعقلها كاد يجن ويديها تعمل بآلية في تنظيف الخضراوات وتقطيعها..

جاءها أحد عمال المطعم:

«علي عايزك بره يا أمّ علي».

نفضت يدها وقفزت من مكانها ذاهبة لـ«علي».. أقبلت عليه وهو ينتظرها بجوار المطعم تسأله:

«إيه؟ خير مش كده».

«الحمد لله.. وجبت ٩٠٪».

بكت وهي تحتضنه:

«ألف مبروك يا حبيبي».

وقالت بصوت منخفض وهي تضحك والدموع في عينيها:

«لولولو لي.. كان نفسي أكون بعرف أزغرط بجد».

نظرت خلفه وسألته:

«هو انتَ مش قُلت هتروح انتَ وأختك تجيبوا النتيجة مع بعض.. مرُحتوش سوا ليه؟».

تلعثم علي.. ثم قال:

«إحنا نزلنا مع بعض رُحنا على مدرستها وبعدين قالت عايزة تقعد مع أصحابها شوية فسِبتها ورُحت أشوف النتيجة».

- «نتيجتها كانت ظهرت ولا لسّه؟».

- «ظهرت».

قالها علي وصمت.. فارتابت فاطمة في صمته وسألته:

«إيه؟ وبعدين؟ جابت مجموع وحش؟ مش مهم المهم تكون عدت الحمد لله».

قال علي محاولاً التخفيف عنها:

«الحمد لله».

تنحنح ثم ألقى ما يؤلمه ربما يستريح.. بصوت هامس:

«جابت ملحق إحصا.. بس متقلقيش...».

استندت فاطمة على ذراعه.. شعر بها تكاد تسقط.. لكنها جلست على الرصيف ودموعها تنساب على خديها.. جلس علي بجوارها:

«ماما.. متزعّليش نفسك.. الحمد لله إنها جت على قد كده».

رددت وهي تنظر للسماء:

«اللهم أجُرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها».

لم يستطِع علي التحكم في دموعه فجلس جوارها يقبل رأسها وهي لا تزال تردد دعواتها محاولة التحلي بالصبر.

ربتت على علي ثم استندت عليه تنهض من مكانها:

«مكانش المفروض تسيب أختك لوحدها بعد ما عرفت.. محدش عارف ممكن الصدمة تخليها تفكر إزّاي».

- «مكنتش عايز أسيبها والله وهي اللي صممت.. قالت وجودها مع أصحابها هيريّحها شوية فمحبيتش أضغط عليها».

- «مقالتلكش هترجع إمتى؟».

- «لا.. بس متقلقيش أكيد مش هتتأخر».

سمعت صوت بكاء رزق.. احتضنت علي تهنّئه ثم قالت:

«هروح أشوف أخوك.. ارجع انتَ البيت وخليك مع أختك كده ومتحسسهاش إننا زعلانين منها.. هي عملت اللي عليها وفي الأول والآخر التوفيق ده من عند ربنا».

هز علي رأسه مجيبًا لها.. عادت لعملها والحزن يشق صدرها.. ضمت رزق لتهدئ من بكائه.. ودموعها لم تكف عن التحرر من عينيها.

❑❑❑

وصلت فاطمة للسطح وهي تلهث بعد صعود السلم حاملة رزق على كتفها وتحمل بيديها أكياسًا من خضراوات..

وقفت بباب شقتها تطرقه بضعف.. فتح لها علي الباب، فدخلت ووضعت الأكياس أرضًا.. ورزق أيضًا، وجلست على المقعد القريب من الباب وهي تنظر للداخل وسألت بفزع:

«هيّ لسّه مرجعتش؟».

أجابها علي بسرعة ليطمئنها:

«لا، لا، جت.. أنا جيت لقيتها».

- «هيّ فين؟».

- «نايمة».

- «أكلتم؟».

- «لأ.. مستنيينك».

فكت فاطمة حجابها وهي تستريح من الطريق.. لاحظت أن رزق يحبو باتجاه الباب المفتوح:

«اقفل الباب يا علي لَيطلع بره».

حمل علي رزق وأغلق الباب وجلس يداعبه.. ودخلت فاطمة تبدل ملابسها.. فرأت نورا تتقلب في الفراش..

لا تعلم هل تعاتبها أم تتجاهل حزنها وتتعامل وكأن شيئًا لم يحدث!!

ظلت على ترددها وهي تنظر لـ«نورا».. وخانتها دموعها مرة أخرى..

فتحت نورا عينيها لتجد فاطمة أمامها تبكي.. فنهضت مسرعة وارتمت في حضن والدتها:

«متزعليش.. علشان خاطري متعيّطيش».

ربتت فاطمة عليها وهي تمسح دموعها:

«قدَّر الله وما شاء فعل.. الحمد لله».

- «أنا عارفة إنك زعلانة.. بس والله ما كان يخطر في بالي إني ممكن أسقط في مادة».

- «ولا أنا.. أنا عارفة إنكم شاطرين وبتذاكروا.. بس يلّلا النصيب بقى هنعمل إيه!!».

- «إن شاء الله هعوّض في الامتحان».

ضمتها فاطمة بحنان وحب:

«إن شاء الله.. ربنا ينجّحك ويطمّن قلبي عليكي».

دخل علي عليهما وهما متعانقتان:

«إيه.. مش هنتغدا؟».

ردت فاطمة: «هسخن وناكل على طول».

بعد قليل.. جلسوا جميعًا على الأرض حول الطعام.. ورزق بين يدي فاطمة تطعمه معهم..

بدأت نورا حديثها مترددة:

«بكره هروح المدرسة أشوف هاخد درس عند مين؟».

انتبهت فاطمة.. ورفعت عينيها لتسأل بقلق:

«درس؟».

ردت نورا: «طبعًا.. أُمّال أسقط فيها تاني!!».

فاطمة: «وبكام الدرس ده؟».

علي: «أكيد غالي مش سعر الدراسة».

نورا: «أكيد.. وبعدين غالي ولّا رخيص مش المهم أنجح؟».

ردت فاطمة وهي تهز رأسها بقلة حيلة:

«المهم تنجحي».

ليلة حارة قضتها الأسرة تحت ضوء القمر في السطح.. كلٌّ شارد في ملكوته..

فاطمة تجلس وتضم رزق لصدرها وتمسك بورق مقوى تستخدمه كمروحة لتساعد رزق على النوم في تلك الليلة الحارة.

تفكر.. تُرى كم سيطلب مدرس الإحصاء؟

كما علمت من نورا لا بد أنه مئات.. كم مائة بالتحديد لا تعلم..

بعد أن ظنت أن أعباءها المادية ستخف بانتهاء الدراسة.. لم يَدُرْ بخلدها أن عبئًا جديدًا وكبيرًا سيحل عليها فجأة.

من أين لها بثمن الدرس؟

تنظر للسماء وتناجي الله في سرها:

«يا صاحب خزاين السماوات والأرض.. ارزقني برزقهم».

ثم نظرت لـ«نورا» الواقفة مستندة على سور السطح:

«ما تقعدي يا بنتي.. إنتي واقفة بقالك كام ساعة على ده الحال».

ردت نورا دون أن تلتفت:

«بتفرّج ع الشارع بدل الزهق والحر اللي إحنا فيه ده».

صمتت فاطمة وصمتت نورا وهي ما زالت تراقب الشارع:

رأت فاروق اليوم عند عودتها وهو يدخل مع كريمة ووالدتها لشقة الحاج عوض.. تعرف أنه يغادر في الحادية عشرة.

قاربت الساعة على الثانية عشرة والنصف صباحًا ولم ترَه حتى الآن.

تنتظر واقفة على قدميها لتتزود منه بنظرة حتى يحين اللقاء غدًا.

تشعر بألم في قدميها، فتتحرك قليلاً لعل حركة قدمها تقلل ألمها.

أمّا علي، فظل شاردًا في الفراغ يفكر في موعد الغد.. فبعد أن أعياهم البحث بعدم جدوى والرد المكرر بأنه لا توجد وظائف خالية، اتفق مع زملائه الذين قدموا في وظيفة «شرم الشيخ» أن يذهبوا جميعًا للسؤال عن مصيرهم الوظيفي.. فأغلبهم لا يملك هاتفًا محمولاً ويخشون أن تفوتهم الوظيفة لهذا السبب..

ربما علموا شيئًا يطمئنهم.. أو حتى رُفضوا تمامًا.

الأهم أن يصلوا إلى شيء.

في الليلة التالية.. تكررت الجلسة نفسها، لكنها تختلف كثيرًا عن الأمس..

نورا تجلس شاردة مع صوت أم كلثوم يشدو بجوارها وهي سعيدة بأنها ستتمكن من

مقابلة فاروق كثيرًا حتى موعد امتحانها؛ فقد جاء رسوبها في تلك المادة فرصة ذهبية للقاء الحبيب...

أخبرها اليوم أنه بعد امتحانها سيكون على مقربة أكثر منها بدخوله منزل الحاج عوض..

تعرف مكانتها عنده.. يؤكد كل مرة يلتقيها ويشعر بغيرتها عليه أنها حبه الوحيد وأن كريمة مفروضة عليه.. تصدقه وتلتمس له الأعذار.

أمّا علي فيجلس متخيلاً شاطئ البحر الذي سيراه بعد أيام قليلة.. حتى وإن كان سيقضي يومه كله في العمل، يكفيه أنه سيبتعد عن القاهرة بزحامها وضجيجها ويتنسم عبير البحر..

يؤلمه ابتعاده عن والدته وشقيقته.. لكن ما باليد حيلة..

وفاطمة تجلس القرفصاء في الأرض ورزق نائم في حجرها..

تربت عليه بحنان وهدوء.. عيونها شاخصة في اللاشيء تفكر..

نقود رزق نفدت عن آخرها.. علي يريد مصروفات للسفر ومصروف يده حتى يقبض أول راتب له بعد شهر من العمل..

ومُدرس نورا يريد تقاضي أجره مقدَّمًا.. وما يتبقى معها بالكاد يكفيها حتى موعد راتبها.

تحسب وتفكر.. مصروفات نورا وعلي المطلوبة في خلال أيام تعادل ثلاثة أرباع راتبها.. إن استطاعت اقتطاع المطلوب منها من راتبها أول الشهر.. كيف يمكنها قضاء الشهر القادم بأكمله؟

تفكر في حلول.. لا بدائل ولا اختيارات.

مصروفات مطلوبة تعجز عن توفيرها.

❑❑❑

أغنياء بعطايا الله لنا وإن لم نمتلك المال.. العقل والصحة كنز يجب علينا استثماره وعدم اليأس من ضيق الحال

فكما خلق الله العقدة.. خلق معها الحل.

توصلت فاطمة للحل الذي تقدر عليه بما تملك وتوكلت على الله..

خلال الأسبوع المتبقي حتى موعد راتبها سعت لتنفيذ الحل..

يوم القبض.. عادت من المطعم.. وبعد تناولهم جميعًا طعام الغداء، أعطت نورا ثمن الدرس، وأعطت لـ«علي» مصروفات سفره..

وتبقى القليل لمصروف البيت ومصروفات رزق.

شعر علي بوالدته والضيقة التي تمر بها.. ولكن ماذا يفعل؟

حاول التحدث ولكنه لم يجد كلامًا يعبر عن إحساسه فصمت.

أمّا نورا فكان تفكيرها بعيدًا عن كل ما يجري حولها..

تفكر ماذا سترتدي غدًا في لقاء فاروق.. اختياراتها قليلة ومع ذلك تجد الحيرة نفسها كل مرة يلتقيان.

لاحظ علي أن فاطمة تقوم بتركيب خرطوم مياه في صنبور المطبخ.. وأخذت معها فرشاة وأكياس مسحوق وخرجت للسطح..

زحف رزق خلفها.. فعادت مرة أخرى تحمله.. أجلسته في الصالة وأحاطته ببعض المساند وقالت لـ«علي» و«نورا»:

«خلي بالِك منه يا نورا.. علي.. خلي ودنك معايا لمّا أقول لك افتح الميّه ولا اقفلها».

سألها علي: «بتعملي إيه؟».

ردت وهي متجهة للباب:

«هغسل سجاد».

نظرت نورا للسجادة الوحيدة المفروشة تحتهم.. وجدتها كما هي، فنظرت لـ«علي» مندهشة.. وبادلها علي النظرة نفسها..

ثم نهض علي خلف والدته.. وتبعته نورا..

توقفا في السطح علي وخلفه نورا.. وجدا فاطمة تفرد سجادًا ومشايات على الأرض وأمسكت الخرطوم.. ثم نظرت في اتجاه علي:

«افتح الميّه».

ثم وجهت حديثها لـ«نورا»:

«ادخلي خلي بالك من رزق».

دخل علي ونورا للشقة دون تعليق.. جرت المياه من الخرطوم بيد فاطمة.. وانحنت على ركبتيها تغسل السجاد المفروش تحتها وحولها.

بعد قليل جاءها علي.. شمر قدميه ودون أن يتحدث ساعد والدته في الغسيل ثم رفع ما انتهوا من غسله وسألها:

«أنشر هنا على السور؟».

أجابت: «لأ.. لِف السجادة تتصفى الأول وبعدين نبقى ننشرها».

ثم أكمل مساعدتها في ما لم تنتهِ منه.

بعد أكثر من ساعة.. انتهت فاطمة وعلي من غسيل ونشر السجاد.

دخلت فاطمة وجدت نورا تلاعب رزق وهو في حضنها..

جلست منهكة رغم بلل ملابسها:

«شكلُه غلبك».

ردت نورا: «لا، عادى.. أخد عليّا عن الأول».

نهضت فاطمة وهي تجر قدميها حتى غرفتها ثم متجهة للحمام بملابس أخرى نظيفة:

«طيب.. الحمد لله.. يعني أقدر أنام شوية وانتوا قاعدين معاه؟».

استوقفها سؤال نورا:

«ماما.. إنتي كنتي بتغسلي سجاد مين؟».

التفتت فاطمة وقالت بثبات رغم حزنها:

«سجاد أم معتز».

سألها علي: «اللي في العمارة اللي جنبنا؟».

ردت فاطمة: «آه».

سألتها نورا بألم:

«ليه؟».

أجابتهم فاطمة وهي تلتفت للحمام:

«علشان بعد مصاريفكم اللي طلبتوها مفيش فلوس ناكل بيها لآخر الشهر».

تركتهما يتبادلان نظرات الألم وكلٌّ منهما يلعن الفقر سِرًّا.

❑❑❑

ليلة مختلفة عن سابقاتها وستختلف عن الليالي التالية..

لأول مرة تتفرق الأسرة المترابطة.. لأول ليلة سيفارق الابن الأكبر والدته وشقيقته.

صمت يخيم على البيت الدافئ.. نورا تجلس في الصالة وعيناها المليئة بالدموع مثبتة على حقيبة السفر الموضوعة في المنتصف والتي يستند رزق عليها محاولاً أن يخطو وحده فيتعثر ويستند عليها مرة أخرى ليعيد المحاولة.

فاطمة تقف في المطبخ الصغير وظهرها للصالة.. تعد بعض سندوتشات الجبن والطماطم لـ«علي» ليأخذها في سفره.

تحاول أن تكف عن الدموع الغزيرة التي تهطل من عينيها ولكنها تفشل في كتمها فتتركها وتمسحها بكتفها بين الحين والآخر.

خرج علي من غرفة النوم بعدما ارتدى ملابسه.. جلس بجوار نورا.. رأى دموعها فأحاطها بذراعه وضمها يقبل رأسها:

«مش عايز أسيبك والدموع في عينك كده».

وهمس في أذنها:

«وعلشان ماما كمان».

التفتت فاطمة وهي تمسك بلفة السندويتشات.. تضعها في كيس صغير وتحاول ألا تُبدي دموعها:

«خلي الكيس ده في إيدك متحطوش في الشنطة.. علشان لو جُعت أيّ وقت تاكل».

تناول علي الكيس الصغير من والدته وقبَّل يديها:

«حاضر».

ضمته بقوة ولم تستطع كتم دموعها وهي توصيه:

«خلي بالك من نفسك يا علي.. أوعى الحرام يا ابني.. علشان ربنا يبارك لك في أكل عيشك».

طمأنها وهو في صدرها:

«حاضر.. ادعي لي بس».

- «داعيالك يا حبيبي ربنا يوقّف في سكتك ولاد الحلال وينجّيك».

زاد نحيب نورا وفاطمة تبكي والدموع تتجمع في عيني علي.. فبكى رزق على بكائهم جميعًا.

ربت علي على فاطمة وهو يعاتبهما:

«ليه كده.. هتوجعوا قلبي ليه قبل ما أمشي؟».

نورا: «هتوحشني يا علي.. هي أول إجازة إمتى؟».

صمت علي قليلاً.. ثم قال:

«الإجازة بعد ٣ أسابيع.. بس أنا مش هقدر أنزل إجازة غير بعد ما أقبض أول مرتب.. مصاريف السفر رايح جاي هجيبها منين؟».

صمتت فاطمة عجزًا.. فلقد استنفدت كل الطرق لتوفير متطلبات أبنائها.. لكن قلبها كأم لم يقبل العجز.. فقالت:

«ربنا يفرجها عليّا وأبقى أبعت لك...».

قاطعها علي:

«ماما.. انتي صحتك متستحملش كل التعب اللي بتتعبيه ده».

واستطردت نورا:

«وبصراحة موضوع غسيل السجاد ده بيقل مننا أوي».

تألمت فاطمة.. وردت:

«بيقل مني أنا علشان أرفعكم انتم».

استطردت نورا بألم:

«واحنا ميرضيناش إنك تقللي من نفسك حتى لو علشاننا».

ثم نظرت لـ«علي» وقالت:

«ما تتكلم يا علي.. قول لماما على الفكرة بتاعتنا».

نظرت له فاطمة منتظرة سماع ما عنده.. في اللحظة التي استند فيها رزق على ركبة علي.. فحمله علي وقبّله.. وقال وهو ما زال يحمله:

«رزق يا ماما».

نظرت له بتساؤل دون فهم.. منتظرة أن يكمل.. فأكمل علي:

«رزق له مصروف برضه وانتي هتعملي إيه أكتر من اللي بتعمليه؟.. غسيل السجاد اللي من يوم ما بدأتيه مجاش غير مرتين.. يعني مش هيكفي مصروفكم.. هتعملي إيه لو دخل الشتا واحتجتي تجيبي هدوم شتوي لرزق.. هتعملي إيه لو تعبان ووديتيه أيّ مستشفى بس كتب لك علاج غالي.. هتصرفي عليه ولا عليكي انتي ونورا؟».

سألته فاطمة:

«أنا مقصرتش أبدًا.. بشتغل ليل ونهار برّه وجوّه علشان مقصّرش مع حد فيكم».

- «وصحتك؟».

- «يعني عايزني أعمل إيه؟».

صمت علي.. نظر بتردد لـ«نورا».. فشجعته نظرات نورا على إكمال حديثه:

«تسلمي رزق للقسم وهمّا يودوه لدار رعاية.. هما يقدروا يصرفوا عليه إنّما إحنا ربنا شايف إننا محتاجين زيه».

بهتت فاطمة من كلماته.. تذكرت وصية عزة قبل وفاتها.. تذكرت تعلقها برزق وتعلقه بها الشهور الماضية.. أخذته من يدي علي تضمه وتقبّله وعيناها مغرورقة بالدموع:

«مقدرش أسيبه.. أنا بَحبه أوي».

قالت نورا بصدق:

«واحنا كمان حبيناه.. بس بنحبك أكتر يا ماما وزعلانين على تعبك».

قالت وهي تضمه: «ربنا يعينني.. أسيبه إزّاي بس.. وانا أضمن منين يعاملوه إزّاي؟».

علي: «ابقي زوريه اطمني عليه».

فاطمة: «لأ.. ربنا يرزقنا.. اللي خلقنا مش هينسانا».

نظر علي لـ«نورا».. فنكست رأسها باستسلام.

حمل علي حقيبته على كتفه.. وقفت فاطمة ونورا وكل منهما تحتضنه وتقبّله وتدعو له.

ودّعتاه حتى السلم.. استوقفته فاطمة:

«اوعى تنسى تطمّني يا علي.. كلمني على تليفون المطعم.. اتصرف يا حبيبي بأيّ طريقة المهم إنك تطمني إنك وصلت بالسلامة».

- «حاضر.. مع السلامة».

ردت عليه فاطمة ونورا دون أن تكف دموعهما.

نزل علي وقلبه يتمزق على فراقهما.. ولكنه يأمل في حياة جديدة أفضل من الأيام الحالية والسابقة.

مر بجوار شقة الحاج عوض.. وجد الباب مفتوحًا، فألقى السلام وهو يعبر بجوار الشقة.

سمع صوت الحاج عوض يناديه، فتوقف والتفت، فوجد الحاج عوض مُقبلاً تجاهه وفي الداخل تجلس كريمة وخطيبها ووالدتها التي جاءت خلف الحاج عوض..

عوض: «مسافر دلوقتي يا علي؟».

علي: «إن شاء الله.. أشوف وشكم بخير».

أخرج الحاج عوض من جيبه مائة جنيه ووضعها في يد علي وهو يسلم عليه.. فأحس بها علي فرفض بأدب:

«شكرًا يا حاج.. معايا والله».

نهرته الحاجة أمينة:

«عيب يا علي.. متقولش لأ للحاج.. ربنا يسلم طريقك يا ابني».

شكرهما علي وودّعهما وأكمل طريقه.

في الداخل.. راقب فاروق ما حدث على الباب.. وربط مشهد علي بحقيبته بكلام نورا عن علي وسفره إلى شرم الشيخ للعمل.

فسأل كريمة متأكدًا: «مين ده؟ جاركم؟».

أجابت كريمة: «آه.. ده جارنا اللي ساكن في السطح.. رايح يشتغل في شرم الشيخ».

ثم قالت وعيناها تلمعان بالفرحة:

«إيه رأيك نبقى نروح كام يوم؟».

هز رأسه.. وباله منشغل بفكرة خطرت على باله للتو، سيبدأ في التمهيد لها بعد انفراده بكريمة.

عاد الحاج عوض وزوجته للجلوس معهما.. فسألت أمينة:

«هااا.. اتفقتوا على اليوم ولا لسّه؟».

ردت كريمة بسعادة:

«فاروق كان بيقول الخميس اللي بعد الجاي».

نظر الحاج عوض لزوجته وسألها:

«متهيأ لي مش ناقص حاجة.. ولا إيه؟».

ردت زوجته بسعادة:

«حاجات بسيطة تخلص قبل المعاد إن شاء الله».

- «على بركة الله.. مبروك يا ولاد.. ربنا يسعدكم.. لو حاجة ناقصاك يا فاروق متتكسفش يا ابني مفيش بيننا تكليف».

- «ربنا يخليك لينا يا حاج».

بعد قليل.. وبعد أن انفرد فاروق بـ«كريمة» قال لها هامسًا:

«بكره ورانا مشاوير كتير الصبح.. إيه رأيك تستأذني باباكي ناخد العربية.. كده كده بتبقى مركونة طول اليوم.. إيه رأيك؟».

- «ماشي.. هقول له».

❑❑❑

خرجت نورا مع زميلاتها بعد انتهاء الدرس الخصوصي، متشوقة لموعدها مع فاروق.

اليوم لن تخاف التأخير؛ فلا أحد بالبيت حتى المساء ولن يسألها أحد عن سبب تأخرها عن الموعد.

تبقى ثلاث حصص فقط بعدها تؤدي الامتحان.

كانت خائفة بعد الامتحان من أنها لن تتمكن من لقاء فاروق لعدم وجود سبب لخروجها.

أمّا الآن.. فمن سيسأل.. أو من سيدري إن خرجت وعادت قبل موعد عودة فاطمة.

وهي غارقة في أفكارها، وجدت سيارة تمشي ببطء جوارها هي وزميلاتها..

لم تلتفت.. فسبقتها السيارة بضع خطوات وتوقفت.

نزل فاروق منها وناداها.

أصابتها الدهشة عندما رأت سيارة الحاج عوض.. ولكنها استأذنت من زميلاتها واتجهت ناحيته:

«إيه ده؟ عربية الحاج؟».

رد بفخر: «آه.. يلّلا اركبي».

فتح لها الباب.. ركبت بسعادة وانتظرت حتى ركب جوارها.

التفتت له: «خدت العربية إزّاي؟».

- «مش مهم إزّاي.. أنا خدتها مخصوص علشانك».

- «علشانى؟!!».

- «طبعًا يا حبيبتي.. مش أخوكي سافر إمبارح؟».

- «آه.. عرفت منين؟».

- «شفته وهو نازل».

تبدلت الابتسامة التي كانت على وجهها وسألته:

«إنتَ كنت عندها إمبارح؟».

لاحظ غيرتها.. فتصنّع الحزن والتأثر:

«حبيبتي.. مش عايز اليوم اللي هنقضيه مع بعض تبقي متضايقة.. علشان فيه حاجة كمان لازم تعرفيها».

همت أن تسأله.. فعاجلها وهو يقود السيارة:

«مش دلوقتي.. خلينا نقضي وقتنا مع بعض من غير حاجة تضايقنا.. ممكن؟».

هزت نورا رأسها موافقة.. أرادت أن تنسى هي الأخرى ما يضايقهما معًا.. فسألته بابتسامة:

«هنروح فين؟».

- «مش مهم فين.. المهم إننا مع بعض».

أخذ يدها قبّلها.. وظل ممسكًا بها أثناء قيادة السيارة.

❑❑❑

صعدت نورا السلم وهي تتجنب النظر نحو شقة الحاج عوض المفتوح بابها.. مرت سريعًا من أمام الباب حتى لا تضطر للقاء كريمة.

لم تتمكن من إخفاء حزنها وغيرتها عندما أخبرها فاروق بموعد زواجه.

اليوم كان مختلفًا عن كل اللقاءات السابقة.. اليوم كان الحب في أوج اشتعاله.. اليوم أغدق عليها فاروق بكلمات الحب والغزل..

لقاء اليوم اختلف كثيرًا أيضًا.. اليوم لم يقتصر الحب بينهما على الحديث واللمسات السريعة والقُبلة الخاطفة..

أغلقت نورا الباب خلفها بعد وصولها.. تأكدت أن والدتها لم تأتِ بعد.. ألقت كتبها في الصالة ودخلت لغرفة النوم.. وقفت أمام المرآة وبدأت تخلع ملابسها.. تستعيد الوقت الذي أمضته خارج نطاق الزمن..

تكاد تسمع صوت فاروق وهو يتغزل في جسدها.. تشعر بلمساته فتقشعر مرة أخرى.

تستعيد انتفاضته وصوته يرتعش هامسًا بحبها وهو يطوق جسدها بذراعيه.

كيف استسلمت دون أيّ مقاومة.. هل القلب والجسد وجهان للحب لا يمكن الفصل بينهما كما قال؟

يبدو أنه محق؛ فما شعرت به في تلك اللحظات شعور لم تتخيله من قبل.

لم تعترض عندما رأته يقود السيارة نحو منطقة نائية.. لم تعترض على أيّ شيء.. حتى وإن خسرت أكثر.

سمعت صوت المفتاح.. فارتدت ملابس البيت سريعًا.

وذهبت لاستقبال والدتها..

دخلت فاطمة تلهث إثر صعود السلم وحملها رزق.

جلست في أقرب مقعد:

«هاتي لي كوباية ميّه يا نورا.. هموت م العطش».

أسرعت نورا وأحضرت كوبًا من المياه الباردة وأعطته لوالدتها.

نهضت فاطمة مرة أخرى:

«خلي رزق معاكي.. سخّني واتغدوا انتوا لحد ما آجي».

سألتها نورا: «رايحة فين؟».

ردت فاطمة بألم:

«رايحة لواحدة معرفة كده».

شعرت نورا أن والدتها تُخفي شيئًا ما.. فكررت سؤالها:

«مين هي؟ ورايحة لها ليه؟».

أجابت فاطمة: «واحدة متعرفيهاش».

ثم أكملت وهي تتجه للباب دون أن تنظر إليها:

«رايحة أنضّف لها البيت».

تبعتها نورا والدموع في عينيها:

«إنتي مرتحتيش من الشغل.. صحتك متستحملش وكمان حصّلت لشغل البيوت؟».

ردت فاطمة بابتسامة وهي تربت على ابنتها:

«مش مهم التعب.. ومش مهم الشغلانة.. المهم إنها شغلانة شريفة وقرش حلال وربنا هيبارك لنا إن شاء الله».

غادرت فاطمة.. وركض رزق خلفها فحملته نورا وأغلقت الباب وهي تبكي..

تشعر كثيرًا بالندم.. فشتان بين ما تفعله والدتها من أجلها، وما تفعله هي دون الاكتراث بكل تضحيات والدتها.

❒❒❒

انتهت نورا من الدرس.. لم تتعجل النزول، فكما أخبرها فاروق لن يتمكن من مقابلتها اليوم؛ لانشغاله مع كريمة.

نزلت مع زميلاتها.. فوجدت «جهاد» تقترب منها وتمسك ذراعها وهي تهمس:

«عايزاكي يا نورا لوحدك».

تعجبت نورا.. فـ«جهاد» زميلة دراسة في فصل آخر والتقت بها خلال السنوات الثلاث الماضية في درس واحد فقط، بالإضافة للدرس الحالي، فسألتها نورا:

«خير؟».

أجابت جهاد: «تعالي بس».

انسحبت نورا من صحبة زميلاتها، وسارت مع جهاد وعقلها عاجز عن التنبؤ بالسبب.

عندما ابتعدتا عن زميلاتهما، توقفت جهاد وقالت وهي تنظر لـ«نورا» مباشرة:

«مين اللي جالك بعربية المرة اللي فاتت يا نورا؟».

استهجنت نورا سؤال زميلتها؛ فقالت بحدّة:

«وانتي مالك؟».

ابتسمت جهاد واستدركت:

«بالراحة.. أنا عايزة مصلحتك».

- «مصلحتي إنك تسأليني مين جالي؟.. عمومًا ده واحد قريبي قابلني صدفة».

ضحكت جهاد.. ضحكتها استفزت نورا فقالت الأخيرة بعصبية:

«بتضحكي على إيه؟».

فردت بجدية بعد أن تخلت عن ضحكتها بسرعة:

«وفاروق بقى يقرب لك إيه؟».

رفعت نورا حاجبيها وهي تسأل جهاد:

«إنتي تعرفيه؟».

- «أعرفه».

- «منين؟».

تحدثت جهاد بجدية وهي تشد على يد نورا:

«اسمعي يا نورا.. كان ممكن أقول مليش دعوة وأطنش.. بس لأ.. اللي شُفته منه يخليني مسكتش».

سألتها نورا بقلق: «فيه إيه؟».

- «فاروق ده من أقذر مخلوقات ربنا على الأرض.. واحد كده معندوش ضمير ولا أخلاق ولا يعرف ربنا».

- «ليه بتقولي كده؟».

- «البيه كان بيحب أختي الكبيرة أو كان مفهّمها كده.. وهي كانت متعلقة بيه جدًا ومصدّقاه.. كان كل ما يجيلها عريس ترفضه مستنية فاروق ظروفه تتحسن وهو كان مفهّمها إن مفيش في الدنيا غيرها.. كان بيستغلها جدًا وتقريبًا كل فلوس شغلها رايحة عليه.. هدايا يطلبها بطرق غير مباشرة.. خروجات ويتحجج بأيّ حجة علشان تدفع.. يستلف منها وميردش... لحد ما شافته مع واحدة تانية وطبعًا مقدرتش تمسك نفسها

وزعقت وبهدلته هو وهي.. واكتشفت إنه ماشي مع التانية بقاله شهور وبيقول للاتنين نفس الكلام».

سألتها نورا وسط صدمتها:

«مش معقول.. هو هيعمل كده ليه؟.. واختك عملت إيه؟».

- «أختي سابته على طول وربنا كرمها واتجوزت وخلفت دلوقتي.. ولمّا حكيت لها يوم ما شفتكم وسألتها أتصرف إزّاي قالت لي لازم أقول لك.. وقالت لي أقول لك بالنص (الحقي نفسك قبل ما يكسرك ويسيب جواكي وجع صعب يتمحي.. الحقي نفسك قبل ما يستغلك أكتر من كده)».

حاولت نورا الدفاع عنه فقالت:

«بس هو عمره ما طلب مني فلوس».

- «الاستغلال مش بس فلوس.. ممكن يكون بيستغلك بطريقة تانية».

صمتت نورا.. وانتهت جهاد من كلامها.. فقالت وهي تنهي كلامها:

«أنا عملت اللي عليّا يا نورا وحذرتك.. وانتي حرة.. سلام».

تركتها جهاد واقفة غير مستوعبة كل ما سمعته.. ترفض التصديق.

في طريقها لمنزلها.. راجعت علاقتها بـ«فاروق» من أول يوم.. علاقته بـ«كريمة» وزواجه المنتظر قريبًا.

شعرت أنها ترى كل ما سبق بعين جديدة.. عين أغمضت شهورًا طويلة وتفتحت اليوم بكلام جهاد.

لم تتوقف دموعها لحظة واحدة.. نادمة على ما اقترفته في الفترة الماضية.

جهاد مُحقّة.. الاستغلال لا يقتصر على المال..

فاروق استغلها.. استغل صغر سنها.. استغل سذاجتها.. استغل مشاعرها.. واستغل جسدها أيضًا..

بكت.. بكت كثيرًا.. نعم، استغلها.. فقدت براءتها على يديه رغم عدم فقدانها عذريتها.
عذراء الجسد هي ولكنها غير طاهرة الروح.
عادت فاطمة تحمل رزق.. وجدت نورا ورأت عينيها وأنفها متورمة، فسألتها بذعر:
«مالك.. معيّطة كده ليه؟».
حاولت نورا التماسك فأجابت:
«مفيش حاجة».
لحظات كفت فيها عن البكاء ثم دخلت في نوبة بكاء أخرى.
سألتها فاطمة بخوف:
«أخوكي حصل له حاجة؟».
- «بعد الشر».
- «طيب فيكي إيه؟».
- «الامتحان كمان كام يوم وخايفة».
طمأنتها فاطمة: «متخافيش؛ إن شاء الله ربنا مش هيضيع تعبك».
ابتعدت نورا عن والدتها وجلست متكومة في أحد المقاعد تبكي في صمت.
بدّلت فاطمة ملابسها.. وبدّلت لـ«رزق» ملابسه ودخلت لإعداد الغداء.
أعدت الطعام ودعت نورا:
«يلّلا يا نورا».
- «مليش نِفْس».
قالت فاطمة بيقين:
«الموضوع مش امتحان أبدًا.. ده إنتي يوم ما سقطتي معملتيش كده.. مالك يا نورا؟.. احكي لي فيه إيه؟».

ازداد بكاء نورا.. فسقط قلب فاطمة في قدميها وهي تسأل:

«قولي يا بت طمنيني.. متوقعيش قلبي.. مالك؟».

ازداد انهيار نورا.. ولم تتمكن من السيطرة على نفسها وحكت وهي تتألم:

«أنا اتخدعت يا ماما.. صدّقت إن فيه حب وأخدت أكبر صدمة في حياتي».

حاولت فاطمة استيعاب كلمات ابنتها بهدوء كي تحتوي الأمر..

كان هناك قصة.. ويبدو أنها انتهت.. ولم تشعر فاطمة بابنتها!!

شعرت بالتقصير بأنها لم تلاحظ على ابنتها أيّ تغيير.

لكن قبل جلد ذاتها.. استوضحت من نورا:

«إيه الحكاية؟».

حكت نورا عن خطوبة كريمة.. لقاء النظرات ثم انتظار فاروق لها أمام المدرسة.. عن المشاعر التي أوهمها بها وعن المشاعر الصادقة التي شعرت بها لأول مرة.. عن لقاءاتهما المتكررة في الفترة الماضية حتى كلام جهاد.

لم تذكر شيئًا عن استغلاله لها سوى استغلال مشاعرها.

صُدِمت فاطمة.. كانت تبكي في صمت مع ابنتها، ويد رزق الصغيرة تمسح دموعهما على التوالي بفطرة طفولية نقيّة.

ضربت فاطمة كفًّا بكف:

«أنا مش مصدقة يا نورا.. كل ده وانا مش دريانة.. بلاش أنا.. ملقيتيش غير خطيب كريمة؟ نخون؟!! إحنا نخون الناس اللي مدّوا لنا إيديهم وعايشين من خيرهم؟!! افرضي هو معندوش ضمير زي ما صاحبتك قالت.. ضميرك انتي فين؟ تربيتي ليكي فين؟ عقلك فين؟».

تكاد فاطمة تجن.. تسأل ولا تجد إجابة سوى البكاء.

تردد: «بيضحك عليكم انتم الاتنين في وقت واحد.. بيستغل الناس الطيبين اللي فاتحين له بيتهم.. يا عيني عليكي يا كريمة متستاهليش كده أبدًا».

تحدثت نورا من بين دموعها:

«صعبانة عليكي كريمة وانا لأ؟».

- «طبعًا صعبانة عليّا.. هي اللي مضحوك عليها أكتر منك.. إنتي عارفة إنه خاطب وصدّقتيه بمزاجك.. إنّما هي مصدّقاه في كل كذبه عليها».

- «مش يمكن جهاد بتكذب؟».

- «و إيه مصلحتها؟.. وهتكذب في إيه وكل حاجة واضحة قدام عنينا».

صمتت قليلاً ثم قالت تعاتب ابنتها:

«إخص عليكي يا نورا.. يا خسارة شقايا وتعبي وتربيتي فيكي.. هرفع عيني في عين الراجل اللي سترنا في بيته إزّاي.. هأمِدّ إيدي آخد مرتبي من خيرُه إزّاي واحنا عارفين حقيقة التِعبان اللي هيعيش في بيته ووسط أهله وهنسكت علشان الغلط من عندنا كبير».

❑❑❑

إن كان معدومو الضمير يحللون لأنفسهم كل شيء ويعيشون هانئين وينامون قريري العيون.. فأصحاب الضمير الحي قد يفارقهم النوم ليالي طويلة لخطأ واحد.

قررت فاطمة وأخذت وعدًا من نورا.. لن تلتقي بـ«فاروق» مرة أخرى، وإن طاردها ستتولى فاطمة المهمة وتواجهه وتهدده بفضحه.. أمّا إذا استسلم فستتجنب نورا رؤيته قدر المستطاع؛ لتُطوى تلك الصفحة، بل تُمزَّق وكأنها لم توجد من الأساس.

فاطمة على غير عادتها في المطعم.. صامتة شاردة تكاد لا تسمع زملاءها حين يتحدثون إليها.

عند وصول الحاج عوض شعرت فاطمة بثقل على صدرها يكاد يخنقها.. إحساس بالذنب والخيانة ينكس رأسها.

أحيانًا، يخرج ما في صدورنا دون تفكير.. بلا سبب سوى عدم قدرتنا على تحمله وحدنا.

وبلا تفكير في ما قد يحدث من نتائج.

فقط.. يجري على ألسنتنا بلا إرادة.

هكذا حدث.. تقدمت فاطمة نحو الحاج عوض وهمست:

«فيه حاجة مهمة يا حاج عايزة أقول لك عليها».

انتبه لها الحاج عوض.. وأشار لها بسحب مقعد مجاور:

«خير يا أمّ علي.. اتفضلي».

جلست.. ثم حاولت تجميع حديثها وهي تفرك يديها والكلام يأتي بصعوبة.

لاحظ الحاج عوض ترددها.. فبادرها:

«محتاجة فلوس.. مبلغ كبير؟».

نفت بشدة.

«لا الحمد لله مستورة.. اللي عايزة أقوله أصعب من كده بكتير».

«قولي يا أمّ علي».

قالت فاطمة بعيون دامعة ونظرة كسيرة وصوت متألم:

«بنتي غلطت.. غلطة كبيرة ومش قادرة أسكت من ساعة ما عرفت».

اعتدل الحاج عوض في جلسته وقد صدمه كلام فاطمة.. حديثها ونظرتها تلك لا معنى لهما سوى أن ابنتها غرر بها أحدهم ويريد التملص من فعلته.. رغم صدمته قرر أنه سيساعدها فقال مطمئنًا:

«غلطة إيه؟.. عمومًا أيًّا كانت الغلطة فهي بنتنا وأيّ حاجة إنتي شايفاها أنا معاكي.. المهم نستر على البنت».

شعرت فاطمة أن كلماتها لم تكن واضحة، وأنها وصمت ابنتها بأكثر مما فعلت؛ فقالت موضحة:

«لا يا حاج.. إنتَ فهمتني غلط.. بنتي غلطت آه بس مش للدرجة دي الحمد لله».

- «طيب الحمد لله.. أُمّال إيه الحكاية؟».

حكت فاطمة ما حكته لها نورا.. كله من بدايته حتى يوم أمس.. حتى رغبتها في الصمت اعترفت بها.

تجمدت ملامح الحاج عوض وهو يستمع لـ«فاطمة» حائرًا.. هل يصدقها ويكذب ما يراه من فاروق أم يكذبها هي ويصدق الحب الذي يراه بين فاروق وكريمة؟

انتهت فاطمة من حديثها.. ولم تجد أيّ رد فعل من الحاج عوض.. فلم يعلق بكلمة واحدة.. بل ظل صامتًا.

تحيرت.. هل تسأله عمَّ ينوي فعله أم تصمت وتنتظر؟

وجدته يقول بلا رد فعل واضح:

«طيب ادخلي كمّلي شغلك يا أم علي».

بحثت سريعًا عن كلمات مناسبة تنهي بها الكارثة التي ألقتها بين يدي الرجل الطيب.. لم تجد فانسحبت صامتة.

انتهى يوم العمل وهي تراقب الحاج عوض من بعيد.. وجدت الحزن يكسو ملامحه رغم ثباته وعدم تغير أيّ شيء من عاداته اليومية.

عندما جاء موعد انصرافها، حملت رزق على كتفها وخرجت من المطبخ متجهة نحو الباب عبر المطعم.

عندما عبرت بجوار الحاج عوض قالت بهمس:

«عايز مني حاجة يا حاج قبل ما أمشي؟».

رد بنفس التجهم والصمت:

«لأ، شكرًا.. اتفضلي».

خرجت وهي تفكر طوال الطريق عن سر صمت الحاج عوض.

تحاول أن تستنتج سبب صمته، أو رد فعله.. ولكنها لم تصل لشيء.

❑❑❑

دخل الحاج عوض منزله وهو لا يزال متجهمًا من أثر التفكير طوال اليوم.

ظل متحيرًا.. هل يصمت ويُتمم الزيجة وكأن شيئًا لم يكن كي لا يكسر قلب ابنته؟ أم يتحدث ويواجه فاروق بما علمه ووقتها ستتبدل الأفراح أحزانًا؟

استقبلته زوجته وقبل أن تتجه للمطبخ لتحضير الطعام سألته بقلق:

«مالك يا حاج؟».

رد باقتضاب:

«مفيش.. كريمة فين؟».

- «في أوضتها.. عايزها في حاجة؟».

- «آه».

جلس الحاج عوض ونادى على كريمة.. فأتته ملبية النداء:

«نعم يا بابا؟».

- «أخبارك إيه».

ابتسمت كريمة وهي تنظر لوالدتها بتعجب من السؤال ثم أجابت والدها:

«أنا الحمد لله كويسة.. هو فيه حاجة؟».

- «لأ.. بسأل عاملة إيه مع فاروق؟».

- «الحمد لله كويسين».

- «هو جاي النهارده؟».

- «آه.. هننزل نشتري حاجات بسيطة لسه مجبناهاش».

صمت الحاج عوض قليلاً.. ثم قال بتردد:

«نادي على أمّ علي وبنتها».

سألته زوجته: «ليه خير؟».

أجابها: «حالاً هتعرفوا».

خرجت كريمة ووقفت على باب الشقة ونادت باسم علي.. بعد قليل أجابتها فاطمة عبر السلم فأخبرتها أن والدها يريدها هي ونورا.

عادت كريمة صامتة والفضول بدأ يسيطر عليها كما سيطر على والدتها التي سألته مرة أخرى ولم يجب.

بعدما استقبلت فاطمة نداء كريمة.. حملت رزق وهي تشير لـ«نورا»:

«قومي ننزل نشوف الحاج هيقول إيه؟».

فوقفت نورا وهي تبكي خوفًا وندمًا: «ليه قلتي لهم؟ مش إحنا قلنا هنسكت ومنتكلمش؟.. ليه تخلي شكلي وحش كده قدامهم؟».

- «وانتي كنتي فاكرة الغلط هيستخبى طول العمر؟!».

- «طيب هو عايزنا في إيه؟».

- «دلوقتي نعرف».

دقائق قليلة حضرت فاطمة تحمل رزق.. وخلفها نورا تنظر في الأرض منكسة الرأس على عينيها آثار البكاء.

كريمة ووالدتها تنتظران أن تفهما سبب استدعاء فاطمة وابنتها بتلك الصورة.

وفاطمة تنتظر حكمًا كان أو عتابًا أو حتى سبابًا.. تعلم أن ابنتها أخطأت وعليهما أن يتحملا نتيجة الخطأ.

والحاج عوض حائر.. مع من يتكلم أولاً؟

نظر حوله ثم وجه حديثه لـ«كريمة»:

«اقعدي يا كريمة.. دلوقتي هنتأكد من حاجة بس اوعديني إنك تتمالكي أعصابك».

كادت كريمة تفقد أعصابها خوفًا.. فخَرَّت جالسة وهي تسأل:

«فاروق حصل له حاجة؟».

رد بسرعة: «لأ.. هو محصلوش حاجة أبدًا».

أمينة: «هو فيه إيه يا حاج؟.. وقعت قلبنا».

عوض: «النهارده عرفت إن فاروق كان بيرسم الحب على نورا من بعد خطوبتكم بشوية.. وطول الفترة دي بيتكلموا ويتقابلوا».

صرخت كريمة مقاطعة.. بينما وقفت نورا خلف والدتها تحتمي بها وتبكي.

كريمة: «مستحيل.. فاروق استحالة يعمل كده.. وهيعمل كده ليه؟.. واشمعنى نورا؟ وعرفها إمتى وإزاي؟.. مستحيل».

عوض: «مش كده وبس.. نورا عرفت إن دي مش أول مرة ولا انتم الاتنين ضحاياه لوحدكم».

كريمة، وهي تبكي: «لا يا بابا.. مش معقول.. طيب أكلمه أسأله؟».

عوض، وهو يخرج هاتفًا من جيبه:

«معاكي حق إنه كلام ميتصدقش.. علشان كده هنتأكد دلوقتي».

وأشار لـ«نورا»، وهو يمسك بالهاتف المحمول:

«ده خط اشتريته وأنا جاي دلوقتي.. اتصلي بفاروق وافتحي الصوت.. اتكلمي معاه واثبتي لنا إن كلامك صح».

شعرت نورا أن خطة الحاج عوض ستفيدها أكثر من أيّ أحد آخر.. ستنتقم من فاروق بكشفه أمام كريمة وأهلها.. ستثبت لهم أنها لم تكن المخطئة وحدها.

أخذت الهاتف وضغطت رقم فاروق الذي تحفظه عن ظهر قلب.

أدارت ظهرها لهم لتتمكن من الحديث محاولة السيطرة على صوتها.

رد فاروق فهمست نورا:

«آلو.. فاروق.. إزيك؟».

رد فاروق سريعًا:

«إزيك يا حبيبتي.. إيه إنتي نزلتي ولا إيه؟».

- «آه.. كنت بشتري حاجة فقلت أكلّمك ضروري».

- «خير.. مالك؟».

- «مفيش، بس كنت عايزة أعرّفك إن درس بكره اتلغى».

- «والحصة الجاية في معادها؟».

التفتت نورا وهي تنظر إلى وجوه الموجودين..

وجدت كريمة تبكي وهي تكتم فمها كي لا تصدر صوتًا كما أمرها والدها.. أمّا أمينة فكانت تربت على ابنتها بعيون دامعة.. والحاج عوض اكفهر وجهه وتجهمت ملامحه أكثر وأكثر.

أمّا فاطمة، فقد بدا عليها الخزي والخجل من ابنتها وحديثها.

ارتبكت نورا وهي ترى كل ردود الفعل على الوجوه التي تتابع حديثها.. فلم تُجِب على فاروق.

سمعته يكرر: «نورا.. آلو.. آلو..».

أشار لها الحاج عوض أن تتحدث وتُنهي المكالمة.

فردت: «أيوه.. الصوت قطع معلش».

- «مقولتيش الحصة الجاية إمتى؟».

- «لمّا أعرف هكلمك أقول لك.. مع السلامة».

أغلقت نورا سريعًا قبل أن تسمع رده.

بمجرد أن أنهت المكالمة هبّت كريمة تصرخ فيها:

«إنتي قليلة الأصل.. أنا مش مصدقة إن كل ده يطلع منك إنتي وانا اللي فاكراكي قطة مغمضة.. بتخطفي خطيبي!!».

عادت نورا فورًا لمكانها خلف فاطمة وهي تبكي.. ورزق بكى على صوت صراخ كريمة.. ووالدتها تحاول تهدئتها.

أكملت كريمة صراخها:

«عملت لك إيه؟؟ ده جزاء الإحسان؟ ده رد جميل أبو يا اللي لمّكم من الشارع».

جحظت عينا فاطمة.. حاولت الرد لكن كريمة مُحقّة.. لم تجد فاطمة كلمات تدافع بها عن ابنتها.. فدفعتها برفق للخارج وهي تتبعها.

استوقفتهم كريمة:

«استنوا هنا.. مش عايزة أشوف وشها تاني قدامي.. امشوا من بيتنا خالص».

نظرت لوالدها وهي تبكي وترجوه صارخة:

«مش هقدر أشوفها قدامي.. يا أنا يا همّا.. يا يمشوا من البيت يا همشي أنا أروح لأخواتي.. مش عايزاهم يا بابا.. مش عايزاهم يا ماما».

تبكي.. تصرخ.. تشعر بروحها تخرج من حلقها وبقلبها يكاد يتوقف من شدة الانفعال.

والدتها تضمها لتهدئتها.. وتردد:

«اللي انتي عايزاه.. حاضر».

ربت الحاج عوض على كريمة.. وقال لـ«فاطمة»:

«اطلعي يا أمّ علي دلوقتي».

صرخت كريمة:

«يمشوا يا بابا.. أرجوك مشّيها من بيتنا».

ردد الحاج عوض: «حاضر.. بس اهدي».

وقفت فاطمة حائرة.. لا تعلم كيف ترد بعد طردها أو ماذا تفعل؟

ورزق يبكي بين يديها ونورا تبكي من خلفها وهي تتشبث بها.

تتماسك من أجل من يستندون عليها و إن كانت في واقع الأمر في أَمَسّ الحاجة لمن يسندها.

ما زالت كريمة في ثورتها.. وما زالت فاطمة حائرة.. والكل عالق بين الصدمة والغضب والألم.

جَرَّت فاطمة أذيال ضعفها وقهرها والأيادى المتعلقة بها وصعدت نحو شقتها.

دخلت ووضعت رزق على الأرض وخلفها نورا...

سألتها نورا: «هنعمل إيه؟».

ردت فاطمة بألم:

«العمل عمل ربنا».

- «هنقعد بعد ما انطردنا؟».

- «ياريت ينفع.. بس خلاص هي قررت ومعذورة.. وأبوها مش هينصفنا عليها».

- «حتى لو ينفع!! إزّاي نقعد بعد ما طردتنا وعايرتنا؟».

- «وإيه اللي خلاها تطردنا؟!.. اسكتي يا نورا علشان اللي هي فيه صعب أوي ربنا يصبرها».

صمتت نورا.. تشعر بالندم على خطئها.. لكن شعورها بالحنق أكبر.. تريد أن تبتعد هي الأخرى بأسرع وقت.

فاطمة في الحمّام.. تُحمّم رزق وتبكي في صمت.

كلما اقتربت من آخر المشوار تبدأ من جديد.

تعبت.. تشعر بأنها ستسقط من الحِمل المتزايد عليها.

تنظر لـ«رزق» وهو يلعب بالماء وهي تحمّمه.. تجده ينظر لها بابتسامة وسعادة.. تبتسم له بدموعها وتضمه تقبّله.. يخفق قلبها.. تشعر براحة كلما ضمته ورأت نظرات السعادة في عينيه.

❑❑❑

ظلت كريمة على حالها في مكانها تبكي ووالدتها تبكي جوارها.

ظل الحاج عوض صامتًا فترة.. ثم تكلم بصوت عميق:

«مش فاهم كل العياط ده ليه؟».

توقفت كريمة لحظة ونظرت له في دهشة مستنكرة السؤال بينما عاجلته زوجته بردها:

«يعني إيه ليه؟ البت كان فاضل أقل من ١٠ أيام وتتجوز تقول لي ليه؟».

نظر الحاج عوض لـ«كريمة» وأمسك يدها وقال بحنو:

«بطلي عياط وفكري إنتي عايزة إيه؟ يا تفرحي إنك عرفتيه على حقيقته قبل الجواز ومهما كان زعلك هيبقى أرحم من بعدين.. يا إمّا لو عايزاه اعتبري نفسك معرفتيش حاجة ولا هو يعرف إننا عرفنا حاجة وكل شيء يتم في معاده.. فكري وقرري اللي يريحك».

كريمة صامتة متحيرة مندهشة.. هل من الممكن أن تتجاهل كل ما حدث وتتمم زواجها من فاروق؟

قاطع والدها أفكارها وهو يقوم من مكانه:

«اتأكدي إن طول ما أنا عايش هعمل لك كل اللي يسعدك.. حتى لو إننا نغمض عنينا عن عيوبه اللي عرفناها.. بس إحنا مش هنعيش لك العمر كله.. لمّا تبقي لوحدك، هو ده الراجل اللي هيحميكي ويصونك؟! .. فكري وخدي قرارك وأنا معاكي في اللي هتختاريه».

سار خطوات.. ثم توقف ملتفتًا لها.. وأكمل:

«بس اوعي تظلمي اللي أضعف منك وتحاسبيه على غلط مش مسئوليته لوحده.. الظلم عاقبته كبيرة أوي دنيا وآخرة وأخاف عليكي من دعوة مظلوم».

❑❑❑

فكرت فاطمة كثيرًا ماذا ستفعل بعدما طُردت.. وهل طردها من المنزل يعني طردها من العمل أيضًا؟

تتظاهر بالنوم رغم يقظتها.. سمعت نورا تسألها:

«ماما.. نمتي؟».

أجابت بعد قليل: «لسّه».

- «طيب هنعمل إيه؟».

- «العمل عمل ربنا».

- «أنا مش عايزة أقعد هنا بعد ما بهدلتنا وطردتنا».

- «مش بمزاجنا.. هي معذورة والغلط من عندنا».

بكت نورا: «متخلينيش أندم إني حكيت لك.. وإنتي كمان يا ماما غلطانة إنك حكيتي لهم.. مش اتفقنا هنسكت؟».

- «اللي حصل».

- «طيب هنروح فين.. ومعاكي كام؟».

- «ولا مليم.. والخوف كمان إن يبقى لا فلوس ولا بيت ولا شغل».

انتفضت نورا جالسة.. وهي تسأل:

«وبعدين.. هنروح فين؟».

- «الله أعلم».

سعل رزق.. فمالت عليه فاطمة تربت عليه:

«اسم الله عليك يا حبيبي».

ارتسم على وجهها الفزع وهي تنتفض من مكانها:

«ده اللي كان ناقصني.. يا رب دبّرني؛ أنا تعبت».

سألتها نورا بقلق:

«فيه إيه؟».

ردت وهي خارجة من الغرفة:

«الواد سخن مولع».

اقتربت نورا من رزق تمسح على رأسه.. بعد قليل عادت فاطمة تحمل بيدها طبقًا به ماء وقطعة قماش وجلست جواره:

«هتعملي له كمّادات بس؟».

- «أعمل إيه بس وأروح بيه فين.. أنا حتى معييش فلوس أجيب علاج لو وديته أيّ مستشفى.. يمكن لحد الصبح يبقى كويس».

- «ماما.. رزق مسئولية واحنا دلوقتي مش قدها.. لا فيه فلوس ولا بيت ويمكن ميكونش فيه شغل كمان زي ما قلتي.. هنعمل إيه.. لو جرى له حاجة هنبقى إحنا السبب».

- «لو أعرف طريق أهله كنت وديته».

- «منعرفش.. بس ممكن نخلي مسئوليتنا منه ونسلمه لدار رعاية هتصرف عليه وتعالجه لو تعبان».

صمتت فاطمة تفكر في كلام نورا.. بالفعل تخشى أن تضره بتمسكها به.. فها هي الآن بلا منزل وقد تصبح بلا وظيفة.. ولا مال لديها.

صمتت وكل اهتمامها أن تنخفض حرارة رزق.

ساعتان وبدأت الحرارة في الانخفاض.. ساعتان تفكر فاطمة في كلام نورا وتجدها مُحقّة.

لِمَ العناد إذن؟.. فلْتُخلِ مسئوليتها قبل أن يصيبه مكروه بسبب حاجتها للمال، وقتها لن تسامح نفسها أبدًا.

تنظر له فتشعر بقلبها سيتمزق في بُعده.. تقبّل يديه وتحادثه:

«غصب عني يا ابني.. لو بإيدي مكنتش أسيبك أبدًا».

في الصباح.. وقبل موعد ذهاب فاطمة للعمل.. أحضرت جميع ملابس رزق ووضعتها معًا.

وقفت أمام السرير تغير له حفاضه ودموعها تنهمر.

استيقظت نورا.. وجدتها تبكي وملابس رزق جوارها فسألت:

«لسّه تعبان؟».

- «لا.. الحمد لله بقى كويس لما السخونية نزلت».

أطالت نورا النظر لملابس رزق وسألت فاطمة:

«هتسلميه؟ والله يا ماما ده أسلم حل واحنا ربنا معانا».

لم ترد فاطمة.. أكملت ما تفعله.. وبعد الانتهاء ضمت رزق وقبّلته..

مسح دموعها من خديها.. وبصوت منخفض قال:

«ماما».

وجذب يدها يقبّلها بحب وفرحة.. أمّا فاطمة، بعد أن سمعته ينطق «ماما» لأول مرة، فقد ضمته لحضنها كثيرًا وهي تقبّله.. وقالت لـ«نورا» بحسم:

«مش هسيبه.. ده بقى حتة من قلبي وكمان حاسس إني أمه.. مش هسيبه أبدًا ولو هحرم نفسي من اللقمة علشانه.. رزقنا ورزقه على الله».



«الاستهانة بخطوة في طريق تحفه المخاطر قد تكون بداية منحدر نحو الهاوية»

في الأسابيع الماضية، ركّزت يسرية في هدف واحد فقط: استعادة زوجها إن كان هناك أخرى أو لم تكن.

في أوقات فراغها كانت تبحث وتقرأ كثيرًا عن أسرار السعادة الزوجية.. أسباب العجز الجنسي وطرق علاجه.. كيفية الاهتمام بكل ما يخص جمال المرأة.. موضوعات متعددة وجدت عنها الكثير سواء مقالات علمية أو موضوعات من تجارب أخريات.

تقرأ لتفهم لتعرف كيف ستتصرف.. وفي رحلة بحثها قرأت عن إحساس لم تصل له يومًا.. واكتشفت أن ما ظنته طبيعيًا هو أقل بكثير من الطبيعي.. علمت وتأكدت أن صالح يعاني من الضعف منذ أول ليلة لهما معًا.. ولكنها لم تفهم حينَها حتى الآن.

بدأت بالبحث خلف صالح دون أن يشعر.

أثناء نومه تبحث في هاتفه.. لكنها تتشتت مع كثرة الأرقام الصادرة والواردة ولا تجد ما يثير شكها.

تتصل بالجريدة دون أن تصرح بشخصيتها.. تسأل عنه فتجده أحيانًا أو يخبرونها أنه في عمل ما.

صالح لا يكذب.. صالح لا يثير شبهات حوله...

إذن.. صالح ليس خائنًا.

اهتمت بتغيير مظهرها واستعانت بمركز تجميل شهير للاهتمام بالجسم والشعر والبشرة وداومت على أداء الرياضة.

غيّرت من «ستايل» ملابسها وتسوّقت بشراهة من أرقى محلات الملابس.

تعلمت قيادة السيارة كما طلب صالح وأعطى لها سيارته.

يسرية متولي.. يُفاجأ بهيئتها الجديدة كل من يعرفها.

يسرية متولي.. مَن لا يعرفها يتأكد أنها ابنة إحدى الأسر الغنية.

يسرية متولي.. أصبحت نظرات الرجال تتعلق بها أينما حلت أو ارتحلت.. إلا رجلاً واحدًا.. وهو ما فعلت من أجله كل شيء.

صالح لم يهتم.. يتجاهلها كالعادة.

عجزت كلماتها عن وصف ما تعانيه من إحباط وفشل وخيبة أمل، وهي تحكي لـ«سمية» من بين دموعها أن كل ما فعلته لم يُثِر في زوجها أيّ رغبة فيها.

حاولت سمية تهدئتها بكلمات لم تقتنع بها إحداهما.

ثم توقفت سمية عن كلماتها:

«يسرية.. مفيش غير حل واحد.. إنتي عملتي أكتر من اللي ممكن أيّ واحدة تعمله».

نظرت لها يسرية برجاء منتظرة تكملة الحديث.. فأكملت سمية:

«لازم تتكلمي معاه.. لو عيّان يتعالج.. إنّما كل واحد فيكم متجاهل الكلام في المشكلة كده يبقى هتتحل إزّاي؟.. إنتي حاولتي لوحدك ومقدرتيش».

ترددت يسرية وهي تقول بصوت ضعيف:

«أروح أقول له إيه؟.. صعب أوي أطلبها يا سمية».

«لأ مش صعب.. الأصعب هو اللي إنتي فيه ده».

ثم أردفت سمية:

«ده حقك.. يعني لما تتكلمي معاه تتكلمي بثقة ومن غير خوف ولا كسوف».

صمتت يسرية وهي تهز رأسها موافقة على كلام صديقتها.

ما عاد بيدها شيء.. استنفدت كل الحيل ولم يعد هناك بدٌّ من المواجهة.

تركت يسرية ملك تبيت عند والدتها.. واتصلت بـ«صالح» تسأله عن موعد عودته.. لم يخبرها بموعد محدد وقررت الانتظار.

قررت أنها ستواجه مشكلتها.. الليلة.

لم تُعدّ عشاءً.. لم تتزين لتدعوه لها وينفر منها ككل المرات السابقة..

جلست في ضوء خافت في مواجهة باب الشقة.. تنتظر.

طال انتظارها وداعبها النوم.. لكنها لم تتزحزح عن قرارها.

ستواجهه الليلة.. وتصل معه لحل.

قبل الثانية صباحًا بقليل سمعت صوت الباب يُفتح.

وصل صالح فانتبهت كل حواسها وضاع النوم الذي كان يداعبها.

لم يلحظها ودخل في اتجاه غرفة النوم.. لكنها وقفت ونادته:

«صالح..».

التفت على مصدر الصوت.. اقترب منها وهو يضغط زر الإضاءة:

«إنتي قاعدة كده ليه؟ فيه حاجة؟ ملك كويسة؟».

- «ملك كويسة وبايتة عند ماما».

- «وإيه اللي مصحيكي لحد دلوقتي؟».

- «مستنياك».

استدار مولّيًا ظهره لها متجهًا لغرفة النوم لكنها استوقفته:

«عايزة أتكلم معاك بس».

التفت لها مرة أخرى وهو يسألها:

«حاجة مهمة يعني؟».

«أوي».

اقترب منها وجلس.. فجلست أمامه تاركة مساحة بينهما وحاولت أن تبدو هادئة وقالت:

«من بعد جوازنا وانت كل حاجة ليّا.. خليتني أسعد واحدة في الدنيا.. أنا بَحبك يا صالح».

- «مالك يا يسرية.. ليه بتقولي لي الكلام ده؟».

لم تستطع التحكم في دموعها التي خانتها.. وارتعش صوتها وهي تسأله:

«إنتَ مخبي عليّا إيه؟».

رد ببساطة: «مبخبيش حاجة».

- « كارهني؟».

فهم ما تقصده واستطاع استنتاج الكلام التالي فنهض واقفًا.

نهضت مُسرعة وهي تتمسك به وترجوه:

«قُل لي إيه اللي باعدك عني.. لو مش عارف السبب تعالى نروح لدكتور ونشوف المشكلة فين وكل حاجة لها علاج».

اقتربت منه تعانقه وهي تبكي.. لكنه دفعها غاضبًا وهو يصرخ فيها:

«دكتور إيه؟.. أنا كويس ومعنديش أيّ مشكلة».

وقفت مشدوهة بعد دفعها.. جاحظة العينين شاخصة البصر.

استمدت قوة من كلمات صديقتها وقالت بصوت مرتفع رغم وهنه:

«هاجرني ليه طول الشهور اللي فاتت دي؟».

لم يرد عليها.. فسبقته وقطعت طريقه ووقفت أمامه وهي تسأله:

«جاوبني.. عايزة سبب».

رد بعصبية: «مفيش سبب.. ومعنديش مشكلة.. ومتتكلميش في الموضوع ده تاني».

أزاحها من طريقه واتجه لغرفته وظلت كما هي واقفة مكانها.

لا تعلم أيّ الأشياء يجرحها ويبكيها أكثر.. هل احتياجها له أم عدم شعوره بها أم كذبه عليها وادعاؤه أنه سليم أم رد فعله ورفضه مجرد الحديث معها؟

لو فقط يضمها ويخبرها أنه يحبها لانطفأت نصف نارها لعلها تخبو تمامًا مع الوقت من حبه وحنانه بدلاً من تأجج جذوتها في وجوده وتجاهله لها.

قضت ليلتها في سرير ابنتها تبكي وتفكر.. كيف ستتصرف.. هل ستصمت كما أمرها أم هناك أمل في إقناعه بالذهاب للطبيب؟

لا بد أن سمية ستساعدها في إيجاد حل.. وحدها سمية تعرف ما تعانيه وتقدّره وتحاول مساعدتها بصدق.

تنتظر مرور الساعات حتى تحكي لصديقتها لعلها تجد لديها الحل.

في الصباح، أدت يسرية دورها اليومي كالمعتاد.. إيقاظ صالح وإعداد الإفطار.. لكنها لم تتحدث معه.

أثناء وجودها في غرفتها ترتدي ملابسها قبل الذهاب للعمل.. سمعت صوت الباب يصفق بشدة.

خرجت من غرفتها تستطلع الأمر.. وجدت الطعام كما هو لم يُمَس وصالح غير موجود.

ذهبت بحزن تلم الإفطار وأعادت كل شيء لمكانه ثم ارتدت ملابسها وذهبت للعمل.. متعجلة لقاء سمية.

وصلت لمكتبها.. كان خاويًا.. جلست خلف مكتبها منتظرة وصول سمية.

الساعة تجاوزت الثامنة والنصف ويسرية عيناها معلقة بالباب.

في التاسعة إلا الربع وصل فاروق.. دخل المكتب:

«صباح الخير».

ردت يسرية: «صباح النور».

نظر للمكتب الخاوي فسأل:

«هو محسن وسمية لسّه مجوش؟».

- «آه لسّه.. مش عادتهم يتأخروا كده».

- «هما مقدمين على إجازة؟».

- «لا، سمية مكلماني امبارح على إنها جاية».

أخرجت يسرية هاتفها وهي تردد:

«هكلمها أشوف».

بعد قليل.. أجابت سمية على الاتصال:

«صباح الخير يا سمية.. اتأخرتم ليه.. لا إله إلا الله.. البقاء لله.. طيب الجنازة إمتى.. مستشفى إيه؟.. طيب مع السلامة».

فاروق منتبه مع كلمات يسرية.. وبمجرد أن أغلقت الهاتف سألها:

«فيه إيه؟».

- «مامة محسن توفت الفجر».

- «الله يرحمها.. تعبانة بقالها فترة».

صمتت يسرية حزنًا.. صدرها يضيق أكثر وأكثر..

وجاءت حالة الوفاة لتجبر يسرية على الصمت أيامًا أخرى احترامًا لحالة الحزن وأيام العزاء.

تنهدت بحزن وهي تبتلع أحزانها وأسرارها داخلها.

سألها فاروق:

«هتدفن الضهر ولا إمتى؟».

- «الضهر.. متهيأ لي المفروض نكتب ورقة ونعلقها على الباب تحت علشان اللي عايز يحضر العزا».

- «هكتبها وأروح أطبعها في السكرتارية وأعلقها تحت».

نهض فاروق خارجًا.. ونهضت يسرية متجهة لمكتب سمية.. أخذت بعض الملفات من الدرج وعادت بها لمكتبها.

أرادت أن تُلقي ضيقها بين الدفاتر، وتقذف بتفكيرها في الأعمال الإدارية لعلها تتخلص من بعض حزنها.

بعد قليل عاد فاروق.. وجدها منهمكة في العمل.

بعدما لاحظت دخوله نظرت له قائلة:

«أنا هعمل شغل سمية جنب شغلي علشان ميتراكمش عليها.. لو تقدر تخلص شغل محسن كمان ياريت».

رد وهو متجه لمكتب محسن:

«ماشي.. نخلص اللي نقدر عليه علشان نمشي قبل الضهر.. مش إنتي هتروحي ولا هتعزيهم بعدين؟».

- «هروح طبعًا.. بس هستأذن بدري شوية أروح أغيّر هدومي وأروح لهم».

رن هاتف المكتب.. فرد فاروق ثم قال:

«يسرية.. مامتك».

نهضت يسرية عن مكتبها وتناولت الهاتف وهي ترد:

«أيوه يا ماما.. كنت هكلمك بس استنيت تصحوا براحتكم.. ملك نايمة؟».

ثم تغيّرت ملامحها وهي ترد:

«هو كلّمك قال لك إيه؟.. يا ماما حرام عليكي أنا اللي بنتك».

ثم زفرت وهي تقاطع والدتها:

«ماما.. أنا في الشغل لما آجي نتكلم.. يمكن اتأخر علشان هروح عزا حماة سمية.. لأ مش هتصل بيه.. مع السلامة».

عادت يسرية لمكتبها.. عادت تتظاهر بالنظر في الأوراق التي بين يديها.

اتصل صالح بوالدتها يشكو منها.. والدتها تلومها!!

دومًا تلومها في أخطائها الصغيرة حتى تحتفظ بعلاقتها الجيدة بـ«صالح».

منذ انضمام صالح لأسرتهم الصغيرة وتحمّله مسئوليتهم والعلاقة تتوطد بين صالح ووالدتها.

تقارب عمريهما، وتحمّله مسئوليتهم جعلهما كصديقين، فكل صغيرة وكبيرة تحدث في منزل لبيبة يعلمها صالح، بداية من مصروف البيت وفاتورة الكهرباء.. مرورًا بتقصير يمنى أحيانًا في مذاكرتها، وصولاً للطامة الكبرى التي اكتشفتها لبيبة وهي أن يمنى تحب.

صالح كان ولا يزال رجلاً مميزًا.. عوضهما حقيقة عن متولي.

صالح رجل عاقل حكيم.. هو الذي احتوى شقيقتها الصغرى ووعدها بالوقوف جوارها إن وجد عمرو يستحقها على أن تعده أن تبتعد عنه إن كان لا يستحق.

صالح هو الذي بارك علاقة الحب بين يمنى وعمرو عندما اكتشفتها لبيبة.

لو لم يهجرها ما شعرت بالحزن أبدًا.. لو لم ينهرها أمس بتلك الطريقة لارتضت بكل ما جَدّ في علاقتهما.

تريد حبه وحنانه.. تريد تعويضًا منه عن حرمانها.

لم تنتبه سوى بعد سقوط قطرة من ماء عينيها على الأوراق التي انكفأت عليها دون أن تتبين حروفها منذ مكالمة والدتها.

- «مكنتش أعرف إن الحسد مفعوله سريع أوي كده».

رفعت عينيها على صوت فاروق وهي تمسح دموعها.. فوجدته يحادثها.. لم تستوضح كلماته فسألته:

«بتكلمني؟».

نظر حوله للمكتب الخالي وأجابها:

«مفيش غيرنا.. أيوه بكلمك».

- «معلش مسمعتش.. بتقول إيه؟».

- «بقولك مكنتش أعرف إن الحسد مفعوله سريع أوي كده».

سألته مستوضحة:

«مش فاهمة».

«دموعك دي والحزن اللي في عينك.. وكلام الشغل كله عنك».

«كلام عني؟.. مين بيتكلم وبيقولوا إيه؟».

دخل أحد زملائهما يتأكد من وفاة والدة محسن ويستوضح عن مكان العزاء..

تريد يسرية أن يغادر سريعًا لتفهم ما يقصده فاروق وأيّ كلام يتحدثون به عنها.

غادر الزميل بعد دقائق.. سألت فاروق:

«مين بيتكلم عليا وبيقولوا إيه؟».

- «بيتكلموا عن التغيير اللي اتغيّرتيه الفترة الأخيرة.. الستات بتحسدك على جمالك والرجالة بيحسدوا جوزك عليكي».

كانت تقصد أن تتغير هيئتها بالفعل ولكن من أجل صالح وحده.

أكمل فاروق كلامه:

«كلهم بيقولوا أكيد انتم أسعد اتنين في الدنيا».

ليتها كانت سعيدة.. ليتها كأيّ واحدة من زميلاتها أقل جمالاً ومالاً، لكنها تسعد بأنوثتها.

تتألم وهو يكمل:

«اتحسدتي يا يسرية.. واضح من كلامك مع مامتك إن حصل مشكلة بينك وبين جوزك».

تشعر يسرية بالألم.. كلمات فاروق تضغط على جرحها.. كلما تحدث شعرت بالضغط أكثر وأكثر.

شعرت بسخونة دموعها على وجنتيها وهي تردد:

«يحسدوني على إيه.. ده اللي أنا فيه محدش يستحمله أبدًا».

نخفي مشاعرنا كثيرًا.. حتى تأتينا لحظة نريد فيها البوح بكل ما في صدورنا.

لحظة نفقد فيها السيطرة على تفكيرنا وكلماتنا.

قد نبوح لغريب لا يعرفنا فنُلقي ما بنا ونفترق.

قد نبوح لصديق يحمل معنا ما نُخفيه ويؤلمنا.

ولكن.. أن يشأ القدر أن يرسل إلينا الشخص الخطأ في تلك اللحظة التي ينفلت منا فيها زمام اللسان ليجهر بما في الصدور، فهذا هو جواز مرور نحو الجحيم.. عاجلاً أو آجلاً.

❑❑❑

أنّبت يسرية نفسها كثيرًا أنها حكت لـ«فاروق» عن ضيقها من حياتها وعن الألم الكبير الذي تشعر به.

أخبرته أن سبب المشكلة أنها لا تشعر بحب زوجها لها.. لم تزد في تفاصيل ولكنها تحدثت عن ألمها وعن عدم ثقتها بنفسها.

لا تنكر أن كلماته ومدحه لها خففت شعورها.

سألته عن تفاصيل ما سمعه من زملائه وزميلاته.. لمجرد فقط أن تسعد بكلمات المديح.

نفور صالح ليس ذنبها.. بل هو ستار يخفي وراءه عيبه هو.

رنت يسرية جرس الباب ففتحت ملك.. ارتمت بين ذراعيها بسعادة:

«وحشتيني يا ماما».

ضمتها يسرية وهي تقبّلها:

«وانتي كمان يا حبيبتي».

- «خالتو هنا.. تعالي».

سحبتها ملك من يدها.. دخلت لغرفة يمنى وجدتها على السرير.

نهضت يمنى بتثاقل:

«إزيك يا يسرية؟».

سلمت يسرية على شقيقتها وهي تسألها:

«مالك؟.. ماما مقالتليش إنك هنا لمّا كلمتها».

- «لا، ما أنا لسّه جايّة من شوية كنت بجدد البطاقة وتعبت من اللف في الشمس فجيت فجأة».

دخلت عليهما والدتهما وقبل أن تسلم على يسرية:

«هو فيه إيه يا يسرية؟.. صالح زعلان أوي».

نظرت يسرية لابنتها وقالت:

«معاد الكرتون اللي بتحبيه.. روحي اتفرجي».

ثم ردت يسرية بألم على والدتها بعد مغادرة ملك:

«وقال لك زعلان ليه؟».

الأم: «لمّا سألته مقالش حاجة غير إني أعقلك وبس».

يمنى: «متزعّليهوش يا يسرية.. عمو صالح راجل مفيش منه اتنين».

جلست يسرية تبكي بقهر.. الجميع يلومها ولا أحد يعرف ما بها.

قالت والدتها: «اعقلي واتصلي بيه راضيه».

قالت يسرية من بين دموعها، متجاهلة كل الحدود الموجودة من قبل، ودون خجل، بعدما فاض بها:

«عايزاكي تسأليه سؤال واحد.. ليه بقاله أكتر من ٧ شهور هاجرني ومبيقرّبش مني؟».

صُدمت لبيبة من كلمات يسرية.. كما صُدمت يمنى.

تبادلت يمنى ولبيبة نظرات الصدمة دون أيّ كلمة.

فقالت يسرية:

«اسأليه يمكن أعرف السبب وأرتاح».

رددت لبيبة بصوت خافت متردد:

«يمكن قصرتي معاه في حاجة».

ابتسمت يسرية بسخرية:

« كله قدام عينك.. قولي لي قصرت في إيه؟».

ردت يمنى: «علشان كده الفترة اللي فاتت غيَّرتي من نفسك كتير.. لا يا ماما هي مقصرتش في حاجة.. جميلة وشاطرة ونضيفة ومحترمة.. تعمل إيه تاني؟».

الأم: «يمكن زعلان منك في حاجة؟».

يسرية: «هيزعل من إيه.. بيعاملني عادي جدًا بس لو شافني بتقرّب منه واحنا لوحدنا يقلب عليّا في لحظة ويبقى واحد تاني».

ثم أكملت يسرية بعد الصمت الذي ساد بينهن:

«بدل اشتكى لك اسأليه عن السبب شوفي هيقول لك إيه؟».

ردت لبيبة بسرعة: «لأ طبعًا، مقدرش أسأله في حاجة زي دي».

يمنى: «مسألتيهوش انتي ليه يا يسرية؟».

ردت يسرية وهي تتذكر عصبيته ودفعه لها:

«سألته.. زعق وقال لي ماتكلمش في الموضوع ده تاني واهو اشتكى لماما وهو اللي زعلان.. ممكن بقى حد يقول لي أتصرف إزّاي وأعمل إيه؟».

ردت لبيبة: «هتعملي إيه يعني.. هتسكتي وتصبري وتعيشي».

استنكرت يمنى: «إزّاي يا ماما؟.. وهي فين حقها؟».

نهرتها لبيبة: «حق إيه.. إيه البجاحة اللي انتم فيها دي.. دي حاجة بين الراجل ومراته متخرجش بره أوضة نومهم.. يحصل ميحصلش محدش يسمع عنهم حاجة».

نهضت لبيبة هاربة من حوار ترفض الخوض فيه.

لم تتفاجأ يسرية.. رد فعل والدتها كان متوقعًا.

أمّا يمنى فقد تألمت لحال شقيقتها.. ربتت على يدها:

«متسمعيش كلام ماما.. حقك تعرفي ليه بعيد عنك وحقك عليه إنه لو تعبان يتعالج».

ابتسمت لها يسرية بحب عندما أحست أنها تشعر بها.. فقالت:

«رفض يا يمنى.. مش عايز يواجه الحقيقة».

صمتت يمنى قليلاً.. ثم قالت:

«يبقى حقك تقرري هتقدري تكمّلي كده ولا لأ».

صمتت كل منهما.. يمنى تتألم لشقيقتها.. ويسرية تفكر في كلام شقيقتها.. فقالت باستفهام:

«أكمّل ولّا لأ.. يعني قصدك إيه؟».

تراجعت يمنى عن جملتها سريعًا وقالت لـ«يسرية»:

«حاولي معاه تاني يا يسرية.. يمكن حاجة عابرة وهيرجع معاكي عادي».

رددت يسرية بألم:

«يمكن».

❑❑❑

سار فاروق يدخن شاردًا وهو عائد من عزاء والدة محسن مساءً.. وحيدًا تمزقه الوحدة بعدما تركته كريمة وابتعدت عنه نورا.. لم يحاول كثيرًا مع أيّ منهما.. استسلم لقرارهما.

كثيرات كُنَّ يرجونه أن يظل معهن.. لكنه إن مَلَّ واحدة أو إن اكتشفت إحداهن خيانته يتركها فورًا ولا يستطيع أن يكمل معها أبدًا.

يكره أن تطارده إحداهن بعد تركه لها.. لذا ما طلب من واحدة أن يستبقيها معه.

وهكذا كان الحال مع كريمة ونورا.. لم تختلفا عن سابقاتهما.

لكن.. هذه المرة يفتقد شعور الحب الذي كان يعيشه.. يفتقد الاهتمام الذي تعوّد عليه.

يزفر دخان سيجارته بضيق.. متى سيتزوج؟!

يحتاج امرأة في حياته.. امرأة لا تتركه ولا يتركها بسهولة حتى إن كان الرابط هو الزواج وليس الحب.

يحتاج أن يصبح أبًا.. وعدته والدته أنها ستبحث له عن عروس بديلة في أسرع وقت.

كم ستحتاج لتجد له المواصفات التي يطلبها؟

يريدها من أسرة ميسورة تتقبل ظروفه وتساعده.

أضاع كريمة من يده.. لماذا تسرع وألقى شباكه على نورا؟

لو كانت أخرى بعيدة لكان تم الزواج الآن.

نورا.. أثارته براءتها فلم يستطِع المقاومة.

بريئة شهيّة بها شيء مختلف.. أكثر جمالاً من كريمة.

جمال.. اليوم فقط اكتشف أن كلهن كُنَّ أقل جمالاً من يسرية.

جميلة يسرية ومثيرة أيضًا.. الحزن القابع خلف عينيها يثير فضوله.

كيف لم ينتبه لجمالها من قبل.. ثلاث سنوات زملاء مكتب واحد لم يرَها كما رآها اليوم.

سيلقاها غدًا.. سيستزيد من نظراتها الحزينة التي تسري الخدر في جسده.. سيسألها ليسمع صوتها الذي يعزف ألحانًا شجية وهي تحكي.

من أين لها بكل هذا الحزن وهي زوجة رجل ناجح شهير، يرأس تحرير جريدة معروفة ويحل ضيفًا في البرامج الحوارية، ميسور الحال يلبي لها كل ما تحتاج.. لِمَ الحزن إذن؟ هل كل النساء كذلك.. يُغمضن أعينهن عن المزايا ويرَين فقط عيبًا في خيالهن؟

ما معنى أنه لا يحبها.. كيف لأحد يراها ويعيش معها ولا يحبها؟!!

❑❑❑

عادت يسرية إلى منزلها مساءً.. لم تتحدث مع صالح على الهاتف طوال اليوم ولم يتحدث إليها رغم المكالمات بينه وبين لبيبة.

لم تنتظره وباتت ليلتها بجوار ملك.

في الصباح، قامت بدورها اليومي بآلية.. لم تجلس معه على الإفطار.. وارتاح صالح لذلك.. فتجنبها له يعني عدم المواجهة.

انتهى صالح من إفطاره.. ودّع ملك بتقبيلها وغادر المنزل.

خرجت يسرية بعد نزوله لجمع الأطباق وتنظيف المائدة.

أعدت سندويتشات لها.. وعدّلت من ملابس ملك وأخذتها وغادرت المنزل.

وصلت يسرية مكتبها بعدما وصّلت ملك لوالدتها.. دخلت المكتب وجدت فاروق جالسًا.

ألقت التحية وهي تنظر حولها:

«صباح الخير».

رد فاروق بابتسامة:

«صباح النور».

وأكمل: «أنا جاي من بدري النهارده علشانك».

التفتت له يسرية: «علشانى؟!!»

أجاب وهو ينهض عن مكتبه و يقترب من مكتبها:

«آه.. علشان أيّ شغل ميبقاش عليكي لوحدك وسمية ومحسن في الإجازة».

ردت ممتنة: «شكرًا.. بس عادي الشغل مش كتير للدرجة دي».

سألها وهو يوجه نظره لها مباشرة:

«إيه اللي بيفرّحك يا يسرية؟».

صمتت تفكر فيما يفرحها.. وتنهدت بألم وهي تجيب:

«الحمد لله».

- «أكيد الحمد لله على كل حال.. بس بجد إيه اللي لو حصل دلوقتي ممكن يفرحك».

سألته لتجيب عن السؤال:

«دلوقتي بالظبط يعني؟».

- «آه».

فكرت.. وتخيلت.. لو يأتي صالح لها يصالحها و يعتذر لها عن معاملته.. و يتكلم معها عن عجزه و يذهبان معًا للطبيب و يتم علاجه وتعود حياتهما معًا كما كانت...

سمعت صوت فاروق يسألها:

«إيييييه.. رُحتي فين؟».

- «بفكر في اللي يفرحني».

- «و إيه هو؟».

- «إن أنا وجوزي نبقى كويسين مع بعض.. نعيش في سعادة إحنا وبنتنا».

- «ولو قلت لك خلي إجابتك حاجة أقدر أعملها».

رفعت يسرية حاجبيها متسائلة:

«حاجة تقدر تعملها إزّاي.. مش فاهمة؟».

- «أيّ حاجة ممكن تفرّحك وأقدر أعملها دلوقتي علشان تبتسمي من قلبك وعيونك تلمع.. بدل الحزن اللي باين فيهم ده؟».

ردت بامتنان:

«شكرًا يا فاروق على ذوقك.. أنا كويسة والحمد لله».

نهض عائدًا لمكتبه وهو يؤكد عليها:

«الحمد لله.. بس لو فيه أيّ حاجة ممكن أعملها لك اطلبيها فورًا ومن غير تردد.. ماشي؟».

هزت يسرية رأسها موافقة وتمتمت بامتنان:

«ماشي».

لم ينقضِ اليوم كأيّ يوم سابق.. بين الحين والآخر كان يتبادل معها فاروق الحديث..

حكى لها عن خطبته التي فُسخت بسبب تغيير اتفاق أهل عروسه معه فجأة.

حكى لها عن إحساسه بالوحدة ورغبته في الاستقرار.

لم تكن حكاياه سوى مدخل ليكتسب منه تقرّبًا لـ«يسرية».

كانت تسمعه وتتعاطف معه.. وفي الوقت نفسه كلما سألها عن تفاصيل خلافها مع زوجها تتهرب من ذكر السبب الرئيسي.. لكنها حكت عن توتر علاقتهما، وشعورها بالوحدة هي أيضًا.

خلال إجازة محسن وسمية.. عرف فاروق عن يسرية الكثير وعرّفها عنه أيضًا الكثير.

أيام قليلة حدث فيها ما لم يحدث خلال السنوات الماضية.. ملأ كل منهما فراغ الآخر.. في غياب الصديق والحبيب.

عاد محسن وسمية من إجازتهما.. فاجتمع الأربعة في المكتب، وتراجعت علاقة فاروق بـ«يسرية» قليلاً.. رغمًا عنه.

تلك الأيام.. كان يشغل فاروق السر الذي تُخفيه يسرية ولا تريد الإفصاح عنه.. السر الذي جعلها أكثر جمالاً لكنه جمال دون بريق.. جمال ينقصه سعادة وإشراق.

ماذا ينقصها لتحزن؟

لا بد أن يعرف والفرصة الوحيدة أن يعرف من محسن، زوج صديقتها المقربة.. استغل انفراده بمحسن وهما صاعدان للمكتب.. قال له وهو يتصنع الهدوء وعدم الاهتمام:

«مش ملاحظ حاجة يا محسن؟».

سأله محسن بعدم فهم:

«حاجة إيه؟».

- «يسرية اتغيرت كتير».

- «طبعًا ملاحظ».

صمت محسن ولم يكمل.. والكلمات البسيطة لم تشبع فضول فاروق؛ فقال معقبًا:

«جوزها هو اللي خلاها تهتم بنفسها كده.. أكيد هو اللي طلب ده.. مش كده؟».

ابتسم محسن وهو يميل على فاروق:

«جوزها إيه بس؟.. ده جوزها ولا شايفها أساسًا».

سأله فاروق:

«متجوز عليها؟».

هز محسن رأسه نافيا وقال ساخرًا:

«ميقدرش».

سأله فاروق وقد استبد به الفضول:

«بيخونها؟».

ضحك محسن قائلاً:

«يا عم بقول لك ميقدرش.. دول بقوا إخوات».

اندهش فاروق فتوقف للحظات.. سبقه فيها محسن على درجات السلم.. ثم أفاق من اندهاشه سريعًا حتى لا يلاحظه محسن.

هذا السبب إذن.. تحمل وجهًا جميلاً وقلبًا حزينًا بسبب انصراف زوجها عنها.

ابتسم بانتصار وهو يصعد خلف محسن.. دخل المكتب وهو يثبت نظراته عليها.. وعندما التقت عيناهما ابتسم لها وجلس خلف مكتبه.

❑❑❑

عادت العلاقة عادية فاترة بين يسرية وصالح.. حياتهما باهتة بلا روح.. لا يحييها سوى وجود ملك بينهما.

أحلى ما في يومها هي الساعات التي تقضيها في عملها، بصحبة سمية... ومحسن وفاروق.

ابتسمت وهي تتذكر فاروق.. لم تنتبه من قبل لخفة دمه وحلاوة لسانه وقوة ملاحظته.

يلاحظ يوميًّا ما لم يلاحظه أحد.. حتى زوجها.

يُبدي إعجابه بملابسها.. بدرجة لون شعرها الذي يظهر جزء منه من تحت طرحتها.. رائحة عطرها.. طلاء أظافرها...

تفاصيل صغيرة وكلمات قصيرة تسعدها.. سعادة تفتقدها.

تمشّط يسرية شعر ملك بسرعة في غرفتها وهي ما زالت بملابس النوم.. بعدما انتهت خرجت وملك في يديها.

وجدت صالح جالسًا يتناول إفطاره:

«خد ملك معاك ودّيها لماما».

سألها: «مش هتوديها ليه النهارده؟».

- «مفيش.. ورايا حاجات هخلصها وبعدين هنزل فمش عايزة أتأخر.. لو مش عايز خلاص».

رد وهو ينهض بعدما انتهى من طعامه:

«لأ، مفيش مشكلة.. يلّلا يا ملك».

ودّعتهما يسرية.. وجمعت الأطباق ونظفت المائدة سريعًا ثم دخلت غرفتها.. أخرجت من دولابها طقمًا جديدًا.. تفكر وهي ترتديه..

ماذا سيكون رأي فاروق عندما يراه؟

انتهت من ارتداء ملابسها وبدأت تضع مساحيق التجميل عندما شعرت بألم في بطنها.. تجاهلته وأكملت زينتها.

الألم يتزايد.. تناولت قرصًا مسكنًا قبل خروجها من المنزل.

عندما جلست في سيارتها.. اشتدت آلامها.

أخرجت هاتفها بسرعة.. وهي تكاد تصرخ من الألم:

«صالح.. الحقني أنا تعبانة أوي».

❑❑❑

دخل فاروق المكتب متأخرًا كالعادة.. ألقى نظرة على مكتب يسرية الخاوي..

ألقى التحية ولم يسأل عنها وجلس ينتظرها.

تأخرت.. لم يستطع صبرًا فسأل سمية:

«هي يسرية إجازة النهارده؟».

سمية: «مقالتش حاجة.. يمكن اتأخرت لأيّ سبب وزمانها جاية».

صمت فاروق ينتظر.. وعيناه تراقب الباب.

تماسك كي لا يسأل مرة أخرى حتى وصلت الساعة العاشرة والنصف.. وسمع سمية تتحدث في الهاتف:

«آلو.. مش ده تليفون يسرية؟.. إزيك يا طنط أنا سمية صاحبتها.. عملية إيه؟ .. فجأة كده؟.. طيب هستأذن من الشغل وآجيلكم.. انتم في مستشفى إيه؟».

أغلقت سمية الهاتف.. وسألها محسن.. وفاروق يتابع الحديث باهتمام:

«فيه إيه؟».

- «يسرية تعبت الصبح وراحت المستشفى قالوا زايدة.. وهي في العمليات دلوقتي.. أنا هروح لها وأبقى أكلمك أقول لك هروّح إمتى».

غادرت سمية مسرعة للذهاب إلى يسرية.. ظل فاروق جالسًا يتظاهر باللامبالاة والقلق يساوره.. ولا يعرف كيف يطمئن.

حتى اليوم التالي.. وصل باكرًا على غير عادته.. وجد سمية ومحسن.. فسأل سمية:

«رُحتي ليسرية إمبارح؟».

- «آه.. وفضلت معاها لحد ما فاقت الحمد لله».

- «وهتخرج من المستشفى إمتى؟».

- «قالوا يا بالليل يا النهارده الصبح.. شوية كده وأتصل أشوف إيه الأخبار».

عادت سمية لعملها.. وتظاهر فاروق بالعودة لعمله.

يفكر في يسرية.. ينتظر بصمت حتى تتصل بها سمية ويطمئن عليها.

قبل الثانية عشرة ظهرًا.. سمع فاروق المكالمة التي ينتظرها..

سمع سمية وهي تتحدث مع يسرية.. تابع حديثها حتى انتهت.

فعلق قائلاً لـ«محسن»:

«هو مش واجب نروح نزورها كلنا».

أجابه محسن: «ماهي سمية مسابتهاش وهتروح لها تاني».

قال فاروق: «واجب برضه نزورها».

لم يلقَ تشجيعًا من محسن.. فقال لـ«سمية»:

«أو على الأقل نكلمها في التليفون.. ادّيني رقمها يا سمية لو سمحتي».

❑❑❑

جلست يسرية في سريرها بعد مغادرة سمية تعيد الكلمات في رأسها مرة أخرى.

فاروق سأل عليها وكان يود أن يأتي لزيارتها.. فاروق أخذ رقم هاتفها.. ربما يتصل في أيّ وقت.

بحثت حولها.. لم تجد الهاتف.. نادت على والدتها وسألتها:

«ماما.. فين تليفوني؟».

بحثت الأم حولها:

«كان موجود.. مش عارفة حطيته فين؟».

ثم نظرت خارج الغرفة:

«مع ملك بتلعب بيه».

- «نادي لي عليها يا ماما».

- «عايزة حاجة تانية؟».

- «صالح هنا؟».

- «لا، في الشغل».

- «فيه حد اتصل بيّا النهارده على تليفوني؟».

- «لا، مفيش».

خرجت لبيبة ثم دخلت ملك بعد قليل.

أشارت لها يسرية بالجلوس:

«اقعدي جنبي يا ملك.. العبي وانتي هنا».

تمددت يسرية على السرير وعيناها على ملك التي تجاورها ورأسها مشغول بـ«فاروق».. وهل سيتصل حقًا؟ متى؟

□□□

ثلاثة أشهر مرت منذ أول مكالمة تلقتها يسرية من فاروق ثاني يوم إجرائها العملية.

ثلاثة أشهر والمكالمات لم تنقطع بينهما.. تحول الاهتمام اليومي بكلمات معدودة في ساعات العمل.. لحب متبادل بينهما في المكالمات البعيدة عن العيون والآذان.

للحب هالة يستشعرها أصحاب القلوب النابضة.

شعرت سمية وارتاب محسن.

وسأل كل منهما صديقه على حدة.

أنكر فاروق ولم تستطِع يسرية إنكار حبها وكتم سرها عن صديقتها المقربة.

اعترفت لها بأنها في حبه غارقة ولكنها تقاوم ذاك الحب.

بررت أن ما بينهما لم ولن يتعدى حدود المكالمات الهاتفية.. أكدت أنها مكالمات لا تختلف كثيرًا عن حديثهما اليومي في العمل.

صدق اعترافها ولم تصدق في التفاصيل.. فتوارت الحقيقة المخجلة خلف مبررات واهية.

حذرتها صديقتها من خطورة ما هي مُقدِمة عليه.. لكنها بكت وتوسلت ألا تلومها.. فهي لم تخطئ وقلوبنا ليست بأيدينا.



مرت الحياة عادية فاترة كالعادة في الفترة الأخيرة بين يسرية وصالح.

كفّت عن محاولات التقرب منه.. ولم تكف عن الاهتمام بنفسها وجمالها.

تشعر بالراحة في عدم وجوده.. قللت من زياراتها اليومية لوالدتها واستقرت في بيتها.. حتى تتمكن من استقبال مكالمات فاروق والاتصال به في أيّ وقت شاءا.

في الليل، وعند عودة صالح.. إن طلب طعامًا أعدته و إن لم يطلب انسحبت لغرفة ملك تبيت فيها.

ارتاح صالح لتلك الحياة.. استنتج أن لبيبة أقنعتها بعدم الحديث معه في أمور تسبب عصبيته -دون تسمية أو تفاصيل لتلك الأمور- لا يهمه إن كانت يسرية أخرجت السر لوالدتها.. فهو يعلم تمامًا أن والدتها سيدة متفهمة للحياة أكثر من ابنتها لذا أقنعتها بأن الحياة يمكن أن تسير هكذا بالود فقط.. ولا بد أن يسرية ارتضت بحياتهما معًا.

❑❑❑

ثلاثة أيام ويسرية حبيسة منزلها.. لم تذهب للعمل رغمًا عنها بسبب إصابة ملك بنوبة حساسية صدر وبقائها في المنزل لتلقي العلاج.

ثلاثة أيام وقبلهما يوما الإجازة الأسبوعية.. قاربت على الأسبوع ولم ترَ فاروق.. يكاد الشوق يقتلها.

في الأيام الثلاثة الماضية مكالماتها مع فاروق قليلة.. فوجود لبيبة معها الليلتين الماضيتين بسبب مرض ملك، واحتياج ابنتها لها ووجود صالح أيضًا.. كل تلك الأسباب جعلت مكالماتها مع فاروق دقائق معدودة.. دقائق لا تكفي لغياب الأيام.

الليلة.. أخبرها صالح أنه سيبيت ليلتين في شرم الشيخ مع وفد صحفي لأحد المؤتمرات.

الليلة.. اضطرت لبيبة إلى الذهاب لتبيت مع يمنى بسبب متاعبها في الحمل.

الليلة.. ستتحدث مع فاروق كثيرًا.. ربما تقضي الليل بأكمله تُبحر في بحر حبّه وكلماته التي لم تسمع مثلها من قبل.

حدثته خلال اليوم أنها ستحادثه بعد نوم ملك.. لينتظرها.

بعد منتصف الليل بقليل، نامت ملك بعد تناولها الدواء.

بعدها.. دخلت يسرية غرفتها وأغلقتها.. تمددت على سريرها وأخذت الهاتف الأرضي جوارها.. واتصلت بـ«فاروق».

امتد حديثهما لساعات.. لم يشعرا بالوقت، حتى سمعت يسرية صوت سُعال متصل.

استأذنت من محدثها:

«صوت ملك صحيت.. هروح أشوفها وأرجع لك».

نهضت يسرية.. ذهبت لـ«ملك».. وجدتها تسعل بشدة.

اقتربت منها: «ملك.. مالك يا حبيبتي؟».

حاولت ملك الكلام.. لم تستطِع من شدة السُّعال.

أحضرت يسرية كوبًا من المياه وهي تربت عليها:

«اشربي يا حبيبتي يمكن الكحة تخف».

سالت دموع ملك وهي تشير لوالدتها بأنها لا تستطيع الكلام.

لاحظت يسرية أن ابنتها تكاد تختنق؛ فزعت.

هرعت للهاتف الموجود على السرير بغرفتها.. تناولت السماعة:

«بنتي تعبت والأزمة جت لها ولازم أودّيها المستشفى حالاً».

استوقفها فاروق:

«هتروحي فين دلوقتي؟».

«أقرب مستشفى.. أنا هقفل وبعدين نتكلم».

أغلقت الهاتف سريعًا.. أخذت إسدالاً وذهبت لـ«ملك» التي ما زالت تسعل.. ارتدت الإسدال وحملتها وأخذت هاتفها ومفاتيحها ومحفظة نقودها ونزلت مسرعة.

في المستشفى وضعت ملك تحت جهاز التنفس الصناعي وبدأت تتحسن.. هدأ ذعر يسرية أيضًا وتمكنت من الرد على اتصالات فاروق المتكررة.. بمجرد ردها صرخ فيها:

«إزّاي تقفلي كده من غير ما تقولي لي هتعملي إيه؟».

بكت وهي تحكي:

«ملك كانت هتموت.. حسيتها بتتخنق قدامي».

رق قلب فاروق فلان صوته وسألها باهتمام:

«إيه اللي حصل؟ عندها إيه؟».

- «جت لها الأزمة شديدة ومكانتش قادرة تاخد نفسها.. الحمد لله دلوقتي بقت أهدا ومحطوط لها تنفس صناعي».

- « كلمتي حد؟».

- «لا.. هكلم مين بس دلوقتي؟».

- «مسافة السكة هكون عندك.. إنتي في مستشفى إيه؟».

- «مفيش داعي.. خليك مرتاح».

- «مش هسيبك لوحدك إنتي وبنتك وش الفجر».

أغلق فاروق.. نظرت يسرية لنفسها ونزولها دون استعداد أو اهتمام.. وبدون مساحيق التجميل.

صمتت وهي قلقة أن يراها فاروق أقل جمالاً مما تعوّد.

❒❒❒

من المرات القليلة التي لم يكذب فيها فاروق..

أسرع ذاهبًا إليها.. وصل لها.. وجدها جالسة بجوار ملك.

سلّم عليها ونظر للصغيرة التي ترقد دون أجهزة:

«إيه الأخبار؟».

- «الحمد لله.. بقت كويسة شوية ونامت».

- «هتفضلوا هنا؟».

- «لا.. ممكن نمشي أيّ وقت.. بس محبيتش أمشي قبل ما تيجي».

- «فرصة أشوفك.. إنتي وحشاني وبقالي كتير مشفتكيش».

نظرت لملابسها وقالت:

«تشوفني كده.. أنا مش عارفة نزلت إزّاي».

- «زي القمر في كل الأحوال».

ابتسمت بسعادة وخجل.. ثم قالت:

«أنا هاخدها وأروّح.. ارجع نام إنتَ وبلاش تروح الشغل وانت مطبّق».

- «هطمّن عليكم الأول إنكم روّحتم وبعدين أمشي.. فيه أيّ إجراءات لسّه.. فلوس تدفعيها ولّا حاجة.. أصل أنا نزلت بسرعة ومعملتش حسابي».

«لا، لا.. دفعت خلاص».

«طيب يلّلا».

ذهب لـ«ملك»، وحملها.. فتحت عينيها قليلاً فربتت عليها يسرية:

«مروَّحين يا ملك.. متخافيش».

نامت ملك مرة أخرى على كتف فاروق وغادروا المستشفى.

ركنت يسرية سيارتها.. نزلت من السيارة ونزل فاروق خلفها.. حمل ملك مرة أخرى..

فقالت يسرية وهي تتلفت حولها:

«شكرًا يا فاروق.. تعبتك معايا».

مدت ذراعها تأخذ ملك.. فاستوقفها فاروق:

«لمّا أوصّلكم لحد الباب».

قالت بضعف: «حد يشوفنا».

رد مطمئنًا «هوصلكم للباب أطمّن عليكم وأنزل على طول».

صمتت يسرية وسبقته خطوات نحو مدخل العمارة وهو يتبعها.

وقفت تفتح باب شقتها سريعًا وهي تتلفت حولها.. دخلت وتبعها فاروق.. خافت أن تتحدث بصوت مسموع فيسمعها أحد الجيران.

أغلقت الباب بسرعة خلفهما.. سألها فاروق:

«فين أوضتها أنيّمها؟».

أشارت نحو غرفة ملك.. وتقدمته.. تبعها حتى الغرفة.. وضع ملك في سريرها.. ثم خرج من الغرفة متجهًا للصالة:

«عايزة أيّ حاجة؟».

ردت بامتنان:

«مش عارفة أشكرك إزّاي.. إنتَ الوحيد اللي وقفت جنبي من غير حتى ما أطلب مساعدتك».

رد بهمس: «متقوليش كده.. أنا معنديش أغلى منك».

- «شكرًا».

اقترب منها فتراجعت للخلف:

«فاروق.. يللا انزل».

اقترب منها أكثر:

«هنزل.. بس إنتي وحشاني أوي».

يقترب منها وتتراجع للخلف وقلبها يدق بشدة.. أحكم ذراعه حول خصرها وجذبها إليه.. قبّلها وهو يفك حجابها..

حاولت المقاومة.. لكنها لم تستطِع أن تنطق كلمة واحدة..

فقد استجابت شفتاها العطشى لقُبلته.. استجابت لعناقه.. استجاب جسدها المحروم للمسات عاشق.

همست من بين أنفاسها اللاهثة:

«لَأحسن ملك تصحى».

كانت تقصد بكلمتها التوقف.. لكنها وجدت نفسها وفاروق معًا على فراش واحد في غرفتها المغلقة.

ذهب عقلها مع نداء جسدها الجائع الذي استطاع فاروق أن يحرك غريزته بسهولة.

من أول لمسة ذهب عقلها بعيدًا وحلقت روحها في غمار التجربة.

اكتشفت عالمًا آخر لم تجرّبه من قبل.

عرفت معنى أن يستمتع كل جزء في جسدها..

عرفت أنها حُرمت من أول زواجها وليس الفترة الأخيرة فقط.

عرفت أنها بين يدي فنان يجيد العزف على أوتار الجسد كما القلب.

تجسدت لها أحاسيس قرأتها من قبل في رحلة المعرفة القريبة.

شعرت بروحها تُحلّق وترى نفسها من أعلى.. سعيدة مستمتعة.

ترتفع وتهبط خفيفة كأنما يحملها موج البحر ليُلقي بها في جزيرة السعادة.

تخرج آهاتها دون ألم.. تتشبث به ويحكم جسده عليها.

تتفاعل بلا خجل.. تنفذ تعليماته وكأنها تنهل العلم من عالم نجيب.

هدآ وارتمى كل منهما بجانب الآخر يلهث.

لم يترك لها لحظات للندم أو التفكير.. فأحاطها بذراعه وهو يهمس:

«أنا بَحبك يا يسرية.. على سنين عمري دي إنتي أول ست أعيش معاها الإحساس ده.. يمكن زي أيّ راجل ليّا علاقات.. بس معاكي إحساس تاني.. يمكن متصدقينيش بس دي الحقيقة».

أجابته وهي تغمض عينيها على دموعها:

«مصدّقاك».

ثم تابعت كلامها بعد لحظات:

«لأن ده إحساسي أنا كمان».

نهضت ترتدي ملابسها.. والتفتت له قبل خروجها من الغرفة:

«هروح أشوف ملك.. البس علشان تنزل قبل معاد الموظفين».

❑❑❑

منذ ذلك اليوم وكل منهما يتعامل مع الآخر وقد قربتهما علاقتهما أكثر.

يزداد الحب ويزداد التقارب.. أشعلت علاقتهما نار الشوق بينهما أكثر ولم تطفئها.

وكما قال أحمد رامي.. «الصَّبُ تفضحه عيونه».

فقد أفشت عيونهما سر الحب بينهما أمام البعض وبدأ تهامس الزملاء عليهما.

عندما رأت سمية إحدى الزميلات تغمز الأخرى نحو يسرية وفاروق أثناء إمضاء الانصراف، استشاطت غضبًا ولكنها كظمت غيظها حتى تفكر في التصرف الأمثل.

في اليوم نفسه، مساءً.. اتصلت بـ«يسرية»، وبعد تبادل أحاديث عادية سألتها:

«يسرية.. رجعتي لعقلك ولّا لسّه؟».

- «تقصدي إيه؟».

- «أقصد فاروق.. لمّا قُلتي لي إنك بتحبيه قلت يمكن مشاعر غصب عنك وهتفوقي.. إنّما اللي أنا شايفاه إنكم بقيتوا مكشوفين لأيّ حد يشوفكم».

ردت يسرية بعصبية؛ لإنكار ما حدث بينهما رغم تأكدها من أن سمية لا تعرف شيئًا:

«مكشوفين إزّاي يا سمية؟.. إحنا مفيش بيننا أكتر من اللي إنتي عارفاه».

«وهو اللي أنا عارفاه ده بسيط.. وبعدين ملقيتيش إلا فاروق.. ده عينه زايغة وحكاياته كتير.. يا بنتي ده كان بيحكي لمحسن عن واحدة تانية يعرفها وهو خاطب».

- «هو قال إنه عرف كتير قبلي.. بس هو دلوقتي بيحبني أنا».

«ماشي.. ولو إني عارفة ومتأكدة إن اللي فيه طبع مبيبطلوش.. بس همشي معاكي للآخر.. بعد الحب ده إيه؟».

صمتت يسرية تفكر في رد.. لكن سمية بادرت:

«بقول لك إيه.. لو بتحبوا بعض أوي كده.. اتطلقي واتجوزوا قبل ما الحب ده يتطور لأكتر من كده وتغلطي غصب عنك.. لو طلبتي الطلاق جوزك مش هيقدر يرفض ولو رفض ترفعي عليه قضية طلاق للضرر.. إنّما اللي إنتي فيه ده غلط.. اتجوزوا أكرم قبل ما سُمعتك وسيرتك تبقى على كل لسان».

- « كده يا سمية.. يعني علشان قلت لك ومخبيتش عليكي بتعايريني؟».

- «بفوّقك يا يسرية.. بفوّقك قبل فوات الأوان وده واجب عليّا».

- «ماشي يا سمية.. شكرًا».

- «مش عايزاكي تزعلي مني.. أنا لو مش خايفة عليكي مكنتش قلت لك كده».

- «عارفة إنك بتحبيني وخايفة عليّا.. وكلامك كله صح».

بعد المكالمة.. فكرت يسرية كثيرًا في كلام سمية.. كلامها صحيح.

لماذا لا تطلب الطلاق من صالح وتتزوج مَن تحبه؟

لم يمر سوى أسبوع منذ الليلة التي روت ظمأها.. ومع ذلك تشتاق لـ«فاروق» أكثر.. كلما تذكرت وقتهما معًا يهفو قلبها ويخفق بشدة ويستعيد عقلها نشوة اللحظات.

يشتاق كل منهما للآخر.. يخبرها فاروق أنه يريدها كل لحظة.

تعترف له أنها أيضًا تريده ولكن يجب ألا يتكرر ما حدث لشعورها بالندم.

لِمَ لا تطلب الطلاق وتكمل حياتها مع حبيبها.. ينهل كل منهما من الآخر دون ندم أو شعور بالخطيئة؟

تناولت هاتفها لتتصل بـ«فاروق» وتخبره بقرارها.. لكنها قبل أن تتصل سمعت صوت الباب ووصول صالح.

سألته وهو يقترب للجلوس على المقعد المجاور لها:

«جيت بدري النهارده يعني على غير العادة؟».

- «حسيت إني مرهق بقالي كام يوم بسهر في الشغل وأصحى بدري فحبيت أنام بدري وآخد كفايتي».

- «أعمل لك تاكل؟».

- «ماشي.. لحد ما أغيّر هدومي».

نهضت يسرية تحضِّر الطعام لـ«صالح» وذهب صالح لغرفته..

فكرت يسرية.. وصول صالح في موعد مبكر ربما إشارة ما.. لا بد أن تتحدث معه هو أولاً.. تطلب منه الطلاق ثم تفاجئ فاروق إن كانت إجابته بالموافقة.. إمّا إن رفض فتبدأ إجراءات قضية الطلاق كما قالت سمية.

بعد قليل.. اجتمعا على مائدة الطعام.

بدأ صالح يأكل.. ثم سألها:

«مش هتاكلي؟».

- «مش بتعشّى يا صالح من زمان بس إنتَ مش عارف».

- «ليه خليتي ملك النهارده عند مامتك.. مش لسّه خارجة من دور تعب جامد؟».

- «ملك بقت كويسة الحمد لله وشبطت تبات هناك علشان يمنى بايتة عند ماما».

صمتا قليلاً.. ثم بدأت يسرية الحديث:

« كويس إن ملك مش هنا علشان عايزة أتكلم معاك في موضوع مهم».

ترك صالح الطعام من يده ونظر لها شذرًا:

«تاني.. الكلام نفسه هيتعاد؟».

استدركت سريعًا:

«لا.. كلام تاني».

هدأ صالح وأكمل طعامه وهو يحثها على الحديث:

«قولي».

ارتبكت قليلاً.. ثم استجمعت شجاعتها وقالت:

«عايزة أتطلق».

نظر لها صالح متفاجئًا.. لم يَرُد وعاد يكمل طعامه.

تجاهله زاد ارتباكها فكررت:

«صالح.. بقول لك عايزة أتطلق».

«فكرتي ولّا قرار مفاجئ؟».

ارتبكت.. فقال:

«لو فكرتي يبقى اديني فرصة أنا كمان أفكر.. أمّا لو قرار مفاجئ يبقى فكري تاني».

ردت سريعًا:

«فكرت.. وانت هتفكر في إيه؟ بقول لك عايزة أتطلق وانت عارف السبب».

انزعج صالح من تلميحها.. فنهض وهو يقول بعصبية يحاول السيطرة عليها:

«ماشي يا يسرية.. هطلقك لو عايزة بس بنتي هتبقى معايا وزي ما اتجوزتك بطولك هتمشي من هنا بطولك.. أظن ده عدل».

تركها مرتبكة.. مشتتة.. خائفة ودخل غرفته وأغلقها عليه.

في الصباح، نهضت يسرية قبل موعدها.. لم تحضّر إفطارًا ولم توقظ صالح.. ارتدت ملابسها وذهبت.

جلست في مكتبها تنتظر سمية.. عندما رأتها قادمة أخذتها لخارج المكتب وحكت لها الحوار الذي دار بينها وبين صالح.. أخبرتها أنها لم تفرح بموافقته بسبب خوفها من فقد ابنتها.

- «اللي أعرفه إن بنتك صغيرة وانتي الحاضنة ليها.. والشقة تبقى ليكي إنتي وبنتك وكمان المفروض يصرف عليها لأنها بنته».

- «مش عارفة ليه خُفت يا سمية.. يمكن بيخوفني ولّا قصده إنه هياخدها غصب عني.. مش فاهمة».

فكرت سمية ثم قالت:

«بقول لك إيه.. تعالي نروح للأستاذة منى في الشئون القانونية نسألها.. أنا ليّا كلام معاها واهي تفيدنا».

ذهبتا للاستفسار.. فأخبرتهما المحامية أن ابنتها تظل في حضانتها حتى تتزوج وإن تزوجت يمكنها ضم البنت لحضانة والدتها.

وبخصوص الإنفاق فالأب يجب عليه نفقة ابنته حتى تتزوج.

عادت يسرية وسمية للمكتب مرة أخرى.. لكن تلك المرة كانت مطمئنة وسعيدة.. أخيرًا ستُطلّق من صالح وتحتفظ بابنتها وتتزوج مَن تحب..

حلمها البسيط سيتحقق.. ستتزوج وتحيا مع حبيب قلبها وتعوض الأيام الماضية.

وصل فاروق متأخرًا.. نهضت وذهبت إليه.. جلست بجواره وهي تهمس:

«عندي ليك مفاجأة».

نظر لفرحتها وصوتها الضاحك:

«خير؟».

ثم قال هامسًا:

«جوزك مسافر تاني؟».

ضحكت على كلماته وهي تقول:

«لأ.. بس خلاص هنبقى مع بعض على طول».

سألها بدهشة: «إزّاي؟».

قالت بفرحة، وسمية تتابع تعبيرات وجهيهما من مكانها:

«أنا طلبت الطلاق من صالح.. هو هددني إنه هيطلقني ويمشيني بشنطة هدومي بس أنا سألت واتأكدت إنه ميقدرش ياخد ملك».

سألها مستفسرًا:

«يعني وافق يطلّقك.. وانتي هتتطلقي من غير ما تاخدي منه حاجة؟».

- «هاخد بنتي».

- «والشقة والعربية باسمك؟».

- «لأ، باسمه.. أنا مش عايزة الشقة ولا العربية ولا أيّ حاجة غيرك إنتَ وملك».

صمت فاروق.. أشاح بوجهه عنها.. شعرت بقلق.. إحباط.. كسرة نفس وهي تسأله:

«إنتَ مفرحتش ليه لمّا قُلت لك إنه وافق على الطلاق.. وكل اللي سألت عليه الشقة والعربية؟».

- «علشان لمّا تتطلقي وتطلعي بشنطة هدومك زي ما قلتي يبقى مفيش مشكلة اتحلت».

- «هو جوازنا وإننا نبقى مع بعض على طول مش حاجة تستاهل إنى أضحي بأيّ حاجة؟!».

- «ولمّا تضحي.. ماشي هنتجوز.. هنعيش فين؟ هنجهز بيت منين؟ ممكن تحليها لي؟».

صُدمت يسرية وقد تجمعت الدموع في عينيها:

«إنتَ مش عايز تتجوزني؟».

- «أكيد عايز.. بس لو الظروف تسمح.. لو تقدري تاخدي منه الشقة بس هتبقى المشكلة اتحلت».

نهضت يسرية بعصبية وهي تدفع المقعد.. لاحظتها سمية التي كانت تتابعها فتبعتها وهي تنظر لـ«فاروق» شذرًا..

لحقتها خارج المكتب وسألتها:

«مالك.. إيه اللي حصل؟».

- «كنت متخيلة إني أول ما أقول له هاتطلّق هيفرح ويطير من الفرحة ويستعجلني كمان».

- «كنت متوقعة على فكرة.. فاروق شكله مش بتاع جواز ومسئولية يا يسرية.. أنا حذرتك ومسمعتيش كلامي».

- «كنت مصدّقاه.. كنت بَحبه بجد علشان كده صدقته».

سألتها سمية بابتسامة:

«كنتي؟».

مسحت يسرية دموعها وهي تجيب:

«لما بتحبي حد وتثقي فيه ويخذِلك.. ساعتها بتحسي إحساس وحش أوي.. بتبقي مش عارفة تاخدي رد فعل ضده تردي حقك ولا تضربي نفسك بالجزمة إنك صدقتي ووثقتي».

ربتت عليها سمية:

«الحمد لله إنك عرفتيه على حقيقته.. سيبك منه بقى وفكري يا تتراجعي عن الكلام اللي قُلتيه لجوزك يا إمّا تتمسكي بقرارك.. اللي هيريحك إنتي اعمليه بصرف النظر عن فاروق».

سمعا محسن ينادي من على باب المكتب:

«تليفون يا يسرية».

عادت يسرية وسمية للمكتب.. تجاهلت يسرية النظر لـ«فاروق» وذهبت للهاتف الموجود على مكتب سمية:

«آلو».

سمعت صوت والدتها تصرخ فيها.. فقالت يسرية:

«ماما.. أنا هاجي دلوقتي نتكلم.. مسافة السكة».

أغلقت يسرية الهاتف وقالت لـ«سمية»:

«أنا همشي دلوقتي.. لو فيه تفتيش ولا حاجة كمليني».

ذهبت لمكتبها تتناول حقيبتها.. وفاروق يتابعها بعينيه منذ دخولها.

خرجت دون أن تنظر له.. فنهض مسرعًا وسبقها بخطوات والتفت يستوقفها:

«افهميني يا يسرية».

ردت بألم:

«ما أنا فهمتك خلاص».

ردد: «لأ.. انتي فاهمة غلط».

سارت مبتعدة:

«انتهينا خلاص».

❑❑❑

جلست يسرية تبكي ووالدتها تتهمها بالجنون من طلب الطلاق.. تذكّرها بكل ما فعله صالح من أجلهن جميعًا..

تذكّرها أن طفلتها تحتاج والديها معًا..

تذكّرها أنها كأم يجب عليها التضحية من أجل ضمان حياة مستقرة لابنتها.

بكاء يسرية لصدمتها في فاروق فقط ولا شيء آخر.

قطعت يسرية كلام والدتها المستمر:

«يعني صالح لمّا كلّمك قال إنه عايز يطلقني خلاص وإنتي بتتكلمي من نفسك ولا قال لك تكلميني؟».

- «الاتنين.. قال أكلمك وفي الوقت نفسه قال لو مصممة هينفذ لك اللي إنتي عايزاه بس تمشي لوحدك».

تنهدت يسرية وهي تردد:

«خلاص يا ماما.. اللي كلكم حكمتم عليّا بيه هنفذه.. هعيش مع صالح علشان بنتي.. هسكت ومش هتكلم إنه عنده مشكلة علشان هو مش عايز يواجه نفسه بالحقيقة.. هرجع البيت وهنسى اللي قلته إمبارح.. بس قولي له هو كمان ينسى وميعاتبنيش».

❒❒❒

عادت يسرية لبيتها في المساء.. عادت حزينة كسيرة متألمة متجاهلة المكالمات المتواصلة من فاروق على مدار اليوم.. عاد صالح متأخرًا كعادته ولم يلتقيا.

في الصباح، نهضت يسرية توقظ صالح وتعد الإفطار وتعد ملك للذهاب للمدرسة.

نزلت ملك لركوب حافلة المدرسة في موعدها.

جلس صالح ويسرية على المائدة وكل منهما يتجاهل ما دار بينهما.. وكأن حديثهما كان غير حقيقي:

«إنتي مش نازلة الشغل؟».

- «لا.. هقدم على إجازة كام يوم».

نهض وهو يتناول حقيبته ومفاتيحه:

«عايزة حاجة؟».

- «لا شكرًا».

أوصلته للباب.. ثم عادت تجمع الأطباق وتنظف المائدة.

رن هاتفها وجدت المتصل فاروق فلم ترد كالأمس.

❒❒❒

وصل فاروق مبكرًا بعد ليلة قضاها في التفكير وتأنيب نفسه على تسرعه في الرد.

جلس ينتظر يسرية على صفيح ساخن حتى وصلت سمية ومحسن.

لاحظته سمية وهو متحير ينتظر.. فتجاهلته.

عندما تأخر الوقت سأل سمية بوضوح:

«هي يسرية مش جاية النهارده؟».

- «لأ.. قدمت إجازة ٤ أيام».

- «ليه؟».

نظرت له سمية وهي ترفع حاجبيها.. نظرة وكأنها تقول له أنت تعلم.. أرادت أن تبعده تمامًا عن التفكير في يسرية؛ فأكملت:

«وعلى فكرة.. كلمتني الصبح من بيتها وقالت لي إنها هتتنقل في أيّ إدارة تانية لما ترجع من الإجازة».

انفعل فاروق وخرج بعصبية دون رد.. فعلقت سمية قائلة لـ«محسن»:

«هو اتجنن ده ولا إيه؟.. ما تكلمه يا محسن إن مينفعش كده ويسيبها في حالها».

- «إنتي مش حذرتيها.. وأنا لمّا أكلمه بيتهرب.. خلاص عملنا اللي علينا.. مالناش دعوة».

- «هو عايز منها إيه؟ كانت هتتطلق علشانه ومقدَّرش.. الناس بتتكلم عليهم وممكن الكلام يوصل لجوزها ولمّا حبّت تبعد مش مريّح نفسه وبيكلمها من إمبارح.. هنفضل ساكتين لما يخرب لها بيتها؟».

- «بقول لك إيه.. هي مش عيلة صغيرة مش عارفة الصح من الغلط.. ريّحي دماغك منهم هما الاتنين».

صمتت سمية رغمًا عنها وهي غير راضية إطلاقًا عما يحدث.

❑❑❑

غادر فاروق مندفعًا.. يتصل بيسرية ولا ترد.

استقل تاكسي حتى منزلها.. وقف متحيرًا هل يصعد أم لا.

ثم أرسل رسالة:

«أنا تحت البيت.. لو مرديتيش عليّا هطلع لك ولو جوزك موجود هقول له على كل حاجة».

سمعت يسرية وهي أمام الحوض تغسل الأطباق صوت رسالة.. تناولت الهاتف الموجود على طاولة المطبخ وفتحت الرسالة..

عندما قرأتها، شعرت بالرعب وبكل جسدها ينتفض خوفًا.

اتصلت بـ«فاروق» على الفور الذي أجاب فورًا:

قالت وهي تبكي:

«بتهددني؟ ده ردك على حبي ليك وثقتي فيك؟».

تأكد فاروق من عدم وجود زوجها وهي تتحدث فقال:

«متخافيش.. أنا بقول لك كده علشان تردي عليّا.. متعيّطيش يا حبيبتي».

- «عايز مني إيه تاني يا فاروق؟».

- «عايز أفهّمك ليه رديت كده.. هطلع لك نتكلم».

ردت وهي تنهره:

«متطلعش».

- «٥ دقايق بس هفهّمك وأنزل على طول».

أغلق فاروق الهاتف وصعد لها.

أمّا يسرية فقد تحيرت ماذا تفعل.. هل تتركه يطرق الباب ولا تفتح أم تفتح سريعًا قبل أن يسمعهما أحد؟

سمعت رنين جرس الباب.. ركضت تفتح سريعًا وهي خائفة.

دخل فاروق وأغلقت الباب خلفه سريعًا.. سألته وأنفاسها تتلاحق:

«قلت لك متطلعش.. لو صالح جه ولّا ماما أعمل إيه؟».

- «مش هطوّل.. أنا جيت أقول لك إني بَحبك ونفسي نفضل مع بعض على طول.. بس ما باليد حيلة.. إنتي شايفة مرتبي قد إيه ومصاريفي إزّاي ولا حيلتي ميراث ولا عندي مِلك.. أعمل إيه قولي لي».

- «وكل الناس بتعمل إيه.. اللي بيحب بيعمل المستحيل».

- «سيبك من الكلام الفاضي ده وخليكي واقعية.. جواز يعني بيت وعفش و إمكانيات مش أيّ حد يقدر عليها».

- «خلاص يا فاروق.. يبقى كفاية لحد كده».

- « كفاية إيه بقول لك بَحبك.. واللي جابني إنك عايزة تتنقلي من الإدارة عندنا».

- «أيوه.. كفاية لحد كده».

ضمها بقوة وأحكم ذراعيه حولها وهي يهمس في أُذنها:

«بحبك.. مش هسيبك ولا هبعد عنك.. متبعديش عني».

بكت على صدره.. تحبه ولا تعلم كيف سيمكنها الحياة بعيدًا عنه.. فحبه أعاد روحها إليها وهدأت نفسها معه.. كيف يمكنها الابتعاد عنه؟

ضمته دون حديث.. تتشبث به لتهرب من خوفها وقهرها وألمها.

«اوعي تتنقلي بجد.. أنا ممكن أستحمل إنك تزعلي مني إنّما ماستحملش إنك تبعدي عني».

قال وهو يضمها أكثر:

«أنا عمري ما طلبت من واحدة متسيبنيش».

- «إنتَ اللي مش عايزني».

قال وأنفاسه تتلاحق وهو يهم بها:

«عايزك».

استسلمت له دون مقاومة.. فالحب والحرمان والشوق تقودها..

سقطت.. لم تكن الثانية والأخيرة.. بل توالت السقطات منذ تلك اللحظة.

فعادت علاقتهما أقوى.. أصبح فاروق حبيبها ورجلها.

تعيش حياة عادية هادئة أمام زوجها وأسرتها وابنتها.

وتعيش حياة خفية في غفلة منهم.. وقد أسكرتها نشوة الحب والارتواء من رجل يعلم جيدًا كيف يسعدها ويسعد بها.



«في رحيل بعضهم رحمة»

أغلقت فاطمة باب منزلها وهي تتشح بالسواد.. والتفتت تنادي على رزق:

«استنى يا رزق.. اوعى تقع ع السلم وانت نازل».

رد بصوته البريء:

«متخافيش يا ماما.. بعرف أنزل لوحدي».

أسرعت خلفه، رأته ينزل درجات السلم درجة درجة وهو يستند على الحائط.. نزلت خلفه وأمسكت بيده:

«امسك إيدي يا حبيبي علشان متقعش».

أعطاها يده الصغيرة.. عندما وصلت لباب شقة المعلم عوض، سمعت صوت القرآن الكريم المنبعث من خلف الباب، فرددت بصوت خافت:

«الله يرحمك يا حاج ويجعل كل اللي عملته معايا في ميزان حسناتك».

أكملت طريقها وبدأت رحلتها اليومية نحو المطعم.. والتي توقفت ثلاثة أيام العزاء الذي انتهى أمس.

في طريقها ورزق بين يديها في الميكروباص رددت الفاتحة على روح الحاج عوض.

لن تنسى أنه أنقذها من التشرد مرتين.. مرة عندما فتح لها باب بيته واستأجرت منه غرفة السطح، والأخرى عندما أمهلها فرصة بعدما طردتها كريمة للبحث عن مكان آخر.

في تلك الفترة لم يكن يمهلها وحدها الوقت.. بل كان يترك وقتًا أيضًا لجرح كريمة يطيب وتهدأ ثورتها وتكف عن ظلم فاطمة وتحميلها ذنب لا ناقة لها فيه ولا جمل.

كانت أيامًا عصيبة لن تنساها.. فقد كانت نورا تبكي ليل نهار تريد الذهاب لأيّ مكان بعيدًا بعد طرد كريمة لهما.

أمّا فاطمة فلم تجد مكانًا آخر بإيجار مناسب.

وكان الحل عندما طلبت نورا من علي في أول إجازة له بعد شهر من تسلمه الوظيفة أن يحاول توفير عمل لها معه في الفندق أو أيّ فندق أو قرية سياحية أخرى قريبة منه.

أيّ عمل في أيّ مكان.. المهم أن تبتعد عن المكان الذي بات يضيق عليها حد الاختناق.

سافرت نورا لـ«علي» بعد أداء امتحانها وظهور النتيجة وتخرجها من دبلوم التجارة.

أيام مريرة مرت بها فاطمة والبيت هادئ تمامًا بلا نورا ولا علي.

وحده رزق من كان يؤنس وحدتها ووجوده يخفف عنها افتقادها أولادها.

هدأت كريمة ولكنها لم تتحدث إلى نورا أبدًا منذ ذلك اليوم.

أمّا معاملتها لـ«فاطمة» فكانت في أضيق الحدود.

عام مضى على تلك العلاقة المتوترة..

ومن ثلاثة أيام فقط عندما تُوفي الحاج عوض فجأة بعد عودته من المطعم وهو جالس مع زوجته وابنته، لم تترك فاطمة العزاء لحظة واحدة.. وقفت مع أصحاب الدار وكأنها واحدة منهم.. تساعد من يحتاج مساعدة.. تقف على تقديم الطعام وإطعام المعزين.. توجد بالمطبخ لإعداد كل ما يحتاجه أيّ من الموجودين.

وجودها لثلاثة أيام متصلة في منزل الحاج عوض، تغادره فقط وقت النوم، أذاب الجليد بينها وبين كريمة.. فعادت كريمة تتعامل معها بتلقائية.. تتناسب مع حزنها على أبيها.

رغم حزنها.. فإن معاملتها السابقة لـ«فاطمة» التي عادت بعد فتور كانت واضحة جلية أنها سامحت وطاب جرحها تمامًا.

وصلت فاطمة المطعم.. وجدته ما زال مغلقًا وبعض من زملائها موجودون في الخارج ينتظرون.

فسألت عامل النظافة والمسئول عن فتح المطعم يوميًّا عن سبب عدم فتح أبوابه حتى الآن.

أجابها: «واحد من ولاد الحاج أخدهم مني في العزا وقال مش هنفتح الـ٣ أيام.. وآدينا جينا النهارده مش عارفين مين اللي هيفتح.. محدش من الجماعة قال لك حاجة؟».

أجابت فاطمة:

«لا، معرفش حاجة».

انضمت لهم في وقفتهم.. ورزق يلعب أمامها.

بعد قليل توقفت سيارة الابن الأكبر للحاج عوض أمام المطعم.. ألقى عليهم السلام وأعطى المفاتيح لعامل النظافة..

فُتح المطعم.. ودخلوا جميعًا.. التفت ابن الحاج لأحد العاملين:

«اقفل الباب لو سمحت.. عايز أتكلم معاكم».

أغلق الباب خلفهم جميعًا.

أشار الابن: «اتفضلوا اقعدوا».

سحب كل من الموجودين مقعدًا وجلس.. وبدأ الابن كلامه بصوت حزين:

«الحاج الله يرحمه كان هو اللي بيدير المطعم زي ما انتم عارفين.. وأنا واخواتي كل واحد فينا له شغله ومسئولياته ومنعرفش حاجة عن الشغل هنا ولا فاضيين له.. فقررنا هنقفل المطعم.. أنا عارف إن كل واحد فيكم وراه التزامات.. علشان كده النهارده كل واحد هياخد حسابه بالإضافة لمرتب شهر لحد ما تشوفوا شغل تاني.. ربنا يوفقكم.. نص ساعة بس أشوف المرتبات وأجهز الفلوس».

نزل خبر إغلاق المطعم نهائيًّا على الجميع كصاعقة فصمتوا جميعًا.. وانشغل كل منهم بالتفكير في ترتيب حياته بعد فقد وظيفته.

عادت فاطمة مرة أخرى في طريقها للمنزل وهي تفكر..

ماذا ستعمل وكيف تكسب رزقها؟

الأسبوع القادم سيأتي علي ونورا إجازة وكما عوّدتهما ستعد لهما ما يشتهيانه طوال فترة وجودهما عندها.

تنتظر إجازتهما بفارغ الصبر فقط لتراهما وتسعد بوجودهما.. فقد رفضت أيّ مشاركة مادية منهما في مصروفات المنزل.

كانت واضحة وحاسمة معهم:

«أنا ربّيت وعلمت.. مش هقدر على أكتر من كده.. جهزوا نفسكم من شغلكم».

من وقتها ولم يعرض عليها أحدهما جنيهًا.. ولم تطلب بل تدعو دائمًا لهما أن يبارك الله لهما في عملهما.

❑❑❑

مرت الأيام بعد إجازة علي ونورا.. وفاطمة تبحث عن عمل ولا تجد.

النقود تنفد.. وأصبحت تنفق بحذر بعدما أنفقت ببذخ في وجود أولادها.

كل ليلة تدعو الله وهي تقيم الليل أن تجد وظيفة قبل أن تنفد نقودها تمامًا.

في إحدى تلك الليالي وقبل الفجر بساعة.. سمعت أصواتًا كثيرة قريبة.. أرهفت السمع ولم تتبين شيئًا..

خرجت للسطح بحذر وهي خائفة تستطلع الأمر.

وجدت الصوت صادرًا من السلم.. وقفت تنظر من بئر السلم لتجد أبناء الحاج عوض ورجال آخرين أمام شقته.

أخذت مفتاحها سريعًا وأغلقت الباب على رزق النائم ونزلت مسرعة لتعلم ما يدور.

رأت الإسعاف يحمل أمينة، وأبناؤها يقفون معهم وكريمة تبكي وهي تتبع والدتها..

سألت كريمة:

«فيه إيه؟ الحاجة مالها؟».

- «معرفش.. كانت نايمة من بدري وجيت أصحيها زي كل يوم علشان تصلي لقيتها مبتردش عليّا خالص والإسعاف قال لازم مستشفى».

- «إن شاء الله خير وحاجة بسيطة.. طيب هطلع أجيب رزق وآجي معاكي».

- «لأ، خليكي، إخواتي معايا.. شكرًا يا أمّ علي».

نزلت كريمة وركبت مع والدتها الإسعاف وإخوتها خلفهم.

في اليوم التالي، علمت فاطمة أن أمينة تعاني من جلطة في المخ وفي حالة خطيرة.

❑❑❑

جلست كريمة تبكي بعدما عادت وحدها للمنزل في اليوم التالي.

تبكي والدها الذي لم تبرد نار فراقه بعد.. وتبكي والدتها التي ترقد الآن في العناية المركزة تخشى فقدانها هي الأخرى.

أشقاؤها عاد كلٌّ إلى منزله بعد يوم طويل معها في المستشفى ما بين أشعات وتحاليل وتقارير طبية.

أوصلها أحد أشقائها وتركها عائدًا لبيته وأولاده.

تبكي وحدتها وتدعو الله أن يرد والدتها سالمة.

ما زالت بملابسها من الليلة الماضية.. دخلت غرفتها تحضر ملابس أخرى لتأخذ حمّامًا قبل أن تحاول النوم.

سمعت طرقات على الباب.. لأول مرة صوت الباب يخيفها..

الباب الذي كان يُترك مفتوحًا أغلب اليوم في وجود والديها، مغلق الآن وصوت طرقاته تفزعها.

مشيت بخطوات بطيئة وهي تحاول أن تُطمئن نفسها، ربما أحد إخوتها أشفق عليها من تركها وحيدة.

وقفت خلف الباب تسأل:

«مين؟».

أجابها صوت فاطمة:

«أنا أمّ علي».

تنهدت كريمة باطمئنان وفتحت الباب.

استقبلتها بود:

«أهلاً يا أمّ علي.. اتفضلي».

لاحظت أنها تحمل طبقًا مغطى..

لم تدخل فاطمة وظلت واقفة على الباب:

«إزي الحاجة دلوقتي؟».

- «مفيش جديد من بعد ما كنتي عندها».

- «مش هطول عليكي إنتي تعبتي من إمبارح.. خدي يا بنتي اتغدي تلاقيكي اتهديتي».

- «شكرًا يا أمّ علي.. اتغديت من بدري، إخواتي مسابونيش والله».

- «ربنا يخليهم لك.. طيب اتعشي بيها.. لقمة مكرونة بشاميل جربيها من إيدي ومتكسفنيش».

أخذت كريمة الطبق منها وهي تشكرها:

«شكرًا.. مكانش فيه داعي تتعبي نفسك».

- «تعب إيه بس.. بكرة هاجي أزور الحاجة وأطمّن عليها إن شاء الله ويا رب تخرج بالسلامة».

- «يارب».

- «إنتي مش عايزة أيّ حاجة؟ أمانة عليكي لو محتاجة أيّ حاجة تطلبيها مني ومتتكسفيش.. إنتي متعرفيش غلاوتكم عندي».

- «عارفة.. ربنا يكرمك يا أم علي متشكرة أوي».

- «على إيه يا بنتي.. تصبحي على خير.. واقفلي على نفسك كويس».

أغلقت فاطمة الباب خلفها وسمعت صوت الباب يُغلق من الداخل بالمفتاح.. وصعدت تطمئن على رزق الذي تركته يلعب أمام التليفزيون وأغلقت عليه الباب.

مع شعورها بالألم والخوف على الحاجة أمينة، تشعر بالقلق على كريمة.. فتاة مثلها كانت تعيش مع والديها فجأة تصبح وحيدة دونهما.

فتحت الباب ووجدت رزق يلعب كما تركته فاطمأنت عليه.

دخلت وجلست وهي تفكر.. لم تجد عملاً الفترة الماضية..

بحثت في بعض المطاعم.. إذن، فلتبحث في أماكن أخرى لعلها تجد مصدر رزقها في عمل آخر بعيدًا عن المطبخ.

❑❑❑

في الإجازة التالية لعلي ونورا.. وأثناء جلوسهم جميعًا لتناول الطعام، سأل علي: «لسّه يا ماما ملقيتيش شغل جديد؟».

فاطمة: «لسّه.. أنا مكنتش بدوّر أوي الأيام اللي فاتت».

سألتها نورا وهي تتناول الطعام:

«ليه؟».

فاطمة: «من ساعة ما الحاجة رجعت من المستشفى وهي بتتحرك بصعوبة فبانزل كل يوم كام مرة كده لكريمة أساعدها».

نظرت نورا شذرًا لوالدتها وسألها علي متفاجئًا:

«بتشتغلي عندهم في البيت؟».

ردت فاطمة: «لأ.. بساعدها مش بشتغل عندهم.. بساعدها علشان جميل أبوها اللي في رقبتي طول عمري.. بساعدها علشان عِشرة العمر والجيرة.. بساعدها لوجه الله يا علي مش علشان آخد أجرة».

نهضت فاطمة تاركة الطعام للمطبخ.. تبادل علي ونورا النظرات ثم نهض علي ووقف خلفها يؤكد:

«على فكرة أنا بسأل.. مش قاصد أزعّلك».

- «خلاص يا علي».

نادت نورا من مكانها وهي تطعم رزق:

«لو مش زعلانة تعالي كملي أكل».

فاطمة: «خلصت.. الحمد لله».

عاد علي مرة أخرى لمكانه وهو يقول:

«خلاص مش هقول لك الخبر اللي جايبهولك.. حاجة هتخليكي تطيري من الفرح».

التفتت فاطمة وهي تسأله:

«خير؟».

ردّ، ونورا تنظر له مبتسمة:

«لاااا.. لما تيجي تقعدي علشان نتكلم».

تركت فاطمة ما بيدها وجلست مع علي وهي تسأله:

«خير؟».

قال علي بفخر وفرحة: «دلوقتي البت الصغيرة دي كبرت وجاي لها عريس وعايز ييجي يطلبها منك».

نظرت فاطمة لـ«نورا» بفرحة، ونورا تنكس رأسها بخجل:

«بجد؟.. شافها فين؟».

أجاب علي: «زميلنا في الأوتيل».

فاطمة: «أخلاقه إيه وظروفه؟».

علي: «أخلاقه كويسة وظروفه على قده.. ماما هو شبهنا في حاجات كتير.. يتيم الأب وبيشتغل من وهو في الدراسة وبيصرف على أمه وله أختين واحدة جَوِّزها خلاص والتانية لسّه في الإعدادية».

سألته فاطمة: «وهيتجوز إزّاي وهو بيصرف على عيلته؟».

ردت نورا بسرعة:

«ماهو بيدوّر على شغل بره ومش هنتجوز دلوقتي».

سألتها فاطمة بفرحة: «عايزاه؟».

صمتت نورا بابتسامة.. وأجاب علي:

«عايزاه.. وعمّالة تقول لي واحنا جايين إني أمهد لك الكلام قبل ما يرجع من إجازته».

- «يرجع فين.. هو هنا؟».

علي: «آه هنا.. وعايز ييجي النهارده أو بكرة بالكتير يقرا فاتحة».

ارتبكت فاطمة وهي تتساءل:

«إيه السرعة دي.. طيب اصبروا شوية».

سألها علي: «ونصبر ليه؟».

فاطمة: «نسأل عليه.. أعمل حسابي.. عيب نعمل خطوبة أو هيصة والحاجة عيانة والحاج عوض الله يرحمه لسّه ميت الشهر اللي فات».

نورا: «إحنا مش هنعمل هيصة ولا حاجة.. هو ومامته واخواته بس اللي جايين واحنا مفيش غيرنا».

فاطمة: «مش عاملة حسابي في فلوس».

نورا: «أنا هجيب الحلويات اللي هنقدمها».

علي: «هو انتم مستقلين بيّا ولّا حاجة؟ أنا هنزل أجيب لكم اللي محتاجينه».

فاطمة بَتردد: «طيب نسأل عليه».

نورا: «هو في الشغل من قبلنا.. يعني زميلنا من ساعة ما رُحنا.. نعرفه بقالنا سنة وزيادة مشُفناش منه غير كل خير».

ابتسمت فاطمة وقالت بفرحة: «انتم مرتبين كل حاجة يعني ومتفقين».

علي: «ومش فاضل غير موافقتك وتحديد معاد ييجي يتقدم».

فاطمة: «خلاص.. على بركة الله.. قولوا له ييجي بكرة».

فتحت ذراعيها واحتضنت نورا، ورزق بينهما:

«مبروك يا بنتي.. ربنا يسعدك يا رب».

تمت قراءة الفاتحة في اليوم التالي والخطبة بدبلتين.. تعرفت فاطمة على «محمد»، عريس ابنتها، ووالدته وشقيقاته.

أسرة بسيطة تشبههم إلى حد كبير.. كل أم كانت سعيدة ولكن هناك شيئًا ما ينقص تلك الجلسة.

الفقر يخرس الألسنة فلم تطلب إحداهما شيئًا.. ولم تعِد أي منهما بأيّ شيء في تلك الزيجة خشية ألا تفي بوعدها.

تم الاتفاق على أن العروسين يرسمان معًا حياتهما.. ويقرران ما يشاءان.. ويؤسسان بيتهما كما يريان.

انتهت الإجازة وعاد الثلاثة إلى عملهم.. علي ونورا وخطيبها.

بعد أيام قليلة، نفد مال فاطمة.. واستحت أن تطلب من أحد أبنائها مالاً قبل السفر ولو قليلاً.

في الصباح، وبعد يومين من سفر أبنائها.. نهضت ولم تجد في المنزل ما يكفي للإفطار والغداء.

فكرت سريعًا وقامت بإعداد فطير مشلتت يكفيها هي ورزق ليومين..

وأكلا منه الـ٣ وجبات مع العسل الأسود.

وفي اليوم التالي، وهي تساعد كريمة، سألتها كريمة:

«إنتي كنتي عاملة إيه إمبارح ريحته حلوة يا أمّ علي؟».

- «ده فطير مشلتت.. أطلع أجيب لك؟».

استوقفتها كريمة:

«لا، شكرًا.. بس ماما قالت لي إن نفسها فيه.. ينفع تعملي لنا؟».

ردت فاطمة: «عينيًا.. أنزل أجيب الحاجة وأطلع أعمل لكم».

أعطتها كريمة خمسين جنيهًا وهي تؤكد:

«جيبي الطلبات اللي تحتاجيها.. وجيبي لرزق حاجة حلوة معاكي».

نظرت فاطمة بعتاب لـ«كريمة»:

«خيركم سابق.. معقول هاخد فلوس».

وضعت كريمة النقود في يدها وهي تؤكد:

«إنتي اللي جميلك على راسي مش عارفة أودّيه فين.. إنتي مش سايباني ومحسساني إني مش لوحدي».

- «متقوليش كده ده إنتي بنتي».

- «يبقى متكسفينيش ومترجّعيش الفلوس».

صمتت فاطمة لحاجتها للمال.. على الأقل تستطيع شراء لوازم الفطير من دقيق وسمن.

أثناء إعدادها الفطير لـ«كريمة»، جاءها خاطر.. لماذا لا تجرب أن تبيعه.. فكرت ولكن لمَن؟ وأين؟

لا يوجد لديها خيارات.. المال نفد ولا تجد وظيفة ولا بد من أن تعيش هي ورزق.

في اليوم التالي، استيقظت مع الفجر..

أعدت عددًا قليلاً من الفطير بحجمين مختلفين وهي تفكر..

إن باعته اشترت طعامًا لهما في طريق عودتها ولوازم إعداد فطير الغد.. وإن لم تبِعه.. فلتعد به وتكفيهما تلك الكمية ليومين أو ثلاثة قادمة.

أعدت الفطائر في سلة نظيفة وغطتها بقماش.. وأخذت رزق في يدها والفطير على رأسها ومشيت في اتجاه السوق.

عندما وصلت إلى السوق، وعلى طرفه قبل التوغل فيه.. جلست على أحد الأرصفة ورزق بجانبها وقلبت قفص مُلقى على الأرض ووضعته أمامها.. ووضعت سلة الفطير..

الناس تغدو وتروح أمامها ولا أحد ينظر لها.

مر وقت ربما ساعة أو أكثر ولا أحد ينتبه لوجودها.. ورزق بدا عليه الملل وهو يقول:

«قومي نروِّح».

ضمته في حضنها لتبعد عنه حرارة الشمس:

«حاضر.. شوية كده ونقوم».

بعد قليل، جاءتها فكرة..

كشفت القماش المغطى.. وبدأت تنادي بصوت مرتبك:

«الفطير.. فطير مشلتت.. فطير طازة».

اقتربت منها سيدة ترى بضاعتها.. ثم مشيت ولم تشترِ.. أُحبطت فاطمة.. وفكرت أن تعود للمنزل ولكن حاجتها للمال جعلتها تنادي مرة أخرى بصوت أعلى به آخر أمل:

«الفطييير.. فطير مشلتت طازة».

جاء رجل واشترى منها.. ثم سيدة ثم أخرى..

وقبل أذان الظهر انتهت من بيع الفطير كله وعادت سعيدة تحمد الله على رزقه.. سألت رزق عما يشتهيه لتطهوه له واشترت لوازم فطير الغد بكمية أكبر قليلاً وعادت لمنزلها.

طهت الطعام وتناولته مع رزق ثم نزلت إلى كريمة لتساعدها.. وفي المساء بدأت تجهيز العجين لخبزه في الصباح الباكر قبل نزولها للسوق.

عام مضى ولم يَجِدّ جديد في علاقة فاروق ويسرية..

جمعت يسرية بين رجلين.. لم تستطع الاختيار بينهما.

علاقتهما السرية تثير الشبهات حولها ويكثر الغمز واللمز من الزملاء.. تحذرها سمية دائمًا من تلك العلاقة وتؤكد يسرية أنها مشاعر وانتهت.

كانا يلتقيان في بيتها.. إمّا أثناء سفر صالح أو في الصباح في وقت العمل بالاتفاق بينهما.

لم يمنعها وجود ابنتها من استقبال فاروق في أوقات متأخرة بعد نوم ملك.. وأحيانًا ترسلها للمبيت عند لبيبة ليخلو لهما البيت تمامًا.

ذات صباح.. وهي تؤدي روتينها اليومي، وقبل نزول صالح، اتصل بها فاروق فألغت الاتصال وأكملت إفطارها مع صالح بعد نزول ملك إلى المدرسة.

أرسل فاروق لها رسالة:

«عايزين نتكلم ضروري قبل الشغل».

قرأت الرسالة ووضعت الهاتف بجانبها.. سألها صالح:

«مين؟».

- «دي سمية عايزاني أكلمها قبل الشغل».

- «ما تكلميها؟».

- «لما نخلص فطار».

بعد قليل، انتهى صالح من إفطاره ونهض متجهًا للباب..

سألها ككل يوم: «مش عايزة حاجة؟».

ثم أخرج من جيبه نقودًا:

«خلي معاكي فلوس يمكن تحتاجي تجيبي حاجة وانتي جاية».

أخذت يسرية منه النقود وشكرته وأغلقت الباب خلفه:

اتصلت بـ«فاروق» وسألته:

«خير.. فيه إيه؟».

- «حبيبتي.. عايزك في موضوع مهم.. هينفع تعدي عليّا نتكلم واحنا رايحين الشغل؟».

- «حاجة مهمة للدرجة دي؟.. متتأجلش يعني؟».

- «ممكن تتأجل بعد الشغل.. بس انتي بتبقي مستعجلة علشان معاد مدرسة ملك».

صمتت قليلاً ثم قالت بدلال:

«تيجي؟».

سمعت صوته مرحبًا:

«طبعًا.. مسافة السكة وأكون عندك».

- «خلاص أنا هكلم سمية أقول لها هروح مشوار وآجي.. وانت هتقول إيه؟».

- «شوية كده بعد معادك هقول لمحسن إني صحيت متاخر ومش جاي».

- «خلاص مستنياك».

أغلقت الهاتف وذهبت مسرعة تستعد للقاء فاروق.

بحثت بين طيّات ملابسها وأخرجت ما تُخفيه منذ يومين في دولابها لترتديه لاستقبال حبيبها.

خلال العام الماضي، تعلمت معه ومنه فنون الحب.. أصبحت تتقن الدلال كما أتقنت الكذب والمراوغة.. تعلمت شراء الملابس المثيرة وتخبئتها بين ملابسها لترتديها لـ«فاروق» وحده.

تشتري له الهدايا وتسعد بسعادته.. تهتم بنفسها أكثر وأكثر من أجله.

وصل فاروق وأغلقت خلفه الباب بهدوء ثم عانقته:

«وحشتني».

عانقها ثم أمسك يدها يديرها حول نفسها وهو يتأمل ملابسها المثيرة:

«إيه الجمال ده؟».

- «عجبك؟».

- «طبعًا.. إنتي عجباني على طول».

غابا معًا في متعتهما المحرمة.. وبعد أن انتهيا جلست يسرية نصف جلسة على السرير والتفتت له:

«مقلتليش صحيح.. عايزني في إيه؟».

ثم عقبت بدلال:

«ولّا هي حجة علشان أقول لك تعالى؟».

ابتسم وأشعل سيجارة.. بدا عليه التردد والجدية.. فسألته يسرية:

«ده فيه حاجة بجد؟».

- «قبل أيّ حاجة إنتي عارفة أنا بَحبك قد إيه ولّا لأ؟».

قلقت يسرية وقالت بتوجس:

«والمقدمة دي وراها إيه؟».

- «مش مقدمة.. أنا بأكد لك بس أنا بَحبك قد إيه؟».

- «وبعدين؟».

- «أنا حبيت أقول لك قبل ما تعرفي من حد تاني».

- «ما تقول يا فاروق».

- «أنا هخطب».

صرخت فيه وهي تنتفض:

«نعم.. يعني إيه تخطب.. يعني هتتجوز واحدة تانية؟ دلوقتي بقت ظروفك كويسة وتقدر تتجوز؟».

أمسكها يُجلسها أمامه وهو يهدئها:

«افهمي بس الحكاية».

قالت وهي تبكي: «أفهم إيه.. أفهم إنك عايز تسيبني؟ ولّا أفهم إن هيبقى ليك ست تانية تنام في حضنها كل ليلة وأنا أولع».

- «ما انتي متجوزة يا يسرية وانا مبتكلمش».

- «يا سلام.. ما انتَ عارف إحنا عايشين إزّاي.. ومين اللي خلاني أعيش معاه وانا بكرهه.. مش إنتَ اللي رفضت تتجوزني بحجة ظروفك.. دلوقتي ظروفك كويسة؟».

- «أولاً، أنا ظروفي زي ما هي.. دي واحدة قريبة محسن من بعيد وعندها شقتها وظروفها كويسة.. وجوازي هيبعد عننا الكلام شوية وخاصة محسن وسمية ونظراتهم لينا».

قالت وهي ما زالت تبكي:

«دي حجة علشان تبعد عني».

ضمها وهو يربت عليها:

«أنا مقدرش استغنى عنك.. وكمان مقدرش أفضل عايش كده.. أنا محتاج أتجوز وأخلف يا يسرية».

حاول تهدئتها وهي تبكي بحرقة في صدره.. تبكي غيرةً وقلقًا وحبًّا تخشى أن ينتهي.

رن هاتفها فانتفضت.. تناولت الهاتف ونظرت لـ«فاروق» بتعجب:

«ده صالح.. متتكلمش».

ردت وهي تمسح دموعها وتحاول ضبط صوتها:

«آلو».

- «يسرية.. إنتي فين؟».

خافت من سؤاله المفاجئ.. فكرت في الكذب لكنها خشيت أن يكون قريبًا ويرى سيارتها.. فأجابت:

«في البيت.. أصل كنت...».

قاطعها بصوت مختلف عن صوته الطبيعي:

«طيب.. تقدري تيجي لي دلوقتي؟».

- «أنت في الجورنال؟.. فيه حاجة؟».

- «تعبان شوية ومش قادر أسوق.. متتأخريش عليّا».

- «حاضر.. جايّة حالاً».

نهضت يسرية مسرعة وهي تنظف مكان سجائر فاروق..

سألها فاروق:

«فيه إيه؟».

- «صالح تعبان وعايزني أروح أجيبه.. الحمد لله إنه مجاش على هنا فجأة كانت تبقى مصيبة.. قوم بسرعة».

ثم توقفت فجأة وهي تقول:

«بلاش تخطب يا فاروق علشان خاطري».

- «صدقيني ده لمصلحتك كمان مش مصلحتي لوحدي».

ردت باستسلام والدموع تتجمع في عينيها:

«يعني مفيش فايدة؟».

رد فاروق بعد أن ارتدى ملابسه:

«تعالي شوفي الطريق علشان أنزل.. بعدين نتكلم».

❑❑❑

في الطريق، ويسرية ذاهبة للجريدة، كانت تفكر.. ماذا لو رقد صالح لفترة طويلة في المنزل؟

وقتها ستُحرَم من فاروق.. وقتها سيتزوج و يبعد عنها.

لا.. لن تدعه يتركها.. لن تستطيع الاستغناء عنه.

تفكيرها أثار دموعها.. فبكت بِصمت وهي تقود سيارتها.

رن هاتفها.. نظرت في الشاشة وجدت اسم المتصل صالح.

ردت بضيق من استعجاله لها.. وقبل أن تسمعه:

«أيوه يا صالح.. أنا في الطريق أهو».

صمتت تسمع محدثها... ابتسمت بفرحة دون أن تتحدث، وأنهت مكالمتها واتصلت بسرعة مرة أخرى وهي تضحك بهيستريا:

«فاروق.. حبيبي.. مش هتصدق اللي هقوله.. صالح مات».

❒❒❒

توفي صالح عاشور في مكتبه في الجريدة قبل أن تصل له يسرية.

وفاته أصابت الجميع بالدهشة والحزن الشديد.. الكل حزين من أجل طفلته وزوجته الشابة.

لبيبة هرعت لابنتها ويمنى ذهبت للمدرسة لتأخذ ملك وعمرو ذهب لإتمام إجراءات الدفن.

يسرية حاولت الصراخ والبكاء لكنها لم تستطع.. فتظاهرت بالصدمة والصمت.

جلست يسرية في العزاء صامتة تضم ابنتها ويمنى تضم صغيرها وتبكي حزنًا على صالح الذي لم ترَ منه سوى الحب والحنان وتبكي يُتْمَ ملك الصغيرة وحزنًا على شقيقتها.. والكل حولهما يبكي ويعزي.. لكن قلب يسرية كان يرقص طربًا وسعادة..

تنتظر اليوم ينتهي حتى تتخلص من زيارة المعزين الثقيلة.

في نهاية اليوم.. وجدت لبيبة ويمنى يخبرانها أنهما سيبيتان معها.

تظاهرت بالتعب والرغبة في البقاء وحدها في غرفتها.

دخلت غرفتها وأغلقتها خلفها.. خلعت الأسود الذي ترتديه وارتدت قميصًا ملونًا ودارت في الغرفة بسعادة.

ارتمت على سريرها واتصلت بـ«فاروق».. قالت بسعادة:

«دلوقتي ملكش حجة خالص.. ولّا برضه هترفض تتجوزني؟».

- «أنا لسّه مش مصدق اللي حصل».

«صدّق يا حبيبي خلاص.. دلوقتي كل الظروف بقت في صالحنا.. خلاص الشقة بقت بتاعتي أنا وبنتي.. ومحدش يقدر يلومنا لو اتجوزنا.. وانتَ اوعى تقول لي هتتجوز اللي قلت لي عليها الصبح؟».

رد فاروق بسعادة:

«ده أنا أبقى غبي لو ضيّعتك من إيدي».

ضحكت بصوت مكتوم وهي تقول:

«طيب.. احسب من النهارده.. العدة تخلص ونتجوز على طول».

- «ومامتك وأختك وبنتك هتعملي إيه؟».

- «بنتي معايا.. أمّا ماما بقى ويمنى فكفاية اللي عملته علشانهم.. نفسي أعيش معاك قدام الدنيا كلها.. كفاية كنت مدفونة بالحياة.. النهارده بس وبعد ما صالح اتدفن أنا حاسة إني اتولدت».

❑❑❑

من بعد وفاة صالح، ولبيبة تقيم مع يسرية أغلب الوقت..

قبل انتهاء العدّة بأيّام، وأثناء وجود يمنى في منزل يسرية، جلست يسرية معهما وقالت بكل هدوء:

«يمنى.. تعالي يوم الخميس انتي وعمرو ع الغدا.. ماما شوفي هنعمل إيه أكل علشان هعزم فاروق ع الغدا».

تبادلت يمنى ولبيبة النظرات.. ويمنى تسأل:

«فاروق مين؟».

وسألت لبيبة: «مين فاروق ده؟».

قالت يسيرة بكل ثبات:

«فاروق زميلي.. اللي هتجوزه».

صاحت لبيبة:

«إنتي اتجننتي؟.. جواز إيه وجوزك لسّه ناره مبردتش».

نظرت يسرية لوالدتها شذرًا وهي تقول بقهر:

«يمكن ناره مبردتش عندكم انتم.. إنّما هو بالنسبة لي مات من زمان مش من ٤ شهور بس.. مات لمّا حرمني من حقي وحرمني حتى أتكلم فيه وأطلبه منه.. مات لمّا قتل إحساسي ومشاعري.. مات لمّا اعتبرني جماد مبحسش».

قالت لبيبة بعدم تصديق:

«معقول بعد كل اللي عمله فرحانة في موته؟!».

ردت يسرية: «أفرح ولّا أزعل مش مهم.. المهم إني عايزة أفرح باقي عمري.. هتجوز واحد من سني بيحبني وبَحبه وأعيش معاه حياتي».

ثم أكملت قبل أن تتكلم لبيبة أو يمنى:

«في جميع الأحوال هتجوزه.. أنا مش صغيرة ومش هستنى حد يقرر لي أعمل إيه».

رددت يمنى بضعف:

«والناس؟».

ضحكت يسرية بسخرية وهي تجيبها:

«إيه.. هيقولوا اتجوزت بعد جوزها ما مات.. لا أنا أول ولا آخر واحدة».

لبيبة: «على طول كده؟».

يسرية: «لا مش على طول.. بعد ما يتعرف عليكم هنعلن الخطوبة ونبدأ نجهز الجواز.. يعني شهر ولا شهر ونص كمان كفاية أوي».

يمنى: «وملك؟».

يسرية: «ملك هتبقى بين هنا وعند ماما زي ما هي متعودة.. ولو ماما مش عايزاها خليها معايا».

لبيبة بضعف: «إنتي حرة.. وبنتك هنا بيتها وهنا بيتها.. تبقى معايا ولمّا تعوز تيجي لك تيجي».

❑❑❑

تزوجت يسرية من فاروق في أقل من ستة أشهر بعد وفاة صالح.

تزوجا وأعلنا زواجهما في العمل وفي كل مكان.

تزوجا والألسنة التي كانت تتحدث عنهما باركت لهما.. والعيون التي غمزت كثيرًا إشارة لعلاقة ما بينهما أغمضت عما فات.

وضربت يسرية بعرض الحائط تحذيرات سمية من فاروق.

دخل فاروق منزل صالح عاشور كرجل البيت وليس زائرًا متسللاً..

نام في فراشه أمام أعين ابنته دون خوف أو خجل.

لم يكن فاروق يعرف صالح معرفة شخصية ولكن وجوده في حياة يسرية وبينهما كان يؤلمه.

الآن يشعر أنه انتصر.. برغم عدم وجود حرب من الأساس.

لم يتكلف فاروق شيئًا وارتضى بأن يعيش على نفس أثاث المنزل..

يسرية شعرت أخيرًا أن الدنيا ضحكت لها وتحقق الحلم القديم.

أخبرت ابنتها أن والدها سافر وأن فاروق هو والدها الجديد.

نفرت منه ملك وذهبت للإقامة مع لبيبة.

حلم جميل عاشته يسرية في أول أيام زواجها.. سعادة متصلة لا يشوبها شائبة.

وفي أول يوم عودة للعمل وأثناء استعداد يسرية وارتداء ملابسها..

توقف فاروق أمامها وسألها:

«إنتي هتنزلي بالهدوم دي؟».

نظرت لملابسها التي بدأت ترتديها.. ثم سألته:

«آه.. حلو الطقم؟».

- «البلوزة دي قصيرة والبنطلون ضيق متلبسيهوش.. ولا أقول لك بلاش بنطلونات خالص.. شوفي حاجة تانية».

شعرت يسرية بالسعادة من غيرة فاروق عليها.. وابتعدت عن الدولاب وهي تشير لـ«فاروق»:

«تعالى اختار لي ألبس إيه».

وقف فاروق يختار من وسط ملابسها ثم قال بضيق:

«إيه ده؟ كله حاجات متنفعش كده؟».

أزاحته يسرية من أمام الدولاب بدلال وهي تقول:

«هنتأخر على الشغل خليني ألبس».

نهرها فاروق:

«أنا مبهزرش.. اللبس ده ميتلبسش تاني».

تعجبت يسرية من لهجته.. وسألته وهي تجلس على طرف السرير:

«ليه؟ مش كل ده كان بيعجبك».

- «ماهو علشان كان عاجبني مش عايزك تلبسيه».

- «مش فاهمة».

- «دي أول حاجة لفتت نظري لجسمك».

أغلق الدولاب بشدة وهو يتجه للباب:

«مش لازم تنزلي النهارده».

استوقفته يسرية وقالت بحزن واستسلام:

«معادش عندي إجازات.. بالليل هنزل اشتري لبس تاني».

تكررت مواقف غيرة فاروق على يسرية.. إن وجدها تتحدث مع أحد زملائهما غضب.. إن رآها تتحدث في الهاتف يسألها ويتأكد مع من تتحدث.. كلما أخبرته أنها ستذهب لشراء أيّ شيء يرفض ويذهب معها عند الضرورة.

مرت ثلاثة أشهر والغيرة القاتلة، التي كانت تسعد يسرية في أول أيام زواجهما، تحولت إلى أكثر أسباب الخلاف بينهما.

غيرة أم شك؟! .. تأكدت يسرية أنها شك حين وجدت فاروق يفتش في هاتفها أكثر من مرة.. ويأتي على غفلة للمنزل في أوقات غريبة.. لكنها كانت ترفض تصديق أن فاروق يشك فيها.

حينما واجهته، عندما وجدته يمسك هاتفها ويقلب فيه، سألته عن السبب فلم يُجِب إجابة مباشرة..

كل شيء يخصها مسموح له.. أما هي فلا تستطيع الاقتراب من هاتفه ولا سؤاله عن تفاصيل خروجه.

حتى لاحظت أن هناك تغييرًا ما.. مكالمات تأتيه فيرفض الرد في وجودها.. تتصل به فتجده على الانتظار وقتًا طويلاً..

وبشعور الأنثى الذي لا يخطئ أبدًا.. شعرت أن هناك أخرى..

لكن.. أين الدليل؟

الهاتف لا يتركه حتى وهو نائم يضعه تحت وسادته.. الشك ينهش قلبها حتى قررت أن تراقبه.
ذات مساء وقف يرتدي ملابسه ويهتم بأناقته كعادته دائمًا.. ويسرية ترقبه من بعيد.. دخلت غرفة ملك وارتدت ملابسها تحت ملابس البيت وعادت تجلس أمام التليفزيون دون أن توضح أيّ اهتمام..

عند وصول فاروق للباب.. سألته يسرية:

«هتاخد العربية؟».

- «آه.. ليه؟ فيه حاجة؟».

- «لا.. بس كنت بفكر أروح لماما شوية».

رفض: «لأ.. خليكي النهارده ونبقى نعدي عليهم بكرة بعد الشغل أو اتصلي بيها تجيلك».

صمتت يسرية.. فأخذ فاروق المفاتيح دون كلام وصفق الباب وخرج.

ركضت يسرية وارتدت حجابها سريعًا وأخذت حقيبتها ونزلت بسرعة.

وقفت عند بوابة العمارة تراقب سيارتها وفاروق يركبها..

مشيت بمحاذاة الجدار في اتجاه معاكس واستوقفت تاكسي وركبت به عندما رأت فاروق يتحرك بالسيارة.. قالت للسائق:

«ورا العربية دي لو سمحت».

جلست في السيارة وعيناها على سيارتها التي يقودها فاروق.. أنفاسها تتلاحق وتدعو الله أن تكون مخطئة في شكها.. سارت السيارة كثيرًا وهي بالتاكسي خلفها..

حتى وقفت السيارة على أحد جانبي الطريق.. ويسرية تتابع..

فوجدت فتاة تقترب من السيارة وتركب بها.

ثار الدم في عروقها وانتفضت تفتح الباب.. لكنها وجدت سيارتها تتحرك فأغلقت الباب ثانية:

«وراهم لو سمحت».

قالتها بصوت مختنق وهي تبكي.. فما كان من السائق العجوز إلا أن هدأها:

«اهدى بس.. جوزك ده؟».

قالت وهي تنتحب:

«جوزي».

- «طيب أرجعك بيتك لحد ما تهدي».

صرخت فيه:

«لا.. خليك وراهم.. ولّا أقول لك اسبقهم ووقف العربية أرجوك».

- «يا بنتي متتسرعيش يمكن إنتي فاهمة غلط.. متخربيش على نفسك لو عندكم عيال».

- «غلط.. إيه الغلط.. ده احنا لسه متجوزين من ٣ شهور وبيخونني».

صمت السائق وهو ينفذ كلامها ويمشي وراء سيارتها:

«يعني مصممة.. مش تفكري الأول».

قالت بتصميم: «مش هفكر».

قاد السائق سيارته أسرع قليلاً وعندما سبق فاروق أوقف السيارة أمامه..

فنزلت يسرية بسرعة وغضب متجهة للفتاة التي تركب السيارة.. رآها فاروق فنزل مسرعًا وأمسكها من ذراعها قبل أن تصل لباب الفتاة:

«يسرية.. إيه اللي نزلك من ورايا؟».

صرخت به: «علشان أكشفك على حقيقتك.. بتخونني يا فاروق؟».

قالتها ببكاء وصراخ.. فقال فاروق مسرعًا.. والفتاة في السيارة امتقع وجهها خوفًا:

«أخونك إيه.. هو إنتي علشان تغطي على غلطتك بتقولي بخونك؟».

- «غلطتي أنا؟».

- «أيوه طبعًا.. إزّاي تنزلي من غير ما تقولي لي؟».

- «وانت مين اللي معاك دي؟».

- «واحدة جارتنا قابلتها أوصّلها.. إيه اللي حصل لكل ده يعني؟».

سمعته الفتاة فنزلت بسرعة وهي تبرر:

«أنا آسفة لسوء التفاهم اللي حصل.. بعد إذنكم».

سارعت الفتاة بالفرار من أمامهما..

وقفت يسرية متفاجئة متحيرة بين ردود فعل مختلفة.. هل هو صادق أم كاذب.. هل هي مخطئة بشكّها وتسرعها أم على صواب؟

في وسط حيرتها قال فاروق محتدًا:

«حاسبي التاكسي ويلّلا بينا».

ذهبت للسائق وأعطته حسابه وعادت بخطوات خائفة لتركب بجوار فاروق.

صرخ فيها:

«أعمل فيكي إيه علشان تحترمي نفسك وتسمعي الكلام.. لمّا أقول لك متنزليش من البيت يبقى متنزليش».

صمتت يسرية.. فقط دموعها تجري على خديها.. وسمعته يكمل:

«والله يا يسرية لو اتكرر إنك تنزلي من ورايا لأكسر لك رجلك».

صُعقت يسرية من حديثه وسألته بصوت ضعيف:

«إنتَ بتقول لي أنا كده؟».

رد مؤكدًا: «أيوه.. أنا هعديها لك النهارده ولو اتكررت متلومينيش على رد فعلي».

أوصلها للبيت.. وقف أمام بوابة العمارة ودون أن ينظر لها:

«اطلعي وبصي لي من البلكونة علشان أتأكد إنك طلعتي».

- «وانتَ مش طالع معايا؟».

- «لأ».

- «رايح فين؟».

- «ملكيش دعوة وقلت لك قبل كده مبحبش حد يسألني ويقيد تحركاتي».

نزلت يسرية من السيارة دون رد ونفذت ما قاله لها.

جلست يسرية ساعات طويلة تبكي.. تبكي حزنًا وشكًّا وضياعًا..

قبل منتصف الليل بقليل.. وصل فاروق.

بمجرد دخوله ودون سلام:

«حضري العشا».

نفذت يسرية الأمر دون كلام.. بعدما حضّرت العشاء تركته على السفرة ودخلت غرفتها وتظاهرت بالنوم.

بعد قليل، وبعد تناول طعامه.. دخل فاروق الغرفة ونام في مكانه.

ظهرها له ودموعها تبلل وسادتها.. تتمنى لو يعتذر.. تتمنى لو يوضح حقيقة موقفه وتصدقه.. تتمنى أن يعبّر عن ندمه عمّا قال.

لكنها شعرت بذراعه تلتف حولها ويقربها منه.. زادت دموعها..

فهمس وهو يضمها: «أنا بَحبك وعلشان بَحبك عايزك متكسريش كلامي وتخليني أقول كلام يزعّلك».

- «ومين اللي كانت معاك؟».

- «قلت لك جارتنا وقابلتها صدفة».

- «طيب احلف».

- «وحياة حبك عندي».

ضمَّها وقبَّلها.. واستسلمت له يسرية دون عتاب وبادلته إحساسه ناسية كل ما حدث خلال اليوم.. ومرت الليلة ككل ليلة حب وشوق في زواجهما.

❑❑❑

«ليس كل ما نراه هو الحقيقة الكاملة.. هناك وجه آخر خفي لن نراه إن سبقتنا أحكامنا»

يناير ٢٠١٦..

ظلت فاطمة جالسة مكانها في السوق وعيناها على أول الشارع من جهة مدخل السوق..

سألت أحد المارة عن الساعة فأخبرها أنها الثانية عشرة والربع.

ظلت جالسة وعيناها على الشارع بقلق.. بعد قليل لانت قسماتها وابتسمت عندما رأته قادمًا من بعيد يهرول في اتجاهها..

اقترب وهو يجلس جوارها:

«خلصتي يا ماما ولا لسّه؟».

- «طمنى الأول يا رزق عملت إيه في الامتحان؟».

- «الحمد لله حليت كويس».

- «ربنا ينجحك يا حبيبي وعقبال باقي المواد».

- «إن شاء الله».

فتح رزق السلة المغطاة وهو يرى الفطائر المتبقية:

«هانت أهو.. قرّبوا يخلصوا».

- «هانت إن شاء الله».

جلس صامتًا قليلاً ثم نهض وهو يتناول بعض الفطير:

«هروح ألف بيه شوية ننجز».

لم ينتظر ردًّا.. أخذ الفطير على يديه وركض..

نادت فاطمة عليه:

«خلّي بالك م العربيات يا رزق».

هز رأسه يطمئنها أنه سمعها وركض بعيدًا حتى اختفى من أمامها.

سار بخفة وسط المارة يعرض عليهم بضاعته.. باع الفطير في فترة وجيزة ثم عاد للسوق وهو يلوّح لـ«فاطمة»..

عندما رأته فاطمة عائدًا بعد قليل خاوي اليدين، ابتسمت براحة ونهضت تنفض ملابسها وتلم السلة الخاوية.

أعطاها النقود ثم أمسك عنها السلة وسبقها بخطوات.

سارت خلفه بخطوات بطيئة وانحناءة في ظهرها وهي تنظر له بسعادة.. تسمي الله في سرها وتدعو له أن يحفظه ويحميه.. تتذكره وهو قطعة لحم صغيرة والحب الذي زرعه الله في قلبها وعدم قدرتها على التخلّي عنه.

رزقها الله به ليكون السند والعون بعد غياب أبنائها.

تزوجت نورا وسافرت مع زوجها وأنجبت ثلاثة أولاد وانشغلت بحياتها وأولادها.. ثم تزوج بعدها علي من شقيقة زوج نورا الصغرى وسافر هو الآخر وأنجب وانشغل في عمله وحياته.

يسألون عليها ويأتون لزيارتها في الإجازة.

لكن في الآخر مَن تبقى لها هو رزق وحده.

وقف عند موقف الميكروباص ينتظرها.. اقتربت منه فمدَّ يده لها تستند عليه وهي صاعدة ثم جلسا متجاورين.

صعدا السلم.. سبقها رزق يركض ووقف أمام باب شقة الحاج عوض وسأل فاطمة:

«ماما.. أشوف أبلة كريمة عايزة حاجة دلوقتي ولّا لمّا تطلعي».

- «لأ، خبّط عليهم دلوقتي بالمرة واحنا طالعين».

طرق رزق باب شقة الحاج عوض وبعدها بدقائق فتحت لهم سيدة متوسطة العمر فقالت لـ«رزق»:

«إزيك يا رزق؟.. اتفضلي يا أمّ علي».

نظر رزق للداخل فجاءت كريمة على صوتهم:

«ادخلي يا أم علي.. تعالى يا رزق عملت إيه في الامتحان؟».

دخل رزق وهو يطمئنها:

«الحمد لله.. حليت كويس».

كريمة: «وبكره.. عندك إيه؟».

رزق: «حساب».

كريمة: «طيب.. ابقى انزل لي آخر النهار نراجع شوية».

رزق: «حاضر».

فاطمة: «وأخبار الحاجّة إيه؟».

كريمة بحزن: «زي ماهي».

فاطمة: «هدخل أشوفها».

دخلت فاطمة لغرفة الحاجة أمينة.. وجدتها في سريرها كما هي منذ شهور.. غائبة عن الوعي وبجوارها محلول معلق على حامله.

وقفت فاطمة جوارها:

«إزيك يا حاجة.. ربنا يشفيكي وتقومي بألف سلامة».

كلمات بلا رد ترددها فاطمة يوميًّا في زيارتها التي لم تقطعها ولو ليوم واحد في الشهور الأخيرة منذ فقدت أمينة وعيها ودخولها في غيبوبة.

لم يتغير المنزل كثيرًا في السنوات الماضية.. فقط تغير الأثاث وهو الأثاث الذي اختارته كريمة لزواجها قبل فسخ خطبتها.

من بعد وفاة الحاج عوض، تدهورت صحة أمينة وفقدت قدرتها على المشي.

بعدها رفضت كريمة الزواج رفضًا تامًا.. وقالت لـ«فاطمة» في إحدى المرات:

«مش هقدر أسيب أمي تتحوج لحد غريب.. هي محتاجة لي أكتر من أيّ حد.. مين يغيّر لها ولّا يحمّيها.. هي مش هتتكشف على واحد من إخواتي ولا مرات حد فيهم هترضى تخدمها.. وانا مش هحس براحة ولا سعادة وأنا بعيدة عنها.. وحتى لو اتجوزت معاها هي بتحتاج لي في أيّ وقت في اليوم ومش عايزة حد يتقل منها.. يبقى أتجوز ليه؟».

ارتاح إخوتها لقرارها.. فأتوا لها بممرضة تحضر يوميًّا وخادمة مقيمة لمساعدتها.. مع زياراتهم لها كلما استطاعوا..

ارتضت كريمة بقرارها عن طيب خاطر.. فوجودها تحت قدمَي والدتها المريضة يُشعرها براحة لا تعلم مصدرها.

أحيانًا تحن للأمومة وللاستقرار ولكنها تجد حاجة والدتها لها أكثر من حاجتها لرجل وأطفال في حياتها.

منذ تدهور صحة أمينة وكثرة تردد فاطمة ورزق على كريمة تعلقت كريمة بـ«رزق» وزاد تعلقها به بسبب أخلاقه المهذبة وحبّه للمساعدة وخفته ولباقته.

عندما علمت كريمة بحلم فاطمة في تعليم رزق كإخوته علي ونورا.. قررت مشاركتها في تحقيق حلمها؛ فقدمت لـ«رزق» في المدرسة الابتدائى وتكفلت بدفع المصروفات الدراسية.. ومع بداية كل عام تحضر له الزي المدرسي والحقيبة والكشاكيل والأقلام..

تقبلت فاطمة المساعدة رغمًا عنها.. فضيق ذات اليد والرزق غير الثابت و إقبال رزق على التعلم، كلها أسباب جعلتها تتقبل مساعدة كريمة.

مدرسة رزق قريبة من السوق ومنذ أول يوم دراسي في الصف الأول وهو يذهب مع فاطمة في الصباح إلى المدرسة وتذهب فاطمة إلى السوق.

إن انتهت من بضاعتها قبله تنتظره حتى ينتهي اليوم الدراسي و يعودا معًا.. إن انتهى قبلها يذهب إليها في السوق حتى تنتهي من البيع و يعودا معًا.

وصل رزق للصف السادس الابتدائي.. واليوم بدأ امتحانات الفصل الدراسي الأول.. تتابعه كريمة كلما سنح لها الوقت والظروف.

أنهت فاطمة الزيارة اليومية هي ورزق وصعدا للبيت.. أحضرت طعام الغداء وجلس رزق يستذكر قليلاً.

أثناء تناول الطعام لاحظ رزق تغير وجه فاطمة.. فسألها:

«ماما.. مالك؟».

- «مفيش يا حبيبي».

- «وشك متغير ومش بتاكلي».

- «جنبي وجعني شوية بس».

ترك رزق الطعام وسألها:

«أنزل أجيب لك حاجة من الصيدلية؟».

أجابته: «لأ.. كمّل أكل.. هعمل حاجة دافية وأنام شوية بعد ما ناكل».

اعتادت فاطمة أن تحضر العجين مساءً وتستيقظ قبل الفجر لخبز الفطير ليكون طازجًا في الصباح.

هذا المساء ومع زيادة آلام جنبها، التي أصبحت تتكرر في الفترة الأخيرة، لم تستطع إعداد العجين.

ظلت تكتم آلامها الشديدة كي لا تزعج رزق.. ولكن قبل منتصف الليل بقليل وجدت نفسها لا تتحمل بل بكت رغمًا عنها من آلامها.

خاف رزق عليها وجلس على ركبتيه بجوار سريرها:

«ماما.. بتعيّطي ليه؟.. لسّه تعبانة؟».

أجابت بصوت مكتوم:

«تعبانة أوي».

- «طيب قومي نروح مستشفى».

- «لأ.. مش مهم علشان تلحق تنام.. إنتَ عندك امتحان الصبح».

- «انتي أهم.. قومي نروح المستشفى».

ترددت فاطمة قليلاً ثم قالت:

«تقدر تروح الصيدلية وتقول له عايز حاجة مُسكّنة بس شديدة شوية».

انتفض رزق وهو يأخذ الجاكيت الوحيد الذي يملكه يرتديه على ملابس البيت:

«حاضر».

❑❑❑

انهى رزق امتحانات الفصل الدراسي الأول.. وتزايدت نوبات الألم التي تهاجم فاطمة فأصبحت تنقطع عن عمل الفطير رغمًا عن إرادتها.. وبالتالي توقف مصدر دخلها الوحيد.

تتزايد عليها الآلام، الجسدية والنفسية، فيؤلمها أنها لا تستطيع أن توفر لـ«رزق» أيّ شيء يحتاجه.. حتى الطعام عادا يأكلان الخبز والعسل أو الخبز والجبن في الوجبات الثلاث كما حدث منذ سنوات.

مع آلامها حاولت ألّا تنقطع عن زيارة كريمة وأمينة.. وبدا عليها المرض فقالت كريمة لها بلوم ومحبة:

«إنتي إزّاي ساكتة على نفسك كده؟.. حرام عليكي صحتك ونفسك.. لازم تشوفي دكتور».

- «معاكي حق.. هروح المستشفى بكره أطمّن».

❑❑❑

جلست فاطمة تنتظر دورها في العيادة الخارجية للمستشفى الحكومي الذي ذهبت إليه..

ترتب الكلام في رأسها.. تعلم أن الأطباء في تلك المستشفيات يملون من كثرة المرضى وشكواهم.. تعلم أن أغلبهم يريد أن يسمع أقل كلمات ويكشف في أسرع وقت حتى يُتم يومه المزدحم بسرعة.

ترتب الكلمات في رأسها.. لن تسأل كثيرًا ستطلب مسكّنًا للآلام الكثيرة حتى تستطيع العودة للعمل مرة أخرى.

جلست كثيرًا لا تعلم كم مر حتى حان دورها فدخلت للكشف..

وجدت طبيبًا شابًّا بوجه بشوش يبتسم لها وهو يشير لها:

«اتفضلي يا حاجة.. خير؟».

قالت شكواها سريعًا ثم أجرى الطبيب الكشف وعاد يكتب روشتة العلاج..

أثناء كتابة العلاج قال:

«دي أدوية هتمشي عليها أسبوع.. وتعدي أسبوع تاني من غير أدوية بس لو تعبتي تعالي لي.. متهمليش لو سمحتي».

سألته فاطمة:

«هو أنا عندي إيه؟».

- «غالبًا أملاح.. هنشوف العلاج لو مجابش نتيجة هنعمل تحاليل وأشعة علشان نتأكد».

سألت فاطمة بخجل:

«هو العلاج كله من هنا ولا هشتري من بره؟».

أجابها الطبيب بعد أن فهم مغزى سؤالها:

«هو فيه هنا وفيه هتشتريه من بره؟».

صمتت فاطمة تفكر.. ثم قال الطبيب بعد أن قام بشطب بعض الأدوية:

«بصي يا حاجة.. هتصرفي من هنا الأدوية اللي كتبتها والباقي هجيبهولك».

رفضت فاطمة وهي تشكره:

«لا يا دكتور.. كتر خيرك.. أنا همشي ع العلاج اللي من هنا».

فقال ببشاشة: «أنا مش هشتريه.. دي عينات مجانية من شركات الأدوية».

انتهى من كتابة الروشتة ثم نهض وأحضر لها بعض الأدوية من دولاب بجانب سرير الكشف.

شكرته فاطمة وهي متجهه للباب.. فأكد عليها:

«هستناكي بعد أسبوعين إن شاء الله».

خرجت فاطمة وهي تدعو له.. ثم عادت للبيت وهي تفكر..

لماذا رفض رزق أن يأتي معها.. لماذا صمم أن يذهب للمدرسة يسأل عن النتيجة وحده؟

❐❐❐

عادت فاطمة للمنزل تتحامل على آلامها التي لم تنقطع.. تتمنى لو يتوقف الألم وتتمدد على سريرها وتنام بهدوء..

في طريقها للصعود، قامت بزيارة كريمة ووالدتها.. وصلت إلى بيتها وطرقت الباب..

كررت الطرقات ثم أخرجت المفتاح وفتحت الباب ودخلت..

نادت بصوت مكتوم من الألم:

«رزق.. إنتَ هنا؟».

دخلت للغرفة فلم تجد رزق بها.. رددت في سرها:

«الواد نزل من بدري.. راح فين كل ده؟».

أخذت العلاج وجلست تنتظر.. تأخر رزق كثيرًا وزاد قلقها ولم تعد تحتمل..

خرجت للسطح رغم برودة الجو والمطر الذي بدأ يتساقط والألم الذي قل قليلاً ولكنه لم يسكن..

وقفت تنظر للشارع وتدعو الله أن يعود رزق سالمًا.

المطر يزداد وابتلت ملابسها.. والخوف يتزايد والأفكار السيئة تتلاحق..

سمعت صوت أذان العصر.. زاد رعبها..

خرج رزق معها في التاسعة صباحًا.. أين هو؟

قررت أن تذهب للبحث عنه.. أين؟ لا تعلم ولكنها لن تنتظر.

دخلت بيتها تغير ملابسها المبتلة وهي تفكر من أين تبدأ بالبحث عنه..

هل تذهب للمدرسة أم تبحث عنه في كل شارع من بيتها إلى السوق؟

انتهت من تغيير ملابسها وفتحت الباب.. وجدت رزق أمامها.. ضمته إليها وهي تبكي:

«حرام عليك يا رزق.. كنت هتموتني من الخوف عليك.. كنت فين كل ده؟».

فوجئ رزق ببكائها.. فقال ببراءة:

«أنا آسف يا ماما.. متزعليش مني.. حقك عليّا».

أمسك يدها يقبّلها وهو يكاد يبكي.. فلاحظت أنه يحمل شيئًا برائحة نفاذة.. تبيّنتها سريعًا وهي تسأله بحدة:

«إنتَ جايب أكل؟».

قال بفرحة وهو يدخل معها للبيت:

«آه.. حواوشي».

اتسعت عيناها وهي تنهره:

«جبت فلوس منين يا رزق؟».

أخرج من جيبه ١٠ جنيهات، وهو يعطيها لها:

«وخدي كمان يا ماما».

لم تأخذها منه بل نهرته بشدة وهي تسأله بصوت مرتفع:

«جبت فلوس منين؟.. وكنت فين من الصبح؟».

«اشتغلت».

قالها وهو يخلع الجاكيت الذي كان يرتديه وذهب يغسل يديه..

صُعقت فاطمة من المفاجأة وكررت كلمته بهدوء وتعجب:

«اشتغلت؟!!».

قال بعدما عاد وجلس قبالتها وهو يفتح لفة الطعام ويناولها رغيف حواوشي:

«إنتي تعبانة وانا مش عارف أعمل لك إيه علشان ترتاحي.. وخفت أقول لك إني نازل أشوف شغل متوافقيش».

دمعت عيناها وهي تكرر:

«اشتغلت علشاني؟».

- «أيوه.. عايزك ترتاحي».

- «وانا مش عايزاك تتعب».

- «وفيها إيه لمّا أتعب شوية.. إنتي تعبتي كتير علشاني.. مش هتاكلي؟».

لاحظت أنها تتحدث معه ويده ممدودة بالطعام.. أخذته منه وابتسمت لتشجيعه على الكلام وهي تسأله:

«واشتغلت إيه؟».

فرح بابتسامتها وبدأ يأكل هو الآخر وحكى بحماس:

«رُحت السوق سألت التجار على شغل لحد ما رُحت للحاج حسّان الخضري وقلت له يشوف لي أيّ شغل.. أودي البيوت أو أنضف المحل أو أشيل له أيّ حاجة فهو قال إني مش هقدر على الشغل ده.. فقلت له أيّ شغل هشتغله.. قال هيجرّبني في البيع فأخدت منه شبك لمون ورُحت أبيعه في الإشارات».

- «تعبت؟».

- «لا.. كنت مبسوط وانا بشتغل.. عملتي إيه عند الدكتور؟».

- «الحمد لله كتب لي علاج وقال أروح له كمان أسبوعين».

أكملت الطعام ثم قالت:

«رزق.. مفيش شغل لمّا أقدر أنزل.. يعني كام يوم كده وتقعد إنتَ.. ولو حسيت إنك مش قادر أو مش عايز تنزل متنزلش.. أنا وافقت بس علشان إحنا في الإجازة».

- «حاضر».

❑❑❑

خلال فترة العلاج استطاعت فاطمة العمل بعض الأيام وأيام أخرى لم تستطِع.

الألم هدأ في الأسبوع الأول ثم عاودها بشراسة في الأسبوع الثاني..

رزق يعمل يوميًّا ولولا عمل رزق ما وجدت فاطمة قوت يومهما.

ذهبت للطبيب مرة أخرى بعد الأسبوعين.. دخلت له حينما حان دورها.. تذكرها وسألها عن حالتها فأخبرته أنها لم تتحسن.

أجرى الكشف عليها ثم قال:

«آخر مرة كلتي يا حاجة الساعة كام؟».

فكرت قليلاً ثم قالت: «من بدري ييجي من الساعة ٧ الصبح».

«طيب كويس.. هتطلعي دلوقتي للأشعة تعملي الأشعة اللي كتبتها لك دي وتنزلي لي بيها قبل ما أمشي».

نهضت فاطمة وهي تأخذ الورقة منه.. وصعدت للأشعة ونفذت ما قال.

دقق الطبيب النظر في صورة السونار التي طلبها من فاطمة.. ثم وضع الصورة أمامه وسأل فاطمة:

«أنا ملاحظ إنك بتيجي لوحدك.. معندكيش أولاد؟».

- «عندي، بس مسافرين».

- «عايشة لوحدك؟».

- «مع ابني الصغير».

- «الصغير ده شاب يعني ولا قد إيه؟».

- «لا.. في ٦ ابتدائي».

صمت الطبيب قليلاً.. ثم قال:

«طيب.. أنا مش عايز أخوّفك.. بس اللي أنا شايفه مش بسيط».

توترت فاطمة وحاولت التماسك وسألته بصوت مرتجف:

«خير يا دكتور؟».

- «فيه ورم على الكلية».

قاطعته فاطمة:

«سرطان؟».

رد الطبيب: «منقدرش نعرف إن كان الورم حميد ولا خبيث إلا بعد تحليله.. الورم مش صغير.. إحنا محتاجين أشعات وتحاليل وحاجات كتير بس في النهاية لازم استئصال الكلية كلها مش الورم بس».

سألته فاطمة وهي تحبس دموعها:

- «والتحاليل والعملية والحاجات دي كلها تتكلف كام تقريبًا؟».

- «إنتي معندكيش تأمين؟».

هزت فاطمة رأسها نفيًا ودموعها تلمع في عينيها.. فهم الطبيب الطيب شعورها:

«هي هتتكلف كتير.. بس فيه مركز كويس أوي في المنصورة بيعمل العمليات دي ببلاش.. هو مبلغ رمزي بتدفعيه مش عارف جنيه أو ٥ جنيه حاجة كده وهما بيعملوا كل حاجة».

شعرت فاطمة بشعاع أمل فشكرت الطبيب بعد أن كتب لها التحاليل والأشعات المطلوبة وعنوان واسم مركز الكلى في المنصورة.

سارت فاطمة عائدة للبيت ودموعها تحجب عنها الرؤية.. لسانها يردد «اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها».

ولكنها رغمًا عنها تفكر.. ماذا لو حدث لها مكروه وأولادها بعيدًا عنها.. ورزق مع من تتركه وكيف سيعيش وحده؟

تظلم الدنيا في عينيها رغم سطوع شمس الظهيرة في يوم شتوي مشمس.. فتردد مرة أخرى:

«اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها».

❑❑❑

صعدت لبيتها دون أن تطرق باب كريمة.. فتحت بابها وأغلقته عليها وجلست تبكي.

نهضت تتوضأ وتصلي وتدعو الله أن يلطف بها.

قبل المغرب بقليل، عاد رزق.

دخل البيت وهو يصيح:

«ماما.. أنا جعان.. جبت معايا عيش وبيض وبسطرمة».

وأخرج عشرين جنيهًا من جيبه:

«اتفضلي يا ماما».

تناولتها منه فاطمة وفردت ذراعها تضمه.. تخاف عليه وتخشى حياته وحيدًا بلا أيّ سند.

بكت وهي تضمه.. قلق رزق وسألها:

«مالك يا ماما؟».

مسحت دموعها وحاولت تطمئنه:

«مفيش يا حبيبي».

نهضت وهي تتحامل على نفسها:

«هقوم أعمل ناكل».

- «الدكتور قال إيه؟».

دمعت عيناها مرة أخرى وهي تحضر الطعام وظهرها لـ«رزق»:

«قال لي أعمل تحاليل وأروح أكشف في المنصورة».

اقترب منها رزق بعدما استشعر صوتها المختنق:

«ماما.. مالك؟.. وليه المنصورة مش هنا؟».

حاولت تبتسم وهي تقول:

«احتمال أعمل عملية يا رزق».

تركت ما بيدها.. حضنته وهي تبكي مرة أخرى:

«عملية ليه؟ إنتي عندك إيه؟».

- «لمّا نروح المنصورة هنتأكد».

التفتت تكمل الطعام وهي تقول:

«أنا هحاول أنزل السوق الكام يوم الجايين علشان أجيب مصاريف السفر والحاجات المطلوبة».

- «ماشي.. وهساعدك.. اللي مش قادرة عليه قولي لي أعمل إيه و إنتي خليكي قاعدة وأنا أعمله».

- «ربنا يخليك ليّا يا ابني».

وأكملت في سرها:

«يا رب ادّيني العمر لحد ما تشد حيلك».

سمعا صوت كريمة تنادي.. فتذكرت فاطمة:

«يا خبر.. أنا نسيت أعدي عليهم لحد دلوقتي».

قال رزق وهو يتجه للباب:

«طيب.. أنا هنزل أشوفها يمكن محتاجة حاجة».

ردت فاطمة:

«متتأخرش علشان تاكل.. وقُل لها شوية وهنزل لها».

«حاضر».

نزل رزق سريعًا.. وجد كريمة تقف على باب شقتها.. قالت، وهي تدخل ورزق خلفها:

«هات رقم جلوسك بسرعة».

سألها رزق: «النتيجة؟».

- «أيوه».

أعطاها رزق الرقم.. كتبته كريمة وانتظرت لحظات ثم ظهرت النتيجة ورزق بجوارها يقرأ درجاته:

«مبروك يا رزق».

ضمته وقبّلته بفرحة.. قال فرحًا:

«هطلع أفرّح ماما.. آه صحيح قالت لى أقول لك هتنزل لك كمان شوية».

- «ماشي.. مستنياها أيّ وقت».

صعد رزق وهو يقفز درجات السلم سريعًا.. دخل وجد فاطمة أعدت الطعام وتجلس تنتظره:

«ماما.. أنا نجحت».

- «ألف مبروك يا حبيبي».

ضمته مرة أخرى.. لاحظت أنها اليوم تضمه كثيرًا وتشعر أنها تحتاج حضنه أكثر وأكثر...

مَن يحتاج مَن أكثر؟ هل هي من تحتاجه أو هو من يحتاجها؟

في جميع الأحوال يحتاجان بعضهما.

تناولا الطعام ونهضت فاطمة:

«أنا هنزل لكريمة شوية وآجي أحضّر العجين.. ارتاح إنتَ شوية تلاقيك تعبت من الصبح».

❒❒❒

عندما لاحظت كريمة الحزن الساكن في نظرات فاطمة.. سألتها..

وحكت فاطمة ما حدث وخوفها وقلقها:

«خايفة أوي.. خايفة أتعب أكتر ملاقيش حد يخدمني.. رزق صغير على الحِمل ده.. خايفة أموت الغلبان ده ميلاقيش حد جنبه».

- «إن شاء الله هيكون الدكتور غلطان ومفيش حاجة خالص».

- «يا رب.. تفتكري ممكن؟».

- «ممكن أوي.. خلّي أملك في الله كبير».

- «مليش غيرُه يا بنتي والله».

- «طيب.. مش هتقولي لعلي ونورا».

- « كل واحد فيهم عنده مسئوليات.. مش عايزة أربك لهم حياتهم».

- «بس حقك عليهم إنهم يكونوا جنبك».

- «هستنى لمّا أروح أكشف في المنصورة زي ما الدكتور قال».

- «ربنا يطمنا عليكي يا أم علي.. إن شاء الله يكون مفيش حاجة».

❑❑❑

تحاملت فاطمة على نفسها في الأيام التالية للعمل.. وعمل رزق للمساء.. لم تكمل فاطمة كل المطلوب بسبب عدم استطاعتها.

تبقى أيام قليلة على بداية الفصل الدراسي الثاني فقررت فاطمة السفر قبل انشغال رزق ببداية الدراسة.

أخذته فاطمة معها وذهبت للعنوان.. بمجرد وصولها في المنصورة وسؤالها عن المركز وجدت الكثير يدلها على كيفية الوصول.

وصلت للشارع الذي يوجد به المركز.. وجدت الكثير يفترشون الأرض من خارج المركز إلى داخله، كلٌّ ينتظر دوره.

سألت حتى استطاعت قطع تذكرة وكان عليها انتظار دورها.

بحثت عن شجرة تظلهما من الشمس وجلست هي ورزق تحتها.

ساعات طويلة وسط مرضى حالتهم تقطع نياط القلوب.. تنظر حولها وتجد نفسها أحسن حالاً من غيرها فتحمد الله.. ثم يهاجمها الألم فتحاول شغل نفسها بذكر الله.

حان دورها في بداية المساء.. أجرى الطبيب الكشف عليها وقرر حجزها يومًا لإجراء كل الأشعات والتحاليل مرة أخرى.

في اليوم التالي، وبعد انتهاء الفحوصات.. جلست أمام الطبيب تنتظر سماع التشخيص النهائي لحالتها.

رزق أيضًا ينتظر بخوف وقلق.. وجودهما في المستشفى وكثرة الفحوصات تدل على أن الأمر ليس هيّنا.

تحدث الطبيب وكل منهما قلبه سقط في قدمه:

«الحالة واضحة.. ورم على الكلية لازم الكلية كلها يتم استئصالها.. الورم على شريان والعملية مش سهلة يعني لو هتعمليها بره لازم يكون دكتور كبير مش أيّ كلام».

سألت فاطمة بتماسك:

«هو ينفع أعمل العملية هنا؟».

- «آه طبعًا.. بس بالدور.. شوفي في الاستعلامات الدور بتاعك إمتى ولو هتقدري تستني مفيش مشكلة».

ردت باستسلام: «استنى وماله».

- «لو تقدري تعمليها بره في أسرع وقت أفضل.. الورم ممكن يكون بيكبر وممكن يعمل مضاعفات تانية أكتر».

خرجت فاطمة من عند الطبيب لتسأل في الاستعلامات عن دورها في العملية..

شعرت بيد رزق تمسكها بقوة ورغم قوتها بيده رعشة ما.

توقفت ونظرت لـ«رزق» لتجد عينيه مغرورقتين بالدموع.

نظرت له.. حاولت أن تتحدث لكنها وجدته يرتمي في حضنها ويبكي بشدة وهو يضمها.. شعرت بخوفه.. حاولت طمأنته ولكنها اختنقت أيضًا بالدموع فبكى كل منهما في حضن الآخر.

دقائق دون كلام.. بكاء وكل منهما يحاول اجترار الأمان من الآخر.

تماسكت فاطمة وربتت على رزق:

«متعيّطش إنتَ راجل.. كل اللي بيجيبه ربنا خير ونحمده عليه حتى الابتلاء».

- «أنا خايف عليكي».

ابتسمت بدموعها وهي تطمئنه:

«متخافش.. إن شاء الله هبقى كويسة».

أمسكت يده وذهبا للاستعلامات وسألت عن موعد العملية.. وجدت الدور بعد عام ونصف العام.

صُدمت بعدما قارنت الوقت المتبقي بكلام الطبيب عن سرعة إجراء العملية.. تقبلت الصدمة بصمت وخرجت هي ورزق من المركز متجهة للموقف لتعود إلى القاهرة.

❑❑❑

منذ عودة فاطمة من المنصورة والآلام تتزايد عليها.. الحزن خيّم على المنزل وكأن بهجته سُرقت بمرض فاطمة.

حاولت ألا تنقطع عن زيارة كريمة ووالدتها ولكن في بعض الأيام نوبات الألم كانت أقوى منها فلا تزورها.

فتزورها كريمة وتطمئن عليها محمَّلة أحيانًا بطعام مطهو لـ«فاطمة» ورزق.

طلبت منها كريمة أن تخبر أبناءها ولكنها رفضت خوفًا على زعزعة استقرار حياتهم.

بدأ رزق الفصل الدراسي الثاني وازدادت مصروفاته وطلبت منه فاطمة أن يتوقف عن العمل وستعمل هي.

لكنها لم تستطع العمل.. ومطالب رزق تجعله في حاجة ماسّة للعمل فطلب منها أن يستمر في عمله..

فقالت بحسم:

«يبقى ترجع من المدرسة على البيت تخلص مذاكرتك ولو فيه وقت تنزل بالليل شوية تنزل».

وافق رزق.. وبالفعل أصبح يذهب للمدرسة صباحًا ويعود للمنزل ثم ينزل للعمل مساءً ويعمل بقدر ما يمكنه لتوفير ما يحتاجونه.

تتألم فاطمة وتتعذب.. تشعر بالذنب أنها لا تستطيع العمل ورزق هو الذي يعمل ليُنفق عليها.

يعذبها إحساسها بالتقصير ناحيته وتقارن بينه وبين علي ونورا أثناء مراحل دراستهما.

كانت أيسر حالاً ولم يلجأ أحد أبنائها للعمل مع الدراسة كما يفعل رزق.

ليالي أرق عاشتها فاطمة.. تفكر كيف تتحرر من شعورها بالذنب نحو رزق.. يؤرقها السر الذي تُخفيه عنه والذي آن الأوان له أن يعرفه.

تشعر باقتراب أجلها.. لذا يجب أن يعلم رزق الحقيقة.

بعدما اتخذت قرارها بالبوح.. انتظرته بعدما عاد من عمله في المساء.. وبعدما أحضرت له طعامًا وأكله.. وقبل أن يخلد للنوم، جلست جانبه وقالت بصوت متردد:

«رزق.. إنتَ دلوقتي راجل وأنا واثقة إن عقلك سابق سنك.. فيه سر كنت ناوية أقولهولك بس كنت مستنية تكبر شوية علشان تفهمني.. إنّما بعد ما عرفت إني تعبانة وممكن أموت أيّ وقت لازم تعرف السر ده النهارده قبل بكره».

عانقها رزق وقد دمعت عيناه من الكلام الذي يحاول أن يبعده عن تفكيره:

«ماما.. متقوليش كده.. ربنا يخليكي وتفضلي معايا على طول».

ربتت عليه بحنان وقد دمعت عيناها وهي تسأله:

«بتحبني يا رزق؟».

«أوي أوي.. أنا مليش غيرك في الدنيا».

«طيب هتزعل مني لو عرفت إني خبيت عليك الحقيقة.. بس والله كنت ناوية أقول لك».

انتبه رزق وبدأ الفضول يحل محل الحزن قليلاً:

«حقيقة إيه؟».

قالت بدموع: «أنا مش أمك الحقيقية».

وقبل أن يفيق رزق من اندهاشه حكت له فاطمة عن عملها في المطعم واليوم الذي رأت

فيه حادث عزة..

حكت عن وصية عزة لها.. حكت عمّا علمته من كلمات عزة القليلة والتي أكدتها الحاجة سامية صاحبة المشغل في اليوم التالي للحادث..

حكت عن تعلقها به طوال السنوات الماضية وحبها له كأبناء بطنها.

أنهت حديثها وانتظرت رد فعل رزق بخوف وقلق كبيرين.

أمّا رزق فبعد سماعه للحقيقة ظل صامتًا.. يحاول استيعاب ما قيل..

زاد صمت رزق قلق فاطمة.. فسألته:

«زعلت مني؟».

أمسك يدها يقبّلها وارتمى في حضنها مرة أخرى:

«مقدرش أزعل منك.. أنا معرفش أم غيرك ولا إخوات غير اخواتي.. انتم أهلي اللي أعرفهم إنّما اللي حكيتي عنهم دول ناس معرفهمش.. أمي وأبو يا الحقيقيين ماتوا وانتي أخدتيني في حضنك ومحسستينيش في يوم إنك مش أمي؛ يبقى أزعل منك إزّاي.. أنا لو فضلت العمر كله أشكرك مش هيكفي».

- «مش عايز تدوّر على أهلك.. كل الورق اللي كان مع مامتك الله يرحمها موجود عندي».

- «مش هسيبك وأروح لناس معرفهمش.. ناس أمي قالت لك متودّنيش عندهم يبقى أكيد فيه حاجة أنا معرفهاش ومش عايز أعرفها.. إنتي مش عايزاني؟».

دمعت عينا فاطمة وهي تضمه:

«مش عايزاك!! ده إنتَ سندي ونور عيني وحتة من قلبي».

شعرت بـ«رزق» يتشبث بها وهي تضمه.. شعرت ببكائه وخوفه..

دعت الله في سرها أن ينجيها من أجله.. هو فقط من تتمسك بالحياة من أجله.

❑❑❑

لم تعد فاطمة قادرة على تحمل نوبات الألم أكثر.. كل ما تأخذه من مسكنات أصبح بلا جدوى.

أشارت عليها كريمة باستشارة طبيب آخر ربما كتب لها مسكّنًا أقوى حتي يحين موعد إجراء العملية.

حجزت لها كريمة عند طبيب والدتها ودفعت ثمن الكشف.

أمّا رزق فلم يقصر يومًا في النزول ليلاً للعمل مهما كانت الظروف.

قبل نزول رزق للعمل في المساء أخبرته فاطمة:

«أنا هروح للدكتور بالليل ومش عارفة هخلص إمتى».

- «تحبي آجي معاكي؟».

- «لا.. خليك في شغلك ربنا يرزقك».

- «طيب.. لو خلصتي بدري نتقابل ونرجع مع بعض».

- «ماشي.. لو الساعة جت ١٠ وانا مجيتلكش تعالى على البيت».

- «حاضر».

❑❑❑

وقف رزق يبيع الليمون للسيارات التي تقف في الإشارة ككل يوم.. بدأ المطر بزخات خفيفة لم تمنع رزق من العمل..

ثم ازداد المطر وركض المارة لجانب الطريق يستظلون من المطر.. واحتمى رزق بمظلة أحد المحال.

قليل من الوقت واختفى المارة من الطريق وتبقّى فقط السيارات التي تمر مغلقة نوافذها..

نظر رزق للمتبقي من بضاعته والنقود الزهيدة التي جمعها..

نهض فجأة غير عابئ بالمطر وظل يقفز بين السيارات في الإشارة يدق نوافذها المغلقة ليبيع بضاعته..

يرأف بعضهم بحاله وآخرون لا يفتحون نوافذهم للرد عليه..

يبيع.. وعيناه على الشارع الذي قد تجيء منه فاطمة في أيّ وقت.

يتمنى أن ينتهي من بضاعته قبل أن تأتي فاطمة.

رأى شابًّا يقترب منه.. فظن رزق أنه يريد أن يشتري منه فأقبل عليه..

سأله الشاب: «إنتَ بتعمل إيه في الجو ده؟».

رد رزق بتلقائية: «بشتغل.. تاخد ليمون؟».

الشاب: «إنتَ عندك كام سنة؟».

- «١٢».

- «إنت عايش في الشارع؟».

- «لا، عايش في بيتنا».

- «مع باباك ومامتك؟».

تلعثم رزق قليلاً ثم أجاب:

- «لأ.. بابا وماما ماتوا».

- «وانتَ عايش مع مين؟».

- «مع أمي اللي ربتني».

رزق يرد باستعجال.. عيناه على الإشارة التي قد تتوقف في أيّ لحظة وعلى الشارع المتوقع مجيء فاطمة منه.

توقفت الإشارة.. ركض رزق يبيع القليل المتبقي معه.. بعد فتح الإشارة وقف رزق سعيدًا بعد بيع كل ما معه.

ناداه الشاب مرة أخرى.. اتجه ناحيته.. في الوقت نفسه الذي جاءت فيه فاطمة ورأته فنادته..

عندما رآها رزق ذهب إليها.. سألته بقلق:

«مين ده اللي كان بيشاور لك؟».

- «معرفش.. واحد عمال يسألني أنت عايش مع مين وفين أهلك».

نظرت فاطمة بحدة للرجل الذي يقف على الجانب الآخر من الطريق.. وأمسكت بيد رزق وابتعدت به:

- «أنا مش قُلت لك متكلمش حد متعرفوش.. يعني على قد البيع والشرا وبس؟.. عايز منك إيه ده؟.. ربنا يكفيك شر طريقك».

ابتعدت فاطمة بـ«رزق» وهي تؤكد عليه مرارًا عدم التحدث للغرباء.

□□□

دخلت كريمة غرفتها بعدما اطمأنت على والدتها التي ترقد بلا حراك.. وبعدما اطمأنت على فاطمة التي عادت منذ ساعات من عند الطبيب الذي لم يُضِف جديدًا سوى التأكيد على سرعة إجراء العملية، تثاءبت وصعدت لسريرها وتدثرت في تلك الليلة الباردة.. فتحت التليفزيون تقلب في قنواته وهي تقاوم النوم..

رن هاتفها.. اعتدلت جالسة وهي تنظر في الهاتف على اسم المتصل والساعة معًا..

الساعة تعدت الواحدة وزوجة أخيها تتصل.. ردت بقلق:

«آلو.. لأ، صاحية منمتش.. إنتم كويسين؟.. لأ، مشفتش حاجة.. إنتي متأكدة؟ طيب ابعتي لي اللينك.. سلام».

أغلقت كريمة الهاتف مع زوجة أخيها ونهضت من سريرها وأحضرت اللاب توب وفتحته بلهفة..

فتحت «الفيس بوك» ورأت رسالة مرسلة من زوجة أخيها.. فتحتها بسرعة وجدت اللينك الذي أرسلته.. دخلت عليه لتتأكد..

بالفعل، كما قالت زوجة أخيها.. رأت صورة مهزوزة لـ«رزق» وصورة واضحة لـ«فاطمة» وهي تنظر بحدة..

الصورة حديثة.. الصورة منذ ساعات.. نفس الملابس التي ترتديها فاطمة ويرتديها رزق عندما رأتهما بعد عودتهما مساءً..

قرأت العنوان الغريب: «مافيا خطف الأطفال.. صورة واضحة لإحدى الخاطفات تجبر الأطفال على التسول.. انشروا على أوسع نطاق».

لم تصدق كريمة ما قرأته.. قرأت تفاصيل «البوست» لتجد ما يلي:

«وردت إلى الصفحة رسالة من أحد الأعضاء يروي رؤيته لأحد الأطفال ويشك في أن يكون مخطوفًا.. الرسالة كما وصلت للصفحة:

الساعة ٩ ونص بالليل وفي عز البرد والمطر شُفت طفل بيجري بين العربيات في الإشارة.. ناديت له وسألته بيعمل إيه قال بيشتغل..

سألته عايش مع مين مرة يقول مامته ومرة يقول مامته وباباه ميتين..

الولد كان باين عليه الخوف وعينيه بتلف في المكان لحد ما ظهرت الست دي ونادت له والولد جري عليها أخدته ومشيت واختفوا.

أنا لحقت أصورها قبل ما تمشي وهي بتبص لي.. شَيَّروا صورتها بسرعة وخلوا بالكم من ولادكم.. وياريت الأمن يقبض عليها في أسرع وقت لأن أكيد مش لوحدها ووراها عصابة لخطف الأطفال».

قرأت كريمة «البوست» أكثر من مرة.. وجدت الكثير من التعليقات وعددًا هائلاً من « ».

قرأت كل التعليقات الموجودة.. كلها سب في فاطمة والدعاء عليها.. والبعض يدعو لـ«رزق» أن يرده الله لأهله..

كلما انتهت من قراءة التعليقات تجدها تزيد فتقرأ الجديد..

كتبت بدون تفكير:

«حرام عليكم.. الست دي مش خاطفاه.. بلاش تدعوا عليها كده».

وجدت تعليقات كثيرة ترد عليها.. منهم من يسبّها هي الأخرى ومنهم من يتهمها بأنها ضمن عصابة خطف الأطفال.

لم تستطِع الرد على الردود التي جاءتها ولم تتحملها فمسحت تعليقها وأغلقت اللاب توب وجلست حزينة.

تتعجب من الهجوم عليها بسبب كلمة حق قالتها.. ليتهم يتناقشون فتوضح الحقيقة.. لكنهم يهاجمونها بشدة تصل للسباب.

فَرَّ النوم من عينيها.. تفكر ماذا لو قُبِضَ على فاطمة واتُّهمت ظلمًا بأنها خاطفة للأطفال؟!

تعلم جيدًا تأثير السوشيال ميديا على الرأي العام.. تعلم جيدًا أن الفيس بوك فتح قضايا وحل مشاكل وألقى بمجرمين خلف القضبان.

لكن فاطمة لم ترتكب ذنبًا أو جريمة.. فاطمة إن تم اتهامها تستطيع إثبات كلامها بسهولة من خلال الأوراق التي تملكها ومن خلال تسَلُّمها لـ«رزق» رسميًّا عن طريق قسم الشرطة.

لكن.. إن انتشرت صورتها بين الناس وقد التصقت بها تلك التهمة كيف ستواجه المجتمع؟.. كيف ستواجه النظرات المرتابة التي ستقابلها؟.. كيف ستواجه الاتهامات التي ستلقى عليها؟

فكرت كريمة كثيرًا في طريقة تساعدها بها.. لم تصل إلى شيء.

في الصباح، بعد أن استيقظت.. فتحت اللاب توب لتقرأ البوست مرة أخرى..

ذُهِلت عندما رأت التعليقات ازدادت أضعافًا مضاعفة.. ورأت عدد «» تزايَد أيضًا.. بل وجدت أن بعض الصفحات نقلت «البوست» الأساسي.

شعرت بأنها أمام طوفان سيبتلع فاطمة.. فكرت قليلاً ثم قررت أن تراسل الصفحة ربما فعلت شيئًا ينقذ فاطمة.

فتحت نافذة الرسائل.. وبدأت تكتب بتأنٍّ وهي تفكر في صياغة كلماتها:

«معذرةً.. هل يمكنني أن آخذ من وقتكم بضع دقائق..

علمًا بأن تلك الدقائق تحتاجونها أنتم ولست أنا في حاجة إليها.

ما دفعني لكتابة سطوري تلك هو مساعدتكم ربما أردتم معرفة الحقيقة والتكفير عن ذنبكم في نشر التضليل.

هلّا هدأتم قليلاً قبل اللهث وراء وجه آخر مظلم للحقيقة.

كلامي عن القصة التي نُشرت وعن أبطالها التي ملأت صورهم صفحاتكم.. وسارت تتنقل بينكم كالنار في الهشيم.

أكتب لأضع الحقيقة بين أيديكم ونصب أعينكم..

بعدما تألمت من أن تشتهر بطلة القصة بنشر صورتها تجريمًا لا تكريمًا ووصفتموها بأنها من المفسدين في الأرض.. المرأة التي صببتم عليها لعناتكم ووصمتوها بأقذع الألفاظ.

أكتب لكم لأني شاهد على القصة من بدايتها إلى نهايتها.

نهايتها؟! هل حقًا تلك هي النهاية؟

لا.. لا يمكن.. ليست ثقة في أهل الأرض ولكن يقينًا في عدل رب الأرض والسماء.

هل أحكي القصة من بدايتها.. أم منذ لقائهما؟!

دعوني أخبركم قصتهما.. وكيف ومتى التقيا.. هي ورزق».

«حلم غير مشروع نتمنى الوصول إليه.. وحينما نصل إليه نشعر بنشوة تفقدنا التفكير..

فقط نتذوق حلاوة السعادة الزائفة.

فجأة.. حين تنقلب السعادة شقاءً..

حين نجد أنفسنا وحدنا..

لا يدَ تُنقذ ولا أُذنَ تسمع..

لا مَخرجَ ولا بديل.

ولا استغناء ولا حيلة..

نندم وقت لا ينفع الندم»

تقف مجموعة من السيدات خلف مجموعة أخرى من الرجال في مراسم جنازة..

في آخر صف للسيدات تميل سيدة منتقبة على زميلتها تهمس في أذنها ثم تلتفت المنتقبة وتسير بعيدًا عن الجنازة..

تمشي بين المقابر حتى تصل إلى مقبرة.. تقف أمامها وترفع يديها بقراءة الفاتحة والدعاء..

تقترب من القبر وتمسح التراب بمنديل من على اسم «صالح عاشور».. تجلس أمام القبر وترفع نقابها لتمسح دموعها.

يسرية الشابة الجميلة بهتت وشحبت ورسمت علامات الزمن آثارها على الوجه الجميل..

عشر سنوات عادةً غير مؤثرة في الشكل.. ولكن في حياة يسرية السنوات العشر رسمت علامات عشرات السنين.

قالت بصوت خفيض والدموع تتلألأ في عينيها:

«سامحني يا صالح.. سامحني على كل حاجة.. غِلطت في حقك وانتَ عايش وبعد موتك.. ياريت الزمن يرجع.. ياريت».

بكت يسرية كثيرًا.. بعد قليل اقتربت منها سمية تربت عليها بعدما رأتها تبكي دون أن تسمع كلماتها..

سألتها بقلق: «فيه إيه يا يسرية.. ليه العياط ده كله؟».

- «مخنوقة.. وحاسة إني ظلمت صالح أوي».

- «ظلمتيه في إيه بس؟.. هو اللي كان ظالمك مش إنتي».

ابتسمت يسرية بسخرية:

«ياريته عاش وياريتني فهمت بدري اللي ماما ياما قالتهولي.. صالح غلطته الوحيدة إنه رفض يحس بيّا ويسمعني.. إنّما أنا اللي غلطت كتير».

- «يسرية.. متحمّليش نفسك فوق طاقتها.. صالح مات وانتي اتجوزتي.. خلاص ميفيدش أيّ كلام تاني».

تنهدت يسرية بألم وهي تردد:

«صحيح معدش يفيد كلام».

رن هاتف سمية.. فردت:

«أيوه يا محسن.. لا، إحنا لسه في الدفنة.. مش هنرجع على الشغل بقى كل واحدة هتروح على بيتها.. أيوه يسرية معايا.. هنمشي اهو.. هو فيه حاجة؟.. ماشي.. سلام».

قالت سمية: «يلّلا قومي نروَّح».

- «سأل عليّا؟».

ردت سمية بتعجب: «محسن؟!.. آه سأل عليكي».

هزت يسرية رأسها وهي تضع نقابها على وجهها وتنهض لتسير بجوار سمية.. فقالت موضحة:

«فاروق اللي بيسأل مش محسن يا سمية».

- «وفاروق مكلمكيش ليه؟.. إنتم متخانقين؟».

- «العادي.. هو بس عايز يتأكد إني معاكي».

لم تتوقف سمية عند الكلمة وغادرتا المقابر كل منهما إلى منزلها.

دخلت يسرية منزلها، وضعت مشترواتها بجانب الباب.. وجدت فاروق جالسًا أمام التليفزيون.. تلوّن وجهها وسألت بحدة:

«إيه اللي جابك بدري يا فاروق؟».

نهض فاروق ورد بحدة أكبر:

«نعم!! آجي بدري ميعجبش أتأخر ميعجبش».

نادت دون أن ترد:

«ملك».

جاءتها ملك من المطبخ.. فسألتها:

«بتعملي إيه؟».

- «بعمل بيض مقلي آكل قبل ما أنزل».

يسرية: «إخواتك فين؟».

ملك: «بيغيّروا هدومهم».

سألها فاروق: «هو إنتي معملتيش أكل؟».

ردت يسرية وهي متجهه لغرفتها تبدل ملابسها:

«لسّه معملتش».

ذهب خلفها إلى غرفتها وهو يصيح:

«معملتيش أكل ليه؟».

ردت وهي تبدل ملابسها:

«وحضرتك مجبتش أكل ليه؟.. مسبتليش فلوس ليه؟».

- «إنتي مش بتاخدي مصروف البيت.. أجيب لك منين؟».

ضحكت بسخرية:

«٥٠٠ جنيه يا ظالم وتقول لي مصروف البيت.. بيت فيه ٥ أنفار أكل وشرب وبيت مفتوح ودروس ثانوية عامة ودروس عيلين في ابتدائي وتقول لي مصروف!!».

- «أعمل لك إيه.. ده اللي أقدر عليه».

صرخت يسرية:

«فاااااروق متقولليش الكلمتين اللي حفظتهم.. إنت تقدر على أكتر من كده.. لو توفر في لبسك والعربية والسجاير والبرفانات.. ولّا متقدرش طبعًا علشان تعرف تشوف مزاجك».

خرج من الغرفة وهو يصيح:

«أنا مش عارف مستحملك إزّاي؟».

خرجت خلفه وهي تصيح:

«زي ما أنا مستحملة عيشتي معاك».

خرج فاروق من المنزل وصفق الباب خلفه بشدة.. جاء أولاد يسرية الثلاثة.. ملك وآدم ومريم.. التف الصغار حولها وسألتها ملك:

«هو مفيش أكل علشان مفيش فلوس؟».

ردت يسرية: «لا، متقلقيش جبت أكل وانا جاية بس لسّه هطبخ.. هتخلصي دروسك إمتى؟».

- «على ٨ كده».

- «ماشي يا حبيبتي أكون خلصت.. خدي ٢٠ جنيه من شنطتي».

- «ماما.. لو معكيش فلوس ممكن آخد ١٠ بس».

حضنتها يسرية وربتت عليها:

«ده حقك وخير أبوكي الله يرحمه.. ملكيش ذنب إنتي باللي أنا عملته في نفسي وفيكي».

قالت ملك بتأثر: «ماما.. إنتي لسه زعلانة علشان زمان قلت لك إني زعلت منك علشان اتجوزتي.. أنا وقتها كنت صغيرة وبقول أيّ كلام.. متزعليش مني أنا والله مش زعلانة منك أنا بَحبك».

ضمت يسرية أبناءها الثلاثة وقالت بحب وشجن:

«وأنا بحبكم أوي ومش ممكن أزعل منك يا ملك.. أنا زعلانة عليكم من نفسي».

ثم ابتسمت لأولادها:

«يلّلا يا ولاد كلوا دلوقتي مع أختكم.. هصلي بس العصر وأطبخ على طول».

دخلت يسرية المطبخ بعدما انتهت من الصلاة وبدأت تفريغ مشترياتها وانهمكت في الطهي.

سنوات طويلة مرت ويسرية تجلد ذاتها بعدما أفاقت على الحقيقة.. الحب الذي كانت تحلم به لم يحقق لها السعادة كما تخيلت..

الحب أضعفها ولم يسعدها.. والوجه الذي لم ترَه من فاروق بدا واضحًا.

رأت حياة لم تعِشها من قبل لا في منزل والدها الذي ملؤه الحب والاحترام رغم الفقر ولا مع صالح الذي عاشت معه أجمل سنوات العمر.. وجدت في فاروق زوجًا متسلطًا أنانيًّا خائنًا شكاكًا، غير متحمل لأيّ مسئولية مادية.. لولا راتبها ومعاش ملك ومدخراتها التي نفدت منذ سنوات.. ثم مساعدات يمنى لها، ما استطاعت تدبير نفقات المنزل.

في المساء جلست مع أولادها الصغار تساعدهم في مذاكرتهم.. وفي الثامنة والنصف عادت ملك من دروسها فنهضت يسرية:

«هقوم أسخن لك الأكل وألبس لحد ما تغيري هدومك».

- «رايحة فين؟».

- «رايحة مع خالتك للدكتور».

- «هو مقالش هتولد إمتى؟».

- «لما نشوف النهارده هيقول إيه؟».

دخلت يسرية المطبخ.. وسمعت صوت وصول فاروق..

اقترب من المطبخ سألها:

«فيه أكل ولّا مفيش؟».

قالت بسخرية: «معقول مأكلتش بره؟».

زفر بضيق: «مكلتش.. ولو مفيش خلاص مش عايز».

ردت بعدم اهتمام: «لأ.. فيه».

انتهت يسرية من تحضير الطعام لـ«فاروق» وملك ثم ذهبت لتبديل ملابسها.. وعندما رآها فاروق سألها:

«رايحة فين؟».

- «من ٣ أيام لمّا رُحت مع يمنى للدكتور جيت قلت لك إن الكشف الجاي كمان ٣ أيام».

- «نسيت».

ثم أكمل وهو يتناول الطعام:

«ما تخليكي انتي ومامتك تروح معاها».

- «ماما هتقعد بولاد يمنى».

- «بدِلوا.. يمنى تجيب ولادها هنا ومامتك تروح معاها».

- «فاروق.. أنا رايحة مع أختي اللي مليش غيرها.. كفاية تملّك بقى.. وبقول لك إيه.. ما تيجي توصلنا وتستنانا تحت الدكتور كمان».

وأكملت بسخرية:

«يمكن أكون رايحة حتة تانية ولّا حاجة».

قال فاروق بحدة:

«بطلي أسلوب تلقيح الكلام ده.. لسانك بقى طويل أوي».

ردت بسخرية: «كُتر البكا يعلم النواح».

ثم نظرت لـ«ملك» التي تتناول طعامها في صمت:

«ابقي لمي الأكل وسيبي المواعين لما آجي أعملها.. ذاكري انتي وتابعي إخواتك في مذاكرتهم».

ثم نظرت لـ«فاروق»:

«لو نازل دلوقتي وصلني.. البيت أولى بفلوس المواصلات».

رد فاروق وهو ينهض بعد انتهائه من تناول الطعام:

«لأ، أنا مش نازل.. فيه ماتش هتفرج عليه.. خدي العربية لو عايزة».

تلوّن وجه يسرية بعدما علمت بوجود فاروق في المنزل.. انتظرت حتى دخل الحمّام يغسل يديه ثم قالت لـ«ملك»:

«خلصي وادخلي أوضتك مع إخواتك.. اقفلي عليكم من جوه ولو فاروق نادى عليكي لأيّ حاجة اتحججي بالمذاكرة وابعتي آدم أو مريم يشوفوه عايز إيه».

- «حاضر».

عاد فاروق وجلس أمام التليفزيون ولاحظ أن يسرية تنظف المائدة قبل نزولها.. سألته:

«عايز شاي ولّا حاجة قبل ما أنزل».

- «لأ».

دخلت يسرية لتنتهي من ارتداء كامل ملابسها ثم خرجت بعدما اطمأنت أن أولادها في غرفتهم.

❑❑❑

فوجئت يسرية بعد إجراء الطبيب الكشف على يمنى أن الطبيب يؤكد ضرورة إجراء جراحة قيصرية حالاً.

ارتبكت يمنى واتصلت بزوجها يحضر حقيبة الملابس التي أعدتها من قبل.. واتصلت يسرية بوالدتها تخبرها أن تظل بالأولاد حتى الصباح.

ثم اتصلت يسرية بـ«ملك»، وأول سؤالها:

«فاروق فين يا ملك؟».

- «قاعد بره بيتفرج على التليفزيون من ساعة ما نزلتي».

- «نادى عليكي أو دخل عندكم؟».

- «لأ».

- «إخواتك ناموا؟».

- «آه».

- «اسمعي.. صحيهم وخليهم يلبسوا والبسي، وعمرو هيعدي عليكم يوديكم تباتوا عند ماما.. خدى هدوم بيت معاكم علشان خالتك هتولد كمان شوية وأنا هبات معاها».

- «آخد لبس المدرسة بتاع آدم ومريم؟».

- «لأ.. لحد ما أشوف بكرة هنعمل إيه».

- «حاضر».

أغلقت يسرية مع ملك ثم اتصلت بـ«فاروق» أخبرته بولادة يمنى العاجلة وحضور عمرو لأخذ أبنائها.

اعترض فاروق:

«وإيه اللي ينزلهم بعد ما ناموا في البرد ده؟.. ما أنا بايت في البيت والصبح هوديهم المدرسة.. ليه يغيبوا؟».

- «أنا أدرى بمصلحة ولادى يا فاروق.. عند ماما هبقى مطمنة عليهم أكتر».

- «وليه ميفضلوش في بيتهم مش فاهم؟».

- « كده يا فاروق.. ومش وقته كلام من ده أنا أختي محتاجة لي».

- «ماشي يا يسرية.. بس اللي بيحصل ده لازم يتحط له حد».

تمتمت يسرية بكلام غير مفهوم وهي تقلب شفتيها ثم أنهت اتصالها وذهبت لـ«يمنى».

❑❑❑

في الصباح الباكر، اتصلت يسرية بوالدتها لتحضر للمستشفى بدلاً منها وأن تبقى الأطفال مع ملك لتذهب يسرية لعملها.. اليوم صرف الحوافز وتخشى أن تغيب اليوم فيتسلم فاروق حوافزها.. وقتها ستصبح نقودها في عِداد المفقودة.

إما أن تسترد جزءًا منها أو تضيع عليها كلها لأيّ سبب يخترعه فاروق وستكون بداية لصراعات جديدة هي في غنى عنها الآن.

وصلت للمكتب.. وجدت فاروق وسمية ومحسن.. ألقت تحية الصباح وجلست خلف مكتبها.

سألها فاروق بهدوء:

«يمنى عاملة إيه؟».

- «الحمد لله».

- «سبتيها ليه؟».

- «ماما جت لها».

- «والعيال فين؟».

- «عند ماما».

- «جيتي الشغل ليه بدل ما تروّحي ترتاحي؟».

- «عليّا جمعية بتتلم مع الحوافز فجيت أقبض وأدفعها».

- « كنتي قلتي لي».

ردت بضيق: «اللي حصل».

نهض فاروق ثم قال:

«طيب أنا هعدي على العيال آخدهم البيت وأقعد معاهم لحد ما تيجي.. كلمي ملك خليهم يجهزوا».

ردت يسرية بحدة: «لأ.. خليهم عند ماما النهارده».

رزع فاروق بيديه على مكتب يسرية بعصبية.. فانتفضت وانتفض محسن وسمية وصاح فاروق:

«يبقى اللي أنا مكنتش مصدق إنك بتفكري فيه صحيح».

نهضت سمية تغلق باب المكتب سريعًا.. ونهض محسن يبتعد بـ«فاروق» عائدًا لمكتبه وهو يهدئه:

«صوتك يا فاروق.. فيه إيه؟.. إنتم مش في البيت».

أكمل صياحه وهو يوجه حديثه لـ«يسرية»:

«إنتي مجنونة.. صح؟ أصل اللي بتعمليه ده مش عمايل ناس عاقلين».

ردت ببرود:

«هو إيه اللي بعمله.. ولو شايفني مجنونة فأكيد اتجننت من عمايلك».

نهره محسن: «فيه إيه يا فاروق.. هي عملت حاجة ولّا اتكلمت؟».

أجاب فاروق: «والله ما حد هيصدق.. أنا نفسي مكنتش مستوعب إلا لمّا اتأكدت دلوقتي.. الهانم بتخاف على بنتها مني.. بقالها فترة كبيرة متخليش ملك في البيت لو هي مش في البيت.. ولو اضطرت تنزل البنت تقفل على نفسها ومتتعاملش معايا خالص.. كل دي كانت شكوك لحد إمبارح صممت تخليها تصحّي العيال بعد ما ناموا ويروحوا يباتوا عند جدتهم علشان مبقاش معاهم لوحدي.. وقدامكم اهو لمّا بقولها آخد العيال وملك.. بشوف رد فعلها.. لقيت اللي توقعته.. يسرية بتخاف على ملك مني!!».

تركزت نظرات سمية ومحسن على يسرية، التي تجاهلت الرد..

فسألها فاروق: «ما تردي.. إيه اللي حصل علشان تفكري كده؟».

يسرية: «عمايلك».

صُعِق فاروق وهو يسألها:

«أنا؟!.. إزّاي؟».

- «البنت كبرت واتغيرت وانا بخاف عليها.. حقي.. هو أنا مش أمها ومن حقي أخاف على بنتي».

تدخلت سمية: «مش للدرجة دي يا يسرية».

ضحك فاروق بسخرية ثم قال بعصبية:

«بنتك اللي متربية قدام عيني.. بنتك أخت ولادي هبص لها؟!».

قالت يسرية: «اللي عينه زايغة وبتروح على أيّ واحدة.. حلوة ولّا وحشة، كبيرة ولّا صغيرة، يبقى ليّا حق أخاف منه.. إنتَ فاكرني علشان من زمان بطلت أفتش وراك يبقى واثقة فيك.. لااااا.... الثقة دي ماتت من زمان من كتر خياناتك ليّا».

- «إنتي بقيتي لا تطاقي.. أنا مش عارف إزّاي مستحمل أعيش معاكي؟».

خرج فاروق من المكتب وتبعه محسن لتهدئته.. واقتربت سمية من يسرية التي رفعت نقابها تمسح دموعها وأنزلته مرة أخرى:

«هي الحياة بينكم وصلت للدرجة دي.. أنا من زمان حذرتك من فاروق بس خلاص إنتم اتجوزتم وبقى بينكم سنين كتير وعيال.. معقول كل يومين تلاتة خناقة كبيرة.. مش عارفة أقول لك إيه.. استحملي وعدّي ولا أقول لك كفاية كده».

ردت يسرية بصوت مخنوق:

«لو كنت قادرة أتطلق منه كنت اتطلقت من زمان.. لمّا ببص على ولادي وهما بيلعبوا معاه ولّا بيستنوه لمّا يرجع من بره ويجروا عليه بيصعبوا عليّا أحرمهم منه.. خايفة أتطلق مقدرش على مسئوليتهم لوحدي.. خايفة من كلام الناس لو اتطلقت».

- «بس؟».

- «وهو ده قليل؟».

- «لا مش قليل.. بس السبب الأساسي مقلتيهوش».

- «اللي هو إيه؟».

- «إنك لسه بتحبيه زي زمان ويمكن أكتر».

- «يمكن».

- «لا.. أكيد.. لو مكنتيش بتحبيه مكنتيش استحملتي أيّ حاجة.. لا عديتي خيانة ولا استحملتي شك ولا لبستي النقاب علشان تريّحيه من غيرته عليكي ووقتها مكنتيش قريبة من ربنا ولا ملتزمة زي دلوقتي.. إنتي بتحبيه والأسباب اللي قلتيها دي كلها بعد الحب».

صمتت يسرية وهي مدركة تمامًا أن سمية لم تخطئ في تفسيرها.. وأن الحب الذي أضعفها قديمًا ما زال يُضعفها حتى اليوم.

❑❑❑

خرج محسن يتبع فاروق.. ذهب فاروق عند نافذة بعيدة في آخر الدور وبدأ تدخين سيجارة.

بدأ محسن كلامه: «صلي على النبي كده واهدا».

- «موصلتش للدرجة دي يا محسن.. أنا بستحمل منها كتير وساكت».

- «مستحمل إيه يا فاروق.. اضحك على الناس كلها لكن عليّا أنا لأ.. أنا وانتَ عارفين اللي فيها.. يسرية مستحملة عينك الزايغة وعلاقاتك اللي مبتنتهيش.. بتديها الباقي من مصروفك وهي بتكمل وواقفة وقفة راجل.. ده إنتَ وصل بيك الشك إنك كنت بتراقبها لمّا بتنزل وأكيد من كُتر المرات في مرة منهم شافتك وطنّشت.. وجاي تقول إنتَ اللي مستحمل؟».

- «أيوه مستحمل.. لسانها الطويل وردها عليّا كل كلمة بعشرة.. عدم اهتمامها بشكلها ولبسها زي زمان.. ده اللي يشوفها يقول عليها عدت ٥٠ سنة».

- «عايزها تهتم بالشكل واللبس؛ اصرف.. ماهي هتجيب منين.. هتصرف على البيت ولا على لبسها وشكلها؟».

- «ما أنا ساكت اهو.. بس هي زوّدتها أوي.. بتخاف على بنتها مني؟ مش قادر أصدق».

- «يا عم خلاص بقى.. بنتها برضه ومن حقها تخاف عليها».

- «إزّاي.. فهمها لي.. أنا في مقام أبوها، دي أخت ولادي.. إزّاي ممكن تفكر إني ممكن أبص لها بصة وحشة؟».

- «عدي لها زي ماهي عدت لك شكك فيها سنين كتير لحد ما صدقت واقتنعت إنها مبتعملش حاجة من وراك.. سيب الوقت يعدي وهي تهدا وتنسى خوفها وقلقها ده».

زفر فاروق دخان سيجارته الثانية وهو ينظر من النافذة بعيدًا:

«واحنا بنحضّر لجوازنا كنت فاكر إني هعيش معاها حياة سعيدة من غير أيّ مشاكل.. أو مشكلة بسيطة كل فين وفين يعني.. مكنتش أعرف إن من بعد جوازنا على طول والمشاكل هتبدأ.. مش عارف مين فينا السبب.. بس الأكيد إن إحنا الاتنين مش مرتاحين».

- «ولمّا انتم الاتنين مش مرتاحين.. ليه استنيتم مع بعض كل ده؟».

ابتسم فاروق وتحدث بشجن:

«من كُتر ما كنت مركز أفهم اللي حواليّا مكنتش فاهم نفسي.. لما اتجوزت يسرية كنت فرحان بحبها ليّا.. كنت فرحان بظروفها المرتاحة اللي وفرت عليّا كتير.. كنت بقول إنها الجوازة اللي كنت مستنيها.. مناسبة لظروفي وهتحقق لي الاستقرار والأسرة اللي نفسي فيهم.. بس بعد سنين ومن بعد ما المشاكل كانت بتزيد ومع كل مشكلة ألاقي نفسي بعدّيها وبنساها وببقى عايز في آخر اليوم أرجع لها وآخدها في حضني حتى لو كنت مع أحلى وأصغر منها قبلها بساعات.. بس برضه ببقى عايزها هي.. عايز اطمّن بوجودها.. لمّا لقيت نفسي بغِير عليها غصب عني من ولادنا لمّا بياخدوها مني.. لمّا لقيت نفسي متعلق بيها زيهم.. عرفت قد إيه أنا بحبها وإن كل كلمة حب قلتها لها كانت من قلبي».

- «ولما بتحبها الحب ده كله.. بتخونها ليه؟».

- «مش عارف.. طبع.. إدمان.. سميها أيّ حاجة بس المهم إني مقدرش أعيش وفي حياتي واحدة بس».

- «طيب كفاية ويلّلا نرجع المكتب».

- «أنا هنزل أجيب فطار».

أخرج فاروق هاتفه من جيبه.. واتصل بـ«يسرية»:

«أيوه.. أنا نازل أجيب فطار أجيب لك إيه معايا؟ ماشي هروح وآجي على طول نفطر مع بعض».

انتهى فاروق من مكالمته وسأل محسن:

«هتيجي معايا؟».

- «لا، راجع المكتب».

ذهب كل منهما في اتجاه.. لم يتعجب محسن من سرعة تقلب فاروق ويسرية.. لم تكن المشكلة الأولى التي يحضرها.. ويثق أنها لن تكون الأخيرة.. وفي كل مرة يعود كل منهما للآخر وكأن شيئًا لم يحدث.

«ننسى.. وعين الله لا تغفل عن الحق أبدًا»

انتشرت قصتان لـ«رزق وفاطمة».. القصة الحقيقية التي أرسلتها كريمة، والقصة الأخرى التي نشرها الرجل الغريب.

وانقسم المتلقون.. منهم من يصدق القصة الحقيقية ويعمل على نشرها ومنهم من يميل لتصديق قصة الخطف بسبب كثرة انتشار خطف الأطفال في الفترة الأخيرة.

ووصلت القصة لـ«رزق» عن طريق المدرسة فأكد القصة الحقيقية لمدرسيه وزملائه..

واستوقفت القصتان أحد الكتاب الشباب المشهورين.. ورأى الصراع بين متلقي القصتين فأراد أن يتأكد بنفسه فذهب للعنوان المكتوب في «البوست» الأول وسأل عن رزق.

وجد أصحاب المحلات في الشارع يعرفون رزق ويؤكدون القصة الحقيقية وأخبروه أنه لم ينقطع عن العمل وسيظهر حتمًا في أيّ وقت.

بالفعل، ظهر رزق بعد قليل يحمل بضاعته ويتنقل بين السيارات والمارة.

استوقفه الكاتب الشاب وبدأ حديثه معه بوضوح أنه يريد كشف الحقيقة عن طريق أصحاب القصة الحقيقيين (هو ووالدته).

حكى رزق القصة كما يعرفها منذ أن وعى الدنيا وما حكته فاطمة عن قصة والديه المتوفيين.. حكى عن فاطمة وتضحيتها وتفانيها في تربيته.. حكى عن مرضها الذي أقعدها عن العمل مما اضطره للعمل بدلاً منها ليكمل تعليمه وليصرف على المنزل الذي يجمعهما.

وجد الكاتب في قصته حبًّا وتضحيةً من الطرفين.. وجد أن القصة التي أرسلتها كريمة تحمل جزءًا من تضحية متبادلة بين رزق وفاطمة.

طلب الكاتب مقابلة فاطمة.. طلب منها التقارير الطبية التي تثبت حالتها والتقط صورًا لـ«رزق» وفاطمة وللتقارير الطبية والأشعات.

وفي طريق عودته، ذهب إلى طبيب صديقه وتأكد من الحالة الطبية لـ«فاطمة» وضرورة إجراء الجراحة في أسرع وقت.

في الليلة نفسها، بعد عودته لمنزله كتب قصة رزق وأرفق صورهما معًا وكتب أنه تحرى عن القصة بنفسه من أصحابها..

كتب عن مرض فاطمة والعملية المطلوب إجراؤها سريعًا والفقر الذي يُلزمها الانتظار عامًا ونصف العام، قد يسبقها الموت قبل موعدها.

كتب عن دموع رزق وهو يصف خوفه من أن يفقد فاطمة في فترة انتظار العملية.

القصة لاقت تفاعلاً كبيرًا.. وانتشرت بصورة أكبر.

ووصلت القصة لـ«علي ونورا» وتفاجآ بمرض والدتهما.

اتصلا بـ«فاطمة» فور علمهما بمرضها.. عاتباها على إخفاء مرضها عنهم لكنها لم تُثقل عليهما وطمأنتهما أنها بخير.

تواصل بعض قراء الكاتب معه وعرضوا عليه فكرة جمع تبرعات عن طريقه لـ«فاطمة» لإجراء العملية في أقرب وقت، فوافق وبدأ نشر الفكرة وجمع التبرعات.

❑❑❑

جلس فريد سليمان في مكتبه في شركة المقاولات في أبوظبي.. فاتحًا أمامه اللاب توب وصورة رزق مكبرة أمامه شاردًا فيها..

الصورة التي رآها منذ أيام ما زالت تطارده.. تطارده مع ذكريات طفولته وصباه في بلدته قبل قدومه للإمارات منذ سنوات طويلة.

ظل مترددًا لأيام.. يريد الحقيقة قبل أيّ حديث.

تساءل.. كم يومًا آخر سيظل حائرًا هكذا.. فلتَكْفِ تلك الأيام ولا بد من التأكد مما يساوره من شك.

وإن كانت نسبة الشك تقترب من اليقين بسبب إحساسه ولكن عمله كمحامٍ ومستشار قانوني لشركة كبرى علّمه أنه لا يقين سوى بالأدلة والمستندات.

احتار من أين يبدأ ليتأكد من شكوكه.. هل يبدأ بمراسلة الكاتب الشاب أم الصفحة التي نشرت القصتين معًا؟

أعاد قراءة كل المنشور عن رزق.. وتوقف عند جملة «أكتب لكم لأني شاهد على القصة من بدايتها لنهايتها».

ثم أرسل للصفحة رسالة قصيرة:

أريد التواصل مع صاحبة الرسالة لأمر مُهِمّ يخص الطفل رزق.

فريد سليمان المحامي.

انتظر ردًّا.. ساعة وأخرى مرت دون رد..

أنهى ما تبقى من عمله وغادر مكتبه متجهًا إلى منزله.

بعد وصوله المنزل.. فتح الفيس بوك ليرى إن كان قد ورده رد على رسالته أم لا.. متوقعًا أنه لن يجد ردًّا.

فوجئ برد على رسالته ففتح الرسالة بسرعة.. ليقرأ:

تم استئذان صاحبة الرسالة ووافقت على التواصل عن طريق الأكاونت الشخصي.

ومرفق بالرسالة لينك لأكاونت باسم «كريمة عوض».

استقبل الرد بفرحة شديدة.. وبدأ مراسلة كريمة دون تفكير.. ترك العنان لمشاعره المتدفقة وذكرياته وشجونه.. كتب رسالة طويلة جدًا.. بعدما قرأها فكر برهة ومسحها كلها.. وكتب باختصار:

«السلام عليكم.. أنا فريد سليمان المحامي.. قرأت قصة رزق كما رويتِها.. أرجو التأكد من اسمه كاملاً واسم والديه وإن كان باستطاعتك إرسال صور لأيّ أوراق تثبت نَسَبه أكون شاكرًا.

رجاءً.. الأمر مُهِمّ جدًا فإن كان هو من أظن.. فأنا أعرف عائلته وله حق أودّ أن أردّه له».

❑❑❑

وقف رزق يبكي بصمت في الشارع أمام بوابة البيت، وعامل الفراشة يرص الكراسي في الصوان وصوت القرآن الكريم يصله عاليًا..

جاءت سيارة دفن الموتى وسأله السائق:

«هنا بيت المتوفاة؟».

أجاب رزق وما زال يبكي بهزة رأس فقط.

فقال السائق:

«طيب.. نادي لي حد كبير أو اطلع بلّغهم إن العربية وصلت».

صعد رزق وهو يبكي حتى وصل لشقة الحاج عوض.. قال لأحد أبنائه:

«العربية وصلت تحت».

ارتفع صوت بكاء كريمة وفاطمة تضمها وتبكي هي الأخرى.. بكت كل الموجودات والرجال يحملون جسد المتوفاة وذهبوا جميعًا للدفن وكريمة منهارة تمامًا حزنًا على فراق والدتها.

أسبوع مضى وكريمة تحاول التأقلم على حياتها الجديدة وحدها بعد مغادرة إخوتها.

الأسبوع الماضي، تناوب الإخوة في الإقامة مع كريمة.. ولكن في النهاية عاد كل إلى منزله وحياته ومشاغله.

انتهى بها الحال وحيدة مع الخادمة المقيمة معها.. وبدأت تصنع لنفسها مشاغل يومية فألزمت نفسها بأن تصعد كل يوم لـ«فاطمة» تطمئن على صحتها وتتابع أخبار رزق ودراسته.

منذ وفاة والدتها، انقطعت عن الفيس بوك.. ثم عادت لتجد رسائل قليلة من ضمنها رسالة فريد سليمان.

قرأتها وردت:

«أعتذر عن التأخير في الرد لظروف وفاة والدتي..

علي محمد رزق هو اسم رزق كاملاً.

وفي أقرب فرصة يمكنني إرسال صور للأوراق التي تثبت نَسَبه.. غدًا مساءً على أقصى تقدير».

تلقى فريد رسالة كريمة بعد أن فقد الأمل في الرد.

قرأها بلهفة الصائم على قطرة ماء.. فكتب سريعًا:

«البقاء لله.. في انتظار الأوراق».

تلقت كريمة الرد سريعًا.. ترددت قليلاً ولكنها سألت:

«هو حضرتك تعرف أهله كويس؟ أهل باباه ولّا أهل مامته.. وحق إيه اللي تقصده؟».

أرسلت رسالتها ثم ندمت على تسرعها.. ثم أرسلت مرة أخرى:

«آسفة.. لمّا نتأكد الأول إذا كان هو اللي تقصده ولّا لأ».

فكرت سريعًا ثم كتبت بحماس:

«نص ساعة وأرجع.. أكون صوّرت الأوراق».

الرسائل متلاحقة أسرع من ردود فريد.. شعر بحماسها المناسب للهفته ثم كتب:

«في انتظارك.. بس لو سمحتي ممكن متقوليش للولد حاجة إلا لمّا نتأكد.. يمكن ميكونش هو والطفل يتعلق بأمل على الفاضي».

أرسلت كريمة: «معاك حق.. نص ساعة بالكتير وجاية».

نهضت كريمة سريعًا.. ارتدت إسدال الصلاة وصعدت لـ«فاطمة».

فتحت فاطمة الباب لـ«كريمة» ورحبت بها.. سألتها كريمة:

«رزق هنا؟».

- «لأ.. لسه مرجعش».

- «طيب الأوراق اللي كانت مع مامته وأيّ حاجة تثبت نسب رزق معاكي ممكن أصوّرها».

ردت فاطمة: «حاضر.. بس ليه؟».

ترددت كريمة وكلمات فريد تتردد في أذنها:

«علشان موضوع الكلام اللي اتكتب عنكم الفترة اللي فاتت.. عايزة يبقى معايا دليل إن رزق يتيم فعلاً وإنك ربيتيه مش خاطفاه».

- «هما الناس لسه بيتكلموا؟ مش الراجل جه كتب الحقيقة وشاف الورق».

- «مش كل الناس شافته.. عايزة يبقى معايا أنا كمان صور الورق ده».

- «حاضر يا بنتي».

دخلت فاطمة غرفتها وأخرجت مظروف الأوراق الخاصة بـــ«رزق».. أحضرته لـ«كريمة».. صوّرت كريمة كل الأوراق بهاتفها وأعطتها لـ«فاطمة» مرة أخرى ونزلت إلى منزلها.

أرسلت كريمة صور الأوراق لـ«فريد».. استقبلها فريد وقرأها بلهفة.. دمعت عيناه وظل ينظر في الأوراق وفي صورة أخرى..

انتظرت كريمة.. تريد أن تعرف هو المقصود أم لا.. فأرسلت:

«هو اللي تعرف أهله؟».

أرسل لها فريد صورة.. تبدو قديمة لأطفال في قرية تبدو خلفهم أرض زراعية يبتسمون في الصورة بفرحة وكل منهم ممسك بلعبة.

ولدان وبنت.. الولدان يضع أحدهما يده على كتف الآخر وأحدهما يمسك يد البنت التي تصغرهما بيده.

دققت كريمة في الصورة.. وقبل أن تكتب وصلتها رسالة فريد:

«الصورة دي هي وصورة رزق كانوا بيطاردوني الفترة اللي فاتت لدرجة إني مكنتش بنام.. من وقت ما دوّرت عليكي لحد ما رديتي عليّا وأنا في دوّامة.. يا ترى إحساسي صح ولا من كُتر ما أنا بفكر في الموضوع شايفهم شبه بعض».

سألت كريمة: «الشبه كبير.. الولد اللي على الطرف ده شبه رزق أوي.. حضرتك اللي معاه أكيد.. إنتم قرايب؟».

كتب فريد مسترجعًا ذكريات بعيدة.. سعيدة:

«ده محمد أبوعلي، أو رزق زي ما بقى اسمه دلوقتي.. وانا اللي في النص واللي جنبي بنت خالي.. أنا ومحمد أصحاب من أول ما وعينا على الدنيا.. أبويا وأبوه أصحاب أوي واحنا كمان بقينا أصحاب زيهم.. مع بعض من ابتدائي لحد ثانوي والتنسيق فرقنا دخلت أنا جامعة إسكندرية ودخل هو جامعة القاهرة.. وده برضه مبعدناش عن بعض.. لو متقابلناش في البلد بنروح لبعض هو يجيلي أو أنا أروح له.. بنت خالي اللي معانا في الصورة دي هي كمان دخلت جامعة إسكندرية وكانت مع عزة في السنة نفسها والكلية.. عزة أم علي.. محمد وعزة اتعرفوا على بعض عن طريقنا.. اتخرجنا وبدأ محمد يتقدم لـ«عزة» وأهلها يرفضوا وحصلت مشاكل.. وأنا في الفترة دي حصل لي صدمة خليتني مش عايز أقعد في البلد خالص وفعلاً سافرت أشتغل في الإمارات ولحد الآن أنا هناك.. بعد فترة المشاكل اتجوزوا محمد وعزة.. واتفاجئت بخبر وفاة محمد.. ودي كانت تاني صدمة خليتني مش عايز أرجع خالص حتى في الإجازات.. نسيت أقول لك إن محمد أخ صغير وإخواته مش أشقاء وفيه كُرْه باين للكل وحتى هما مش بيخفوه.. بعد وفاة محمد باباه خاف على رزق وعزة منهم لو جرى له حاجة وكأنه كان حاسس.. اتشارك مع أبويا في حتة أرض اشتروها في إسكندرية على أساس هيبنوا عليها عمارة.. من غير أولاده ما يعرفوا.. قبل العمارة ما تتبني الحاج توفي الله يرحمه وكان عامل توكيل لأبويا وموصيه إن لو حصل له حاجة نصيبه في الشراكة دي كله لعلي من غير ما حد من ولاده الكبار يعرفوا.. وكمان كان مستني يقول لعزة بعد ما يبني العمارة.. لا لحق العمارة ولا لحق يقول لعزة.. حصل مشاكل بعد وفاة الحاج وحاول والدي يوصل لعزة يعرّفها ويشوف لو محتاجة حاجة كانوا إخوات محمد بيتحججوا ويمنعوه لحد ما عزة سافرت لأخوها.. والدي راح

لها بعد كده عرف إنها مشيت ومحدش عارف طريقها.. والدي مكانش بيخبي عليّا أنا وإخواتي حاجة خصوصًا الأمور المادية وكان دايمًا يقول محدش ضامن عمره لو حصل له حاجة لازم الحق يرجع لصاحبه.. أنا طوّلت عليكي صح.. ممكن تتفضلي تقومي لو وراكي حاجة».

كتبت كريمة وهي متشوقة لسماع بقية القصة:

«لا، أبدًا مش متعطلة عن أيّ حاجة.. اتفضل كمل أنا عايزة أعرف باقي الحكاية».

«الباقي مش كتير.. بعد فترة كان والدي دايمًا يسأل أخو عزة عليها ومفيش أيّ جديد لحد ما افتكرت إن ممكن تكون راحت القاهرة في شقة محمد اللي كانت عنده أيام الدراسة.. قلت لوالدي العنوان وراح سأل وعرف إنها فعلاً راحت وقعدت هناك فترة واختفت مرة واحدة محدش يعرف طريقها.. الحقيقة إحنا فسرنا إنها ممكن تكون اتجوزت وقلنا مسيرها تظهر على الأقل هتكلم أخوها في يوم لأيّ سبب.. بس من وقتها معرفناش حاجة عن عزة ولا ابنها بس حق علي موجود في حساب لوحده في البنك وباسمي بمعرفة إخواتي علشان لو حصل لي حاجة إخواتي يحافظوا على حقه من بعدي».

- «ربنا يديك الصحة».

- «شكرًا».

- «هو والدك موجود؟».

- «لا.. توفى قريب من سنتين كده.. المهم اللي شفته إن رزق بيشتغل في الشارع والست اللي ربّته تعبانة وأكيد حياتهم صعبة».

- «صعبة جدًا».

- «طيب.. لو ممكن أبعت لهم أيّ فلوس محتاجين لها لحد ما أقدر آجي بنفسي وأشوف كل اللي علي محتاجه؟».

- «على فكرة همّا نفسهم عزيزة جدًا ومش بيقبلوا بأيّ مساعدة.. فلو عايز تبعت لهم

فلوس لازم أقول لـ(رزق) ومامته على كل حاجة.. ولو إني أفضّل حضرتك اللي تقول لهم بنفسك».

- «خلاص.. هحاول آجي مصر في أقرب وقت إن شاء الله.. أظبّط شغلي بس وأقول لك جاي إمتى علشان ترتبي لي معاد معاهم.. أنا آسف لو هتعبك».

- «أكيد مفيش تعب ولا حاجة.. أنا بس عايزة أقول حاجة».

- «اتفضلي».

- «عزة قبل ما تتوفى وصّت إن رزق ميروحش لأهل باباه.. وكمان خايفة لمّا يسيب أمّ علي ويرجع لأهله هي هتعيش من غيرُه إزّاي.. ولا أعرف هو ممكن يعيش من غيرها إزّاي.. مش هتتخيل همّا مرتبطين ببعض قد إيه».

- «متقلقيش.. أنا مش هقول لأهل باباه على حاجة.. أنا أساسًا مبحبهمش وهما لو عرفوا إن علي ليه فلوس هيطمعوا فيها ومش بعيد ياخدوها بحجة الوصاية عليه».

- «طيب.. وخاله؟».

- «خاله مهتمش يدوّر عليه كل السنين اللي فاتت يبقى مش هقول له خد ملايين ابن أختك على الجاهز».

- «ملايين؟».

- «أيوه طبعًا.. المبلغ كبير وبقاله سنين في البنك بيزيد عليه فوايده».

- «طيب سؤال محرج شوية؟».

- «اتفضلي».

- «هو لسّه فيه حد زي حضرتك ممكن ميبصش لملايين تحت إيده لمجرد بس الأمانة؟!».

ابتسم فريد بمرارة وكتب:

«الحمد لله عندي كتير.. يعني ممكن أزوّد له فلوسه كمان لو عايز».

- «أنا آسفة.. كلامي سخيف بس مقصدش غير تقدير لأمانتك».

- «متعتذريش.. أنا بتكلم بجد، أنا فعلاً الحمد لله عندي كتير أكتر من احتياجي.. وابن محمد وعزة كأنه ابني بالظبط ومش هخلّيه محتاج حاجة أبدًا إن شاء الله».

- «إن شاء الله».

- «أنا اللي آسف إني أتكلمت معاكي كل ده وضيّعت من وقتك ساعات كتير».

- «أبدًا.. قلت لحضرتك أنا موراييش حاجة فعلاً».

- «تمام.. أنا ورايا شغل الصبح.. هستأذن حضرتك وإن شاء الله أول ما أحدد معاد وصولي هكلمك».

❑❑❑

تواصل الكاتب مع رزق وأخبره أنهم بصدد جمع تبرعات لإجراء العملية لـ«فاطمة» في أقرب وقت.

طمأن رزق فاطمة التي كانت تهاجمها آلام المرض بشراسة ولكنها تخفي آلامها عن رزق بقدر المستطاع.

وصل فريد سليمان القاهرة بعد أسبوعين من تواصله مع كريمة..

مهّدت كريمة اللقاء وصممت على استقبال فريد في شقتها وترتيب اللقاء في بيتها..

أعدت مع الخادمة غداءً ودعت فاطمة ورزق وفريد.

جلس الأربعة يتناولون الغداء بترحاب من كريمة.

كريمة سعيدة بأن رزق ستتبدل حياته وممتنة للرجل الذي حمل الأمانة سنوات حتى آن أوان ردها.

أحضر فريد لـ«رزق» ملابس كثيرة وأحذية وأدوات مدرسية كلها من أرقى الماركات..

ولم ينسَ أن يُهدي لـ«كريمة» أحد العطور الفرنسية.

وأحضر لـ«فاطمة» بعض عبايات خليجية.

بعد الغداء جلسوا جميعًا ليحكي فريد مرة أخرى ما حكاه لـ« كريمة» من قبل.. وسأل عن أحوال رزق السنين الماضية وسمع من رزق حكايات كثيرة عن فاطمة وتضحياتها.. أخبره فريد أنه الآن يمتلك نقودًا تكفيه كل ما يحتاج هي حقه من وصيّة جده.

بمجرد انتهاء فريد من حديثه سأله رزق:

«يعني الفلوس تكفي ماما تعمل العملية بسرعة؟».

ابتسم فريد وهو ينظر لـ« كريمة» وأجاب:

«تكفي وتفيض كمان».

رزق: «طيب أنا عايز ماما تعمل العملية النهارده».

فريد: «أنا مش عارف مين أحسن دكتور هنا ممكن يعمل العملية».

نظر لـ« كريمة» وسألها:

«تعرفي دكتور كويس؟».

- «طبعًا.. أنا بقى لي ١٠ سنين عايشة وسط الدكاترة والمستشفيات فخلاص بقى عندي خبرة».

فريد: «لو ممكن تليفون الدكتور نحجز معاه معاد ونشوف؟».

في اليوم نفسه، دخلت فاطمة مستشفى خاصًّا لإعادة إجراء التحاليل والأشعات قبل العملية.. رفض رزق أن يتركها رغم عرض كريمة مرافقتها.. وتقرر إجراء العملية بعد يومين.

فريد وكريمة لم يتركا رزق أثناء عملية فاطمة.. كان يبكي في حضن كريمة كثيرًا فتطمئنه.. ويحاول فريد أن يخفف عنه.

خرجت فاطمة من غرفة العمليات.. وطلب الطبيب من فريد تحليل الورم وكتب له اسم المعمل.

ذهب فريد للمعمل وتبقت كريمة مع رزق حتى بدأت فاطمة تفيق من البنج قليلاً وتغيب مرة أخرى عن الوعي.

أيام متتالية وفريد وكريمة يرافقان فاطمة ورزق طوال اليوم، وفي الليل يذهب فريد لتوصيل كريمة إلى منزلها ثم يذهب للفندق الذي يقيم فيه وفي الصباح يعود مرة أخرى لاصطحابها إلى المستشفى.

خلال تلك الأيام حكى لـ«كريمة» عما ينويه ليأخذ رأيها فيه..

أخبرها أنه بعد خروج فاطمة من المستشفى سيذهب بـ«رزق» إلى خاله في الإسكندرية كما طلبت عزة.. وأردف:

«بصراحة ناوي مجيبش أيّ سيرة عن حق رزق إلا لمّا أشوف استقبال خاله ليه هيكون إزّاي».

- «تفتكر هيطلب إنه هيفضل معاه».

- «مش عارف.. هنشوف».

تحسنت صحة فاطمة وخرجت من المستشفى.. استأذنها فريد في اصطحاب رزق إلى خاله.. أكدت عليه قبل السفر:

«أرجوك لو خاله طلب ياخده يرجع لي بس يقعد معايا لحد ما يخلص السنة دي ويبقى يروح».

قالتها فاطمة وهي تبكي من مجرد فكرة ترك رزق لها.. تمسك بها رزق وقال مؤكدًا:

«أنا مش هسيبك أبدًا يا ماما.. أنا هزورهم بس وأرجع لك».

هزت فاطمة رأسها باستسلام وهي تعلم تمامًا أنها تقترب من فقد رزق إلى الأبد.

يوم طويل مر على فاطمة.. تتألم فاطمة من أثر العملية ومن خوفها على رزق ورعبًا من يوم تشتاق له ولا تجده جوارها.

سعيدة أن حياة رزق ستتبدل للأحسن وسينتهي عمله في الشوارع ليتحصل في آخر الليل على جنيهات قليلة.

ستكون فرصته في التعليم وفي مستقبل أفضل أكثر بكثير من وجوده معها.

تدعو الله له أن يكون في أحسن حال دومًا.

تشعر بها كريمة وتحاول التخفيف عنها بالحديث في موضوعات كثيرة بعيدة عن رزق.

في المساء.. عاد رزق ليرتمي بين ذراعي فاطمة.. قبّلته وكأنه كان غائبًا عنها سنوات.

كريمة تنظر بفضول إلى فريد تريد أن تعرف ما دار في الزيارة.. لم يحكِ فريد ففهمت كريمة أنه لا يريد الحديث.

استأذن فريد:

«طيب.. أستأذن أنا وهعدي عليكم بكره إن شاء الله.. تصبحوا على خير».

تبعته كريمة وهي تستأذن من فاطمة هي الأخرى..

وسألته بعدما نزلا السلم:

«إيه اللي حصل في الزيارة».

- «زي ما توقعت.. أخو عزة ومراته استقبلوا رزق ببرود غير متوقع.. مفيش لهفة ولا ترحاب.. بالعكس حسيت إنهم شايلين هم إنه يقعد عندهم».

- «كويس.. أم علي متقدرش تبعد عنه ولا هو يقدر يبعد عنها».

- «أنا بفكر في كام حاجة كده عايز آخد رأيك فيها».

وقفت كريمة أمام شقتها وقالت بتردد:

«طيب.. اتفضل اشرب قهوة ونتكلم».

- «الوقت اتأخر.. بكره نتكلم.. هروح أجيب نتيجة التحليل وآجي ويا رب أطمّنكم إن شاء الله».

- «ربنا يستر.. والله أنا ما عارفة أفكر خايفة أم علي لا قدر الله يعني يجرى لها حاجة ورزق يبقى لوحده».

- «لا، مش هيبقى لوحده إن شاء الله.. لو حصل أيّ حاجة أنا ممكن آخده يعيش معايا».

- «وليه تاخده؟ يمكن أسرتك ميتقبلوش وجوده.. أنا مش هسيبه».

ابتسم فريد بمرارة وقال:

«مش هنسبق الأحداث.. تصبحي على خير».

جاء فريد في اليوم التالي.. طرق باب كريمة قبل صعوده لـ«فاطمة».

فتحت له الخادمة واستقبلته.. واستقبلته كريمة وهي تنظر للحزن البادي على وجهه:

«خير؟ شكلك متغير كده ليه؟.. التحليل فيه حاجة؟».

جلس فريد في الصالون وقبل أن يجيبها:

«ممكن فنجان قهوة؟».

- «آه، طبعًا».

دخلت كريمة المطبخ طلبت من الخادمة إعداد القهوة وعادت لتجلس أمام فريد.. وسألته:

«التحليل؟».

- «الورم خبيث».

نزلت دموع كريمة ورددت:

«يعني لمّا الحياة بدأت تريّحها شوية وتطمّنها تبقى آخر أيامها».

- «لا، إن شاء الله مفيش حاجة.. الدكتور أكد لي إن الورم اتشال كله ومفيش أيّ حاجة تقلق.. هو طلب تحليل تاني علشان يقرر».

ثم تردد وقال بألم:

«تاخد كيماوي أو لأ».

رددت كريمة بحزن:

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

جاءت القهوة.. قدمتها كريمة لـ«فريد»:

«اتفضل».

تناولها منها وهو يشكرها.. ثم سألته:

«كنت عايز تاخد رأيي في إيه إمبارح؟».

- «شقة محمد اللي هنا هطلّع الأوراق اللي تثبت ملكية علي للشقة وبفكر أوضّبها وأفرشها وينقلوا فيها بدل الشقة اللي فوق.. هي شقة صغيرة وفي منطقة متوسطة بس بقول أستنى لمّا يكبر شوية وأجيب له شقة تانية في حتة أحسن وأرقى.. ولا إيه رأيك؟».

صمتت كريمة تفكر ثم قالت بحزن:

«اعرض عليهم الفكرة وشوف رأيهم».

وأكملت بحزن وكأنها تردد أفكارها بصوت:

«لو مشيوا من هنا أنا هبقى لوحدي خالص دول همّا اللي بيهوّنوا عليّا حياتي».

سألها فريد بتردد وهو ينظر لصور زفاف معلقة على الحائط:

«مش ليكي إخوات برضه؟».

- «ليا.. بيسألوا عليّا بمكالمة تليفون لمّا يفتكروا وزيارة كل فين وفين».

تردد مرة أخرى ثم سألها:

«سؤال محرج لو حابة متجاوبيش براحتك.. إنتي متجوزتيش؟».

ردت كريمة بابتسامة لترفع عنه الحرج:

«مفيش إحراج.. لا متجوزتش.. اتخطبت مرة من زمان وبعدها والدي اتوفى وماما رقدت وكانت محتاجة لوجودي وخدمتي ليها ففضّلت أفضل في خدمتها.. الله يرحمها».

- «الله يرحمها.. شكرًا على القهوة».

نهض وهو يقول:

«أنا هطلع للحاجة فوق.. ومضطر أقول لها على كلام الدكتور.. أنا قدامي ٣ أيام وأسافر وعايز أشوف كل اللي رزق محتاجه لحد ما أعرف آجي تاني».

- «هطلع معاك.. ومتقلقش أنا مش هسيبهم وهنبقى على تواصل وأطمنك دايمًا».

❑❑❑

رفض رزق وفاطمة ترك شقتهم.. سافر فريد عائدًا للإمارات بعد أن ترك لـ«فاطمة» مبلغًا كبيرًا من المال وأكد على رزق أنها من أمواله الكثيرة.

تواصل الكاتب مع رزق ليخبره أنه تم جمع التبرعات لـ«فاطمة» فحكوا له ما حدث وطلبوا منه التبرع بالمال لمن يحتاجه.

كان فريد على تواصل يومي مع كريمة ومع رزق وفاطمة..

تبدلت حياة رزق وفاطمة للأفضل وتحسنت صحتها تدريجيًّا.

ظهرت نتيجة التحليل النهائي لـ«فاطمة»، والـذي يؤكد عدم احتياجها للعلاج الكيماوي.

ركّز رزق في دراسته وزاد تحصيله الدراسي وتفوّق على أقرانه بشكل ملحوظ.

وأخبره فريد أنه سيظل حافظًا لأمواله حتى يبلغ سن الرشد مع التكفل بكل ما يحتاجه واستثمار جزء من تلك الأموال لتفيده في المستقبل.

ذات مساء، وفي واحدة من المحادثات اليومية بين فريد وكريمة، كتب لها يسألها:

«امتحانات رزق إمتى؟».

- «بعد ٣ أسابيع».

- «وأخباره إيه في الدراسة؟».

- «ممتاز.. بياخد دروس خصوصية وانا بتابع معاه فمستواه اتحسن أوي الحمد لله».

- «الحمد لله.. رزق وحشني عايز أجيبه في الإجازة هو والحاجة يقعدوا معايا الصيف منها يتفسح ويغيروا جو».

- «فكرة كويسة».

- «ياريت تيجي معاهم».

- «شكرًا».

- «أنا بتكلم جد مش بعزم عليكي».

صمتت كريمة تفكر.. وتتخيل ماذا سيكون رد إخوتها إن قالت إنها تريد السفر بصحبة رزق وفاطمة في استضافة أسرة لا تعرفها.

كتب فريد:

«بتفكري؟».

- «أيوه».

- «طيب خدي العرض كله علشان تفكري فيه على بعضه».

- «عرض إيه؟».

- «أنا حاسس بوحدتك أوي لأني عايش زيك.. أنا لوحدي في فيلا كبيرة ومش معايا غير الطبّاخ والسوّاق.. إحنا ظروفنا واحدة وعلشان كده بعرض عليكي الجواز».

فوجئت كريمة بكلمات فريد.. فهي لا تعرف أيّ شيء عن حياته الخاصة.. سألته:

«أنت مش متجوز بنت خالك اللي كانت معاكم في الصورة واللي حكيت لي عنها».

رد بألم: «بنت خالي وحب عمري من واحنا صغيرين ماتت قبل ما نتجوز واحنا خلاص بنجهز لبيتنا.. فجأة تعبت ولفينا بيها على دكاترة البلد محدش عرف مالها رُحنا بيها على مصر وفي المستشفى وقبل التشخيص ماتت.. كده بسرعة ودي كانت الصدمة اللي قلت لك عليها وخلتني مش قادر أقعد في البلد ولا مصر كلها.. جيت اشتغلت هنا ومقدرتش أتجوز.. كنت بزور أهلي كل كام سنة لأني مش مستحمل أروح البلد وهي مش فيها».

قاطعته كريمة:

«إزّاي وانت بتحبها كده بتفكر في الجواز.. واشمعنى أنا».

- «هي هتفضل ذكرى في حياتي وعمري ما هنساها.. بس خلاص تعبت من الوحدة مش قادر أكمل عمري كده.. أمّا ليه إنتي فمش عارف بالظبط يمكن لأني من زمان مرتحتش لحد كده.. يمكن لأن ظروفنا متشابهة زي ما قُلت لك.. مش عارف أحدد».

صمتت كريمة.. عرض فريد أربكها.. لاحظ فريد عدم ردها فكتب:

«العرض ده مش إجبار ولا إحراج.. ده مجرد عرض وليكي كل الحرية في الرفض من غير أعذار ومن غير ما أيّ حاجة تتغير وهنفضل على تواصل علشان رزق.. لو رافضة تمامًا مفيش مشكلة أمّا لو هتفكري فدي حاجة تسعدني أيًّا كان ردك».

كتبت بتردد وخجل:

«هفكر».

❒❒❒

في الصباح التالي.. صعدت كريمة لـ«فاطمة».. حكت لها عن عرض فريد وظروفه وقصته.. وسألتها:

«مش عارفة أقول إيه.. أوافق ولّا بلاش ليكون لسّه بيحب خطيبته ويندم بعدين».

حضنتها فاطمة وهي تقول:

«اوعي تفرطي في راجل زي ده.. اللي صان الأمانة سنين طويلة علشان يردها لصاحبها.. واللي جه من آخر الدنيا ووقف جنبنا كأنه واحد يعرفنا من زمان.. واللي أخلص لخطيبته السنين دي كلها راجل يُعتمَد عليه وأقول لك وأنا مطمّنة اوعي ترفضيه.. ده نصيبك اللي ربنا كان شايله ليكي علشان يكافئك بيه على صبرك وبِرّك وتضحيتك.. مبروك يا كريمة».

ابتسمت كريمة في حضن فاطمة وهي تربت عليها.. شعرت بأن قلبها بدأ ينبض بعد دفنه سنوات طويلة.

عادت للخلف ونظرت لـ«فاطمة» وهي تقول بخجل:

«تصدقي إني مكسوفة أقول لاخواتي.. حاسة إني كبرت على كلمة جاي لي عريس».

ثم أكملت بصوت خفيض وهو تنظر للأرض:

«أنا عديت أربعين سنة يا أم علي وهو ٣٩.. قلت له أنا أكبر منك ومينفعش.. تتخيلي قال إيه؟».

سألتها فاطمة: «إيه؟».

قالت بسعادة: «قعد يهزر ويقول لي إنهم سجلوه متأخر في شهادة الميلاد.. هو كان بيضحك وهو بيقولها بس حسيته مش عايز يحرجني».

ضحكت فاطمة وهي تقول:

«شُفتي الذوق والأخلاق.. عايز يقول لك إن مفيش حاجة تخلّيه يرجع عن طلب الجواز حتى لو كنتي أكبر منه.. وبعدين ما انتي زي الفل اهو أربعين إيه بس.. افرحي يا كريمة انتي مفرحتيش.. افرحي وفرحينا كلنا بفرحتك.. ربنا يسعدك».

أخرجت كريمة هاتفها في نفس اللحظة..

كتبت رسالة مختصرة لـ«فريد»:

«موافقة.. رقم أخويا الكبير.....».

❒❒❒

بعد سنوات..

تزوجت كريمة من فريد وبعد الزواج بأشهر قليلة تدهورت صحتها فجأة.. فزع فريد من تكرار مأساته السابقة..

عرضها على أكبر مركز طبي وجاءت نتيجة الفحص مفاجأة: (كريمة حامل ومعاناتها بسبب تقدم السن فقط وتحتاج رعاية خاصة).

وفّر لها فريد كل ما تحتاجه من اهتمام ورعاية وخدم.

أنجبت كريمة من فريد ولدًا وبنتًا (توأم) واستعادت صحتها.

عاشت كريمة مع فريد وأولادها سعادة لم تتخيلها.

سعادة كانت تحمد الله ليلاً ونهارًا عليها.

❑❑❑

انتقلت فاطمة مع رزق لشقة أخرى في حي راقٍ ودخل رزق مدرسة أفضل وتفوق في دراسته..

تحسنت صحة فاطمة وشُفيت تمامًا وعاشت مع رزق حياة مستقرة سعيدة.

يزورهما علي ونورا وأسرة كل منهما في الإجازة الصيفية ويعودون مرة أخرى كلٌّ إلى حياته.

حياة فاروق ويسرية كما هي.. لم يتغير فاروق ولم تأخذ يسرية موقفًا.. تسير بهم مركب الحياة في عواصف متكررة.

ترى يسرية يوميًا نظرات اللوم في أعين كل مَن حولها.. ترى انكسارها وضعفها وقهرها وتحاول إخفاءه في ردود حادة وأسلوب جاف تعامل به فاروق الذي شعر هو الآخر بضآلته وعدم قيمته أمام زوجته وأولاده.. ولا يستطيع اكتساب احترامهم له بعدما أصبحوا مدركين لكل ما يفعل.

تشتعل المشكلات بينهما في لحظة.. وتهدأ في لحظة.

علاقة عجز المحيطون بهما عن تفسيرها فتقبلوها.

وكأن الحب عقاب أبدي لكل منهما.



تمت